كتاب الشعب

إحياء علوم الدّين

للإمام أبى حامد الغزالى

الجزء الحادى عشر

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العينى القاهرة ت ٢١٨١٠

كتاب ذمّ الكبر والعجب

كتاب ذمّ الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق ، البارىء ، المصوّر ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، العلى الذى لا يضعه عن مجده واضع ، الجبار الذى كل جبار له ذليل خاضع ، وكل متكبر فى جناب عزه مسكين متواضع . فهو القهار الذى لا يدفعه عن مراده دافع ، الغنى الذى ليس له شريك ولا منازع ، القادر الذى بهر أبصارَ الخلائق جلاله وبهاؤه ، وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه ، وحصر ألسن الأنبياء وصفه وثناؤه ، وارتفع عن حد قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه . فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياؤه ، وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه ، وقصر أيدى القياصرة عظمته وكبرياؤه . فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه ، ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه . جل جلاله وتقدست أسماؤه . والصلاة على محمد الذى أنزل عليه النور المنتشر ضياؤه ، حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه ، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه ، وخيرته وأصفياؤه ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « قَالَ اللهُ تَعَالَى الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِى وَالْعَظَمَةُ إِزَارِى فَمَنْ نَازَعَنِى فِيهِمَا قَصَمْتُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » فالكبر والعجب داآن مهلكان . والمتكبر

(كتاب ذم الكبر والعجب)

(١) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فيهما قصمته : الحاكم فى المستدرك دون ذكر العظمة وقال صحيح على شرط مسلم وتقدم فى العلم وسيأتى بعد حديثين بلفظ آخر

(٢) حديث ثلاث مهلكات ـ الحديث : البزار والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف وتقدم فيه أيضا .

والعجب سقيمان مريضان ؛ وهما عند الله ممقوتان بغيضان ، وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات ، وجب إيضاح الكبر والعجب فإنهما من قبائح المرديات ونحن نستقصي بيانهما من الكتاب في شطرين ، شطر في الكبر ، وشطر في العجب

الشطر الأول

من الكتاب في الكبر

وفيه بيان ذم الكبر ، وبيان ذم الاختيال ، وبيان فضيلة التواضع ، وبيان حقيقة التكبر وآفته ، وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر ، وبيان ما به التكبر ، وبيان البواعث على التكبر ، وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر الكبر ، وبيان علاج الكبر ، وبيان امتحان النفس في خلق الكبر ، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه

بيان

ذم الكبر

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه ، وذم كل جبار متكبر ، فقال تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ[1]) وقال عز وجل (كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ[2]) وقال تعالى (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ[3]) وقال تعالى (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ[4]) وقال تعالى (لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا[5]) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ[6])

وذم الكبر في القرآن كثير . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ » وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال حبة من إيمان : مسلم من حديث ابن مسعود

(١) الاعراف : ١٤٦ (٢) غافر : ٣٥ (٣) ابراهيم : ١٥ (٤) النحل : ٢٣ (٥) الفرقان : ٢١ (٦) غافر : ٦٠

(١) « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ وَلاَ أُبَالِي » ومن أبي سلمة بن عبدالرحمن قال . التقى عبد الله بن عمرو وعبدالله بن عمر على الصفا ، فتواقفا ، فمضى ابن عمرو ، وأقام ابن عمر يبكي . فقالوا ما يبكيك يا أبا عبدالرحمن؟ فقال هذا ، يعني عبد الله بن عمرو ، زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) يقول « مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ أَكَبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « لاَ يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ » . وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوماً للطير ، والإنس ، والجن ، والبهائم اخرجوا . فخرجوا في مائتي ألف من الإنس ، ومائتي ألف من الجن . فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات ، ثم خفض حتى مست أقدامه البحر ، فسمع صوتا : لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته

وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ عُنُقٌ لَهُ أُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَعَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ يَقُولُ وُكِّلْتُ بِثَلاَثَةٍ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ وَبِالْمُصَوِّرِينَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلاَ جَبَّارٌ وَلاَ سَيِّءُ الْمَلَكَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ وَقَالَتِ الْجَنَّةُ مَالِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسُقَّاطُهُمْ وَعَجَزَتُهُمْ

---

(١) حديث أبي هريرة يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم مسلم وأبوداود وابن ماجه واللفظ له وقال أبوداود قذفته في النار وقال مسلم عذبته وقال رداؤه وازاره بالغيبة وزاد مع أبي هريرة أبا سعيد أيضا

(٢) حديث عبدالله بن عمرو من كان في قلبه مثقال حبة من كبر كبه الله في النار على وجهه: أحمد والبيهقي في شعب الايمان من طريقه باسناد صحيح

(٣) حديث لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين ـ الحديث : الترمذي وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله من العذاب

(٤) حديث يخرج من النار عنق له أذنان ـ الحديث : الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح غريب

(٥) حديث لا يدخل الجنة جبار ولا بخيل ولا سيء الملكة : تقدم في أسباب الكسب والمعاش والمعروف خائن مكان جبار

(٦) حديث تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

فقالَ اللهُ لِلجنَّةِ إنَّما أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشاءُ مِنْ عِبادِي وَقالَ لِلنَّارِ إنَّما أَنْتِ عَذابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشاءُ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُما مِلْؤُها » وقال صلى الله عليه وسلم [١] « بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاعْتَدَى وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الأَعْلَى بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاخْتالَ وَنَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعالَ بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ غَفَلَ وَسَهَا وَنَسِيَ الْمَقابِرَ وَالْبِلَى بِئْسَ عَبْدٌ عَتَا وَبَغَى وَنَسِيَ الْمَبْدَأَ وَالْمُنْتَهَى » وعن ثابت أنه قال [٢] : بلغنا أنه قيل يارسول الله ، ماأعظم كبر فلان ! فقال « أَلَيْسَ بَعْدَهُ الْمَوْتُ ؟ » وقال عبد الله بن عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] قال « إِنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلامُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَعَا ابْنَيْهِ وَقالَ إِنِّي آمُرُكُما بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهاكُما عَنِ اثْنَتَيْنِ أَنْهاكُما عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ وَآمُرُكُما بِلا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فَإِنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرَضِينَ وَما فِيهِنَّ لَوْ وُضِعَتْ فِي كَفَّةِ الْمِيزانِ وَوُضِعَتْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فِي الْكَفَّةِ الأُخْرَى كانَتْ أَرْجَحَ مِنْهُما وَلَوْ أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرَضِينَ وَما فِيهِنَّ كانَتَا حَلْقَةً فَوُضِعَتْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ عَلَيْها لَقَصَمَتْها وَآمُرُكُما بِسُبْحانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فَإِنَّها صَلاةُ كُلِّ شَيْءٍ وَبِها يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ » . وقال المسيح عليه السلام . طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جبارا . وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « أَهْلُ النَّارِ كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الضُّعَفاءُ الْمُقِلُّونَ »

---

(١) حديث بئس العبد عبد تجبر واعتدى ــ الحديث : الترمذي من حديث أسماء بنت عميس بزيادة فيه مع تقديم وتأخير وقال غريب وليس اسناده بالقوي ورواه الحاكم في المستدرك وصححه ورواه البيهقي في الشعب من حديث نعيم بن عمار وضعفه

(٢) حديث ثابت بلغنا انه قيل يارسول الله ماأعظم كبر فلان فقال أليس بعده الموت : البيهقي في الشعب هكذا مرسلا بلفظ تجبر

(٣) حديث عبد الله بن عمرو ان نوحا لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال اني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين أنهاكما عن الشرك والكبر ــ الحديث : أحمد والبخاري في كتاب الأدب والحاكم بزيادة في نقله قال صحيح الاسناد

(٤) حديث أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع : وهذه الزيادة عندهما من حديث عبد الله ابن عمرو وفي الصحيحين من حديث حارثة بن وهب الخزاعي ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيْنَا وَأَقْرَبَكُمْ مِنَّا فِي الْآخِرَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيْنَا وَأَبْعَدَكُمْ مِنَّا الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ » قالوا يارسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفيهقون ؟ قال « الْمُتَكَبِّرُونَ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مِثْلِ صُوَرِ الذَّرِّ تَطَؤُهُمُ النَّاسُ ذَرًّا فِي مِثْلِ صُوَرِ الرِّجَالِ يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ ثُمَّ يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُولَسُ يَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ طِينِ الْخَبَالِ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ » . وقال أبو هريرة . قال النبي صلى الله عليه وسلم [٣] « يُحْشَرُ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُوَرِ الذَّرِّ تَطَؤُهُمُ النَّاسُ لِهَوَانِهِمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى » وعن محمد بن واسع قال . دخلت على بلال بن أبي بردة ، فقلت له يا بلال إن أباك حدثني عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم [٤] أنه قال « إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِيًا يُقَالُ لَهُ هَبْهَبُ حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ يُسْكِنَهُ كُلَّ جَبَّارٍ » فإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه. وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « إِنَّ فِي النَّارِ قَصْرًا يُجْعَلُ فِيهِ الْمُتَكَبِّرُونَ وَيُطْبَقُ عَلَيْهِمْ » وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْخَةِ الْكِبْرِيَاءِ »

---

(١) حديث ان أحبكم الينا وأقربكم منا فى الآخرة أحاسنكم أخلاقا ـ الحديث : أحمد من حديث أبى ثعلبة الخشنى بلفظ الى ومنى وفيه انقطاع ومكحول لم يسمع من أبى ثعلبة وقد تقدم فى رياضة النفس أول الحديث

(٢) حديث يحشر المتكبرون يوم القيامة ذرا فى صور الرجال ـ الحديث : الترمذى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال حسن غريب

(٣) حديث أبى هريرة يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صور الذر ـ الحديث : البزار هكذا مختصرا دون قوله الجبارون واسناده حسن

(٤) حديث أبى موسى ان فى جهنم واديا يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار : أبو يعلى والطبرانى والحاكم وقال صحيح الاسناد قلت فيه أزهر بن سنان ضعفه ابن معين وابن حبان وأورد له فى الضعفاء هذا الحديث

(٥) حديث ان فى النار قصرا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم : البيهقى فى الشعب من حديث أنس وقال توابيت مكان قصرا وقال فيقفل مكان يطبق وفيه أبان بن أبى عياش وهو ضعيف

(٦) حديث اللهم انى أعوذ بك من نفخة الكبرياء : لم أره بهذا اللفظ وروى أبو داود وابن ماجه من حديث جبير ابن مطعم عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أثناء حديث أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه قال نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة ولأصحاب السنن من حديث أبى سعيد الخدرى نحوه تكلم فيه أبو داود وقال الترمذى هو أشهر حديث فى هذا الباب .

وقال [١] « مَنْ فَارَقَ رُوحُهُ جَسَدَهُ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلَاثٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ الْكِبْرُ وَالدَّيْنُ وَالْغُلُولُ »

الآثار . قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، لا يحقرن أحد أحدا من المسلمين ، فإن صغير المسلمين عند الله كبير . وقال وهب . لما خلق الله جنة عدن ، نظر إليها فقال . أنت حرام على كل متكبر . وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره فجاء يوما ومصعب ماد رجليه ، فلم يقبضها ، وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة ، فرأى أثر ذلك في وجهه ، فقال . عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين . وقال الحسن . العجب من ابن آدم يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ، ثم يعارض جبار السموات .

وقد قيل فى (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ [١]) هو سبيل الغائط والبول . وقد قال محمد بن الحسين بن على . ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك ، قل أو كثر . وسئل سلمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة ، فقال الكبر . وقال النعمان بن بشير على المنبر . إن للشيطان مصالى وفخوخا ، وإن من مصالى الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله ، والفخر بإعطاء الله ، والكبر على عباد الله ، واتباع الهوى فى غير ذات الله . نسأل الله تعالى العفو والعافية فى الدنيا والآخرة بمنه وكرمه

بيان

ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى رَجُلٍ يَجُرُّ إِزَارَهُ بَطَرًا » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَتِهِ إِذْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَخَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ

---

(١) حديث من فارق روحه جسده وهو برىء من ثلاثة دخل الجنة الكبر والدين والغلول : الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث ثوبان وذكر المصنف لهذا الحديث هنا موافق للمشهور فى الرواية انه الكبر بالموحدة والراء لكن ذكر ابن الجوزى فى جامع المسانيد عن الدارقطنى قال انما هو الكنز بالنون والزاى وكذلك أيضا ذكر ابن مردويه الحديث فى تفسير والذين يكنزون الذهب والفضة

(٢) حديث لا ينظر الله الى من جر إزاره بطرا : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث بينا رجل يتبختر فى برديه قد أعجبته نفسه ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

---

(١) الذاريات : ٢١

فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »وقال زيد بن أسلم : دخلت على ابن عمر ، فمر به عبد الله بن واقد وعليه ثوب جديد ، فسمعته يقول . أى بنى ارفع إزارك ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] يقول « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ خُيَلَاءَ »وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] بصق يوما على كفه ، ووضع أصبعه عليه وقال « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ابْنَ آدَمَ أَتُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ جَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي قُلْتَ أَتَصَدَّقُ وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيْطَاءَ وَخَدَمَتْهُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ سَلَّطَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » قال ابن الأعرابى . هى مشية فيها اختيال وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ وَاخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ »

الآثار : عن أبى بكر الهذلى قال : بينما نحن مع الحسن ، إذ مر علينا ابن الأهتم يريد المقصورة ، وعليه جباب خزّ قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه ، وانفرج عنها قباؤه ، وهو يمشى يتبختر . إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال : أف أف ، شامخ بأنفه ، ثانى عطفه ، مصعر خده ، ينظر فى عطفيه . أى حميق أنت ، تنظر فى عطفيك ، فى نعم غير مشكورة ولا مذكورة ، غير المأخوذ بأمر الله فيها ، ولا المؤدى حق الله منها ! والله أن يمشى أحد طبيعته يتخلج تخلج المجنون ، فى كل عضو من أعضائه لله نعمة ، وللشيطان به لفتة . فسمع ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه . فقال لا تعتذر إلىّ وتب إلى ربك . أما سمعت قول الله تعالى

---

(١) حديث ابن عمر لا ينظر الله الى من جر إزاره خيلاء : رواه مسلم مقتصرا على المرفوع دون ذكر مرور عبد الله بن واقد على ابن عمر وهو رواية لمسلم ان المار رجل من بنى ليث غير مسمى

(٢) حديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال يقول ابن آدم أتعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ـ الحديث : ابن ماجه والحاكم وصحح اسناده من حديث بشر بن جحاش

(٣) حديث اذا مشت أمتى المطيطاء ـ الحديث : الترمذى وابن حبان فى صحيحه من حديث ابن عمر ـ المطيطاء بضم الميم وفتح الطاءين المهملتين بينهما مثناة من تحت مصغرا ولم يستعمل مكبرا

(٤) حديث من تعظم فى نفسه واختال فى مشيه لقى الله وهو عليه غضبان : أحمد والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا[1]﴾

ومر بالحسن شاب عليه بزة له حسنة ، فدعاه فقال له : ابن آدم معجب بشبابه ، محب لشمائله ، كأن القبر قد وارى بدنك ، وكأنك قد لاقيت عملك . ويحك داو قلبك ، فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم . وروى أن عمر بن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف فنظر إليه طاوس وهو يختال فى مشيته ، فغمز جنبه بأصبعه ثم قال : ليست هذه مشية من فى بطنه خرء . فقال عمر كالمعتذر : ياعم لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها . ورأى محمد بن واسع ولده يختال ، فدعاه وقال : أتدرى من أنت ؟ أما أمك فاشتريها بمائتى درهم ، وأما أبوك فلا أكثر الله فى المسلمين مثله . ورأى ابن عمر رجلا يجر إزاره فقال . إن للشيطان إخوانا كررها مرتين أو ثلاثا . ويروى أن مطرف بن عبد الله ابن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر فى جبة خز ، فقال : ياعبد الله ، هذه مشية يبغضها الله ورسوله . فقال له المهلب : أما تعرفنى ؟ فقال بلى أعرفك ، أولك نطفة مذرة . وآخرك جيفة قذرة ، وأنت بين ذلك تحمل العذرة . فمضى المهلب وترك مشيته تلك . وقال مجاهد فى قوله تعالى ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى[2]﴾ أى يتبختر

وإذ قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال ، فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم

بيان

فضيلة التواضع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ » وقال صلى الله عليه وسلم[2] « مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَمَعَهُ مَلَكَانِ وَعَلَيْهِ حَكَمَةٌ يُمْسِكَانِهِ بِهَا فَإِنْ هُوَ رَفَعَ نَفْسَهُ جَبَذَاهَا ثُمَّ قَالَا اللَّهُمَّ ضَعْهُ وَإِنْ وَضَعَ

(١) حديث مازاد الله عبدا بعفو الاعزا ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(٢) حديث مامن أحد الاومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها ـ الحديث : العقيلى فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة والبيهقى أيضا من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف

(١) لقمان : ١٨ (٢) القيامة : ٣٣

نَفْسَهُ قَالَ اللَّهُمَّ ارْفَعْهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [١] « طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مَسْكَنَةٍ وَأَنْفَقَ مَالاً جَمَعَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَرَحِمَ أَهْلَ الذُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ » وعن أبى سلمة المدينى ، عن أبيه ، عن جده قال . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] عندنا بقباء ، وكان صائما . فأتيناه عند إفطاره بقدح من لبن ، وجعلنا فيه شيئا من عسل . فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل ، فقال « مَاهَذَا ؟ » قلنا يارسول الله جعلنا فيه شيئا من عسل . فوضعه وقال « أَمَا إِنِّي لاَ أُحَرِّمُهُ وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللهُ وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللهُ وَمَنِ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ اللهُ وَمَنْ بَذَّرَ أَفْقَرَهُ اللهُ وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللهِ أَحَبَّهُ اللهُ »

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم [٣] كان فى نفر من أصحابه فى بيته يأكلون ، فقام سائل على الباب ، وبه زمانة يتكره منها . فأذن له . فلما دخل أجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذه ، ثم قال له « اطْعَمْ » فكأن رجلا من قريش اشمأز منه وتكره فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها . وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « خَيَّرَنِي رَبِّي بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَنْ أَكُونَ عَبْداً رَسُولاً أَوْ مَلِكاً نَبِيًّا فَلَمْ أَدْرِ أَيُّهُمَا أَخْتَارُ وَكَانَ صَفِيِّي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ جِبْرِيلُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَيْهِ فَقَالَ تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ فَقُلْتُ عَبْداً رَسُولاً »

---

(١) حديث طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة ـ الحديث : البغوى وابن قانع والطبرانى من حديث ركب المصرى والبزار من حديث أنس وقد تقدم بعضه فى العلم وبعضه فى آفات اللسان

(٢) حديث أبى سلمة المدينى عن أبيه عن جده قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقباء وكان صائما ـ الحديث : وفيه من تواضع رفعه الله ـ الحديث : رواه البزار من رواية طلحة بن يحيى ابن طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جده طلحة فذكر نحوه دون قوله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله ولم يقل بقبا وقال الذهبى فى الميزان انه خبر منكر وقد تقدم ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة قالت أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فيه لبن وعسل ـ الحديث : وفيه أمانى لاأزعم أنه حرام ـ الحديث : وفيه من أكثر ذكر الموت أحبه الله وروى المرفوع منه أحمد وأبو يعلى من حديث أبى سعيد دون قوله ومن بذر أفقره الله وذكرا فيه قوله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله وتقدم فى ذم الدنيا

(٣) حديث السائل الذى كان به زمانة منكرة وأنه صلى الله عليه وسلم أجلسه على فخذه ثم قال اطعم ـ الحديث : لم أجد له أصلا والموجود حديث أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث جابر وقال الترمذى غريب

(٤) حديث خيرنى ربى بين أمرين عبدا رسولا وملكا نبيا ـ الحديث : أبو يعلى من حديث عائشة والطبرانى من حديث ابن عباس وكلا الحديثين ضعيف

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ، إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى ، ولم يتعاظم على خلقى ، وألزم قلبه خوفى ، وقطع نهاره بذكرى ، وكف نفسه عن الشهوات من أجلى

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « الْكَرَمُ التَّقْوَى وَالشَّرَفُ التَّوَاضُعُ وَالْيَقِينُ الْغِنَى »

وقال المسيح عليه السلام : طوبى للمتواضعين فى الدنيا ، هم أصحاب المنابر يوم القيامة . طوبى للمصلحين بين الناس فى الدنيا ، هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة . طوبى للمطهرة قلوبهم فى الدنيا ، هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة . وقال بعضهم . بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم [٢] قال « إِذَا هَدَى اللهُ عَبْداً لِلْإِسْلاَمِ وَحَسَّنَ صُورَتَهُ وَجَعَلَهُ فِى مَوْضِعٍ غَيْرِ شَائِنٍ لَهُ وَرَزَقَهُ مَعَ ذَلِكَ تَوَاضُعًا فَذَلِكَ مِنْ صَفْوَةِ اللهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « أَرْبَعٌ لاَ يُعْطِيهِمُ اللهُ إِلاَّ مَنْ أَحَبَّ : الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلُ الْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ وَالتَّوَاضُعُ وَالزُّهْدُ فِى الدُّنْيَا » . وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] « إِذَا تَوَاضَعَ الْعَبْدُ رَفَعَهُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « التَّوَاضُعُ لاَ يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلاَّ رِفْعَةً فَتَوَاضَعُوا يَرْحَمْكُمُ اللهُ » ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى : ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين مرسلا وأسند الحاكم أوله من رواية الحسن عن سمرة وقال صحيح الاسناد

(٢) حديث إذا هدى الله عبدا للاسلام وحسن صورته ـ الحديث : الطبرانى موقوفا على ابن مسعود نحوه وفيه المسعودى مختلف فيه

(٣) حديث أربع لايعطيهن الله إلا من يحب الصمت وهو أول العبادة والتوكل على الله والتواضع والزهد فى الدنيا : الطبرانى والحاكم من حديث أنس أربع لا يصبن إلا بعجب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله وقلة الشىء : قال الحاكم صحيح الاسناد قلت فيه العوام بن جويرية قال ابن حبان يروى الموضوعات ثم روى له هذا الحديث

(٤) حديث ابن عباس إذا تواضع العبد رفع الله رأسه إلى السماء السابعة : البيهقى فى الشعب نحوه وفيه زمعة ابن صالح ضعفه الجمهور

(٥) حديث إن التواضع لايزيد العبد إلا رفعة ـ الحديث : الأصفهانى فى الترغيب والترهيب من حديث أنس وفيه بشر بن الحسين وهو ضعيف جدا ورواه ابن عدى من حديث ابن عمر وفيه الحسن بن عبد الرحمن الاحتياطى وخارجة بن مصعب وكلاهما ضعيف

(١) كان يطعم ، فجاء رجل أسود به جدرى قد تقشر ، فجعل لايجلس إلى أحد إلاقام من جنبه . فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) «إِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي أَنْ يَحْمِلَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ فِي يَدِهِ يَكُونُ مِهْنَةً لِأَهْلِهِ يَدْفَعُ بِهِ الْكِبْرَ عَنْ نَفْسِهِ» وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٣) لأصحابه يوما « مَالِي لَا أَرَى عَلَيْكُمْ حَلَاوَةَ الْعِبَادَةِ ؟ » قالوا وما حلاوة العبادة ؟ قال « التَّوَاضُعُ » قال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْ أُمَّتِي فَتَوَاضَعُوا لَهُمْ وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَكَبِّرِينَ فَتَكَبَّرُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ مَذَلَّةٌ لَهُمْ وَصَغَارٌ »

الآثار : قال عمر رضي الله عنه : إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته . وقال انتعش رفعك الله . وإذا تكبر وعدا طوره رهصه الله في الأرض ، وقال اخسأ خسأك الله . فهو فى نفسه كبير ، وفى أعين الناس حقير ، حتى أنه لأحقر عندهم من الخنزير . وقال جرير ابن عبدالله . أنتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم ، قد استظل بنطع له ، وقد جاوزت الشمس النطع ، فسويته عليه . ثم إن الرجل استيقظ ، فإذا هو سلمان الفارسى . فذكرت له ماصنعت . فقال لى : ياجرير ، تواضع لله فى الدنيا ، فإنه من تواضع لله فى الدنيا رفعه الله يوم القيامة . ياجرير ، أتدرى ماظلمة النار يوم القيامة ؟ قلت لا قال إنه ظلم الناس بعضهم بعضا فى الدنيا . وقالت عائشة رضى الله عنها : إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات التواضع . وقال يوسف بن أسباط : يجزى قليل الورع من كثير العمل ، ويجزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد ، وقال الفضيل ، وقد سئل عن التواضع ما هو فقال : أن تخضع للحق وتنقاد له ، ولو سمعته من صبى قبلته ، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته . وقال ابن المبارك رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك فى نعمة الدنيا ، حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك

---

(١) حديث كان يطعم فجاءه رجل أسود به جدري فجعل لايجلس إلى أحد إلاقام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه : لم أجده هكذا والمعروف أكله مع مجذوم رواه أبوداود والترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث جابر كما تقدم

(٢) حديث إنه ليعجبنى أن يحمل الرجل الشىء فى يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه : غريب

(٣) حديث مالى لا أرى عليكم حلاوة العبادة قالوا وما حلاوة العبادة قال التواضع : غريب أيضا

(٤) حديث إذا رأيتم المتواضعين من أمتى فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فان ذلك لهم مذلة وصغار : غريب أيضا

عليه فضل . وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك فى الدنيا ، حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل . وقال قتادة : من أعطى مالا ، أو جمالا ، أو ثيابا ، أو علما ، ثم لم يتواضع فيه ، كان عليه وبالا يوم القيامة وقيل أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام ، إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك ، وقال كعب : ماأنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فشكرها لله ، وتواضع بها لله ، إلا أعطاه الله نفعها فى الدنيا ، ورفع بها درجة فى الآخرة . وماأنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فلم يشكرها ؛ ولم يتواضع بها لله ، إلا منعه الله نفعها فى الدنيا ، وفتح له طبقا من النار ، يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه . وقيل لعبد الملك بن مروان ، أى الرجل أفضل ؟ قال من تواضع عن قدرة ، وزهد عن رغبة ، وترك النصرة عن قوة . ودخل ابن السماك على هارون فقال يا أمير المؤمنين ، إن تواضعك فى شرفك أشرف لك من شرفك . فقال ما أحسن ما قلت فقال يا أمير المؤمنين ، إن امرأ آتاه الله جمالا فى خلقته ، وموضعا فى حسبه ، وبسط له فى ذات يده ، فعف فى جماله ، وواسى من ماله ، وتواضع فى حسبه ، كتب فى ديوان الله من خالص أولياء الله . فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده . وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح ، تصفح وجوه الأغنياء والأشراف ، حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول مسكين مع مساكين . وقال بعضهم . كما تكره أن يراك الأغنياء فى الثياب الدون فكذلك فاكره أن يراك الفقراء فى الثياب المرتفعة . وروى أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع ، فقال لهم الحسن . أتدرون ما التواضع ؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلما إلا رأيت له عليك فضلا . وقال مجاهد . إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام . شمخت الجبال وتطاولت ، وتواضع الجودى ، فرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه وقال أبو سليمان . إن الله عز وجل اطلع على قلوب الآدميين ؛ فلم يجد قلبا أشد تواضعا من قلب موسى عليه السلام ، فخصه من بينهم بالكلام .

وقال يونس بن عبيد ، وقد انصرف من عرفات . لم أشك فى الرحمة لولا أنى كنت معهم أنى أخشى أنهم حرموا بسببى . ويقال . أرفع ما يكون المؤمن عند الله ، أوضع ما يكون عند نفسه . وأوضع ما يكون عند الله ، أرفع ما يكون عند نفسه . وقال زياد النمرى : الزاهد بغير تواضع كالشجرة التى لا تثمر . وقال مالك بن دينار . لو أن مناديا ينادى بباب المسجد ليخرج شركم

وجلا ، والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب ، إلا رجلا بفضل قوة أوسعى . قال فلما بلغ لابن المبارك قوله قال · بهذا صار مالك مالكا . وقال الفضيل . من أحب الرياسة لم يفلح أبدا

وقال موسى بن القاسم : كانت عندنا زلزلة وريح حمراء ، فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلت ياأبا عبد الله ، أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا . فبكى ثم قال : ليتني لم أكن سبب هلاككم . قال فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال : إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل . وجاء رجل إلى الشبلي رحمه الله فقال له : ماأنت ؟ وكان هذا دأبه وعادته ، فقال · أنا النقطة التي تحت الباء . فقال له الشبلي . أباد الله شاهدك أوتجعل لنفسك موضعا . وقال الشبلي في بعض كلامه : ذلي عطل ذل اليهود . ويقال من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب . وعن أبي الفتح بن شخرف قال : رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام ، فقلت له ياأبا الحسن عظني . فقال لي :ماأحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء ، رغبة منهم في ثواب الله . وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ، ثقة منهم بالله عز وجل . وقال أبو سليمان : لايتواضع العبد حتى يعرف نفسه

وقال أبو يزيد : مادام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر . فقيل له فتى يكون متواضعا ؟ قال إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا ، و تواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ، ومعرفته بنفسه . وقال أبو سليمان . لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه · وقال عروة بن الورد : التواضع أحد مصايد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع. وقال يحيى بن خالد البرمكي . الشريف إذا تنسك تواضع ،والسفيه إذا تنسك تعاظم. وقال يحيى بن معاذ .التكبر على ذوي التكبر عليك بماله تواضع

ويقال التواضع في الخلق كلهم حسن ، وفي الأغنياء أحسن . .والتكبر في الخلق كلهم قبيح ، وفي الفقراء أقبح . ويقال لاعز إلا من تذلل لله عز وجل ، ولارفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل ، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل ، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل . وقال أبو على الجوزجاني . النفس معجونة بالكبر ، والحرص ، والحسد ، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع ، والنصيحة ، والقناعة . وإذا أراد الله تعالى به خيرا لطف به في ذلك : فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع ،

مع نصرة الله تعالى . وإذا هاجت نار الحسد فى نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل وإذا هاجت فى نفسه نار الحرص أدركتها القناعة ، مع عون الله عز وجل

وعن الجنيد رحمه الله، أنه كان يقول يوم الجمعة فى مجلسه، لولا أنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم [1] أنه قال « يَكُونُ فِى آخِرِ الزَّمَانِ زَعِيمُ الْقَوْمِ أَرْذَلَهُمْ » ما تكلمت عليكم وقال الجنيد أيضا : التواضع عند أهل التوحيد تكبر . ولعل مراده أن التواضع يثبت نفسه ثم يضعها ، والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها أو يرفعها

وعن عمرو بن شيبة قال : كنت بمكة بين الصفا والمروة ، فرأيت رجلا راكبا بغلة وبين يديه غلمان ، وإذاهم يعنفون الناس . قال ثم عدت بعد حين، فدخلت بغداد، فكنت على الجسر ، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر ، قال فجعلت أنظر إليه وأتأمله ، فقال لى مالك تنظر إلىّ ؟ فقلت له شبهتك برجل رأيته بمكة ، ووصفت له الصفة. فقال له أنا ذلك الرجل . فقلت ما فعل الله بك ؟ فقال إنى ترفعت فى موضع يتواضع فيه الناس فوضعنى الله حيث يترفع الناس . وقال المغيرة : كنا نهاب إبراهيم النخعى هيبة الأمير وكان يقول إن زمانا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء ،وكان عطاء السلمى إذا سمع صوت الرعد قام وقعد ، وأخذه بطنه كأنه امرأة ماخض ، وقال هذا من أجلى يصيبكم ، لومات عطاء لاستراح الناس . وكان بشر الحافى يقول : سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم

ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال: أعطاك الله ما ترجوه . فقال إن الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة ؟ وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسي رضي الله عنه يوما ، فقال سلمان : لكننى خلقت من نطفة قذرة ، ثم أعود جيفة منتنة ، ثم آتى الميزان فإن ثقل فأنا كريم ،

---

(١) حديث يكون فى آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم :الترمذى من حديث أبى هريرة اذا اتخذ الفىء دولا الحديث : وفيه كان زعيم القوم أرذلهم ـ الحديث : وقال غريب وله من حديث على بن أبى طالب اذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء فذكر منها وكان زعيم القوم أرذلهم ولأبى نعيم فى الحلية من حديث حذيفة من اقتراب الساعة اثنان وسبعون خصلة فذكرها منها وفيهما فرج بن فضالة ضعيف

وإن خفف فأنا لئيم . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : وجدنا الكرم فى التقوى ، والغنى فى اليقين ، والشرف فى التواضع . نسأل الله الكريم حسن التوفيق

بيان

حقيقة الكبر وآفته

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر . فالباطن هو خلق فى النفس ، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح . واسم الكبر بالخلق الباطن أحق . وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق . وخلق الكبر موجب للأعمال . ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر وإذا لم يظهر يقال فى نفسه كبر . فالأصل هو الخلق الذى فى النفس ، وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه . فإن الكبر يستدعى متكبرا عليه، ومتكبرا به وبه ينفصل الكبر عن العجب كما سيأتى . فإن العجب لا يستدعى غير المعجب . بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجبا ، ولا يتصور أن يكون متكبرا ، إلا أن يكون مع غيره ، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير فى صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبرا . ولا يكفى أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا ، فإنه قد يستعظم نفسه ، ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه ، أو مثل نفسه ، فلا يتكبر عليه . ولا يكفى أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر . بل ينبغى أن يرى لنفسه مرتبة ، ولغيره مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره . فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر ، لا أن هذه الرؤية تنفى الكبر . بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه ، فيحصل فى قلبه اعتداد ، وهزة ، وفرح ، وركون إلى ما اعتقده ، وعز فى نفسه بسبب ذلك . فتلك العزة ، والهزة ، والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم [1] « أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْخَةِ الْكِبْرِيَاءِ » وكذلك قال عمر . أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا ، للذى استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح

(١) حديث أعوذ بك من نفخة الكبرياء : تقدم فيه

فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين ، وهو الاستعظام ، كبر وانتفخ وتعزز .
فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة فى النفس من هذه الاعتقادات ، وتسمى أيضا عزة وتعظما
ولذلك قال ابن عباس فى قوله تعالى (إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ [1])
قال عظمة لم يبلغوها . ففسر الكبر بتلك العظمة . ثم هذه العزة تقتضى أعمالا فى الظاهر
والباطن هى ثمرات ، ويسمى ذلك تكبرا . فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره
حقر من دونه ، وازدراه ، وأقصاه عن نفسه ، وأبعده ، وترفع عن مجالسته ومؤاكلته
ورأى أن حقه أن يقوم ماثلا بين يديه إن اشتد كبره . فإن كان أشد من ذلك استنكف
عن استخدامه ، ولم يجعله أهلا للقيام بين يديه ، ولا بخدمة عتبته . فإن كان دون ذلك فيأنف
من مساواته ، وتقدم عليه فى مضايق الطرق ، وارتفع عليه فى المحافل ، وانتظر أن يبدأه
بالسلام ، واستبعد تقصيره فى قضاء حوائجه وتعجب منه . وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد
عليه ، وإن وعظ استنكف من القبول . وإن وعظ عنف فى النصح ، وإن رد عليه شيء
من قوله غضب ، وإن علّم لم يرفق بالمتعلمين ، واستذلهم ، وانتهرهم ، وامتن عليهم ، واستخدمهم
وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير ، استجهالا لهم واستحقارا . والأعمال الصادرة
عن خلق الكبر كثيرة ، وهى أكثر من أن تحصى ، فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة

فهذا هو الكبر ، وآفته عظيمة ، وغائلته هائلة ، وفيه يهلك الخواصّ من الخلق ، وقلما
ينفك عنه العباد ، والزهاد ، والعلماء ، فضلا عن عوام الخلق . وكيف لا تعظم آفته وقد
قال صلى الله عليه وسلم [1] « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » وإنما
صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها ، وتلك الأخلاق
هى أبواب الجنة والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها ، لأنه لا يقدر على أن يحب
للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز . ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين
وفيه العز . ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز . ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز
ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز . ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز . ولا يقدر على

---

(١) حديث لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر : تقدم فيه

ترك الحسد وفيه العز . ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز . ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز . ولا يسلم من الإزراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز . ولا معنى للتطويل ، فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ، ليحفظ به عزه . وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه، خوفا من أن يفوته عزه . فمن هذا لم يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة منه

والأخلاق الذميمة متلازمة ، والبعض منها داع إلى البعض لا محالة . وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم ، وقبول الحق ، والانقياد له . وفيه وردت الآيات التى فيها ذم الكبر والمتكبرين. قال الله تعالى (وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ [1]) إلى قوله (وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ [2]) ثم قال (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ [3]) ثم أخبر أن أشد أهل النار عذابا أشدهم عتيا على الله تعالى فقال (ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا [4]) وقال تعالى (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ [5]) وقال عز وجل (يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ [6]) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [7]) وقال تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [8]) قيل فى التفسير سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم . وفى بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت . وقال ابن جريج سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها . ولذلك قال المسيح عليه السلام . إن الزرع ينبت فى السهل ولا ينبت على الصفا . كذلك الحكمة تعمل فى قلب المتواضع ولا تعمل فى قلب المتكبر . ألا ترون أن من شمخ برأسه إلى السقف شجه ، ومن طأطأ أظله وأكنه ؟ فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جحود الحق فى حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال [1] « مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَغَمِصَ النَّاسَ »

---

(١) حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس : مسلم من حديث ابن مسعود فى أثناء حديث وقال بطر الحق وغمط الناس ورواه الترمذى فقال من بطر الحق وغمص الناس وقال حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عقبة بن عامر بلفظ المصنف ورواه البيهقى فى الشعب من حديث أبى ريحانة هكذا

(١ ، ٢) الانعام : ٩٣ (٣) الزمر : ٧٢ (٤) مريم : ٦٩ (٥) النحل ٢٢ (٦) سبأ : ٣١ (٧) غافر : ٦٠ (٨) الاعراف : ١٤٦

بيان

المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه

اعلم أن المتكبر عليه هو الله تعالى ، أو رسله ، أو سائر خلقه . وقد خلق الإنسان ظلوما جهولا . فتارة يتكبر على الخلق ، وتارة يتكبر على الخالق . فإذاً التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام .

الأول : التكبر على الله . وذلك هو أفحش أنواع الكبر ، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان . مثل ما كان من نمروذ ، فإنه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء . وكما يحكى عن جماعة من الجهلة ، بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية ، مثل فرعون وغيره ، فإنه لتكبره قال (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى [1]) إذ استنكف أن يكون عبدا لله . ولذلك قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [2]) وقال تعالى (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ [3]) الآية وقال تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا [4])

القسم الثاني : التكبر على الرسل ، من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس . وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار ، فيبقى فى ظلمة الجهل بكبره ، فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه محق فيه . وتارة يمتنع مع المعرفة ، ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق ، والتواضع للرسل ، كما حكى الله عن قولهم (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا [5]) وقولهم (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا [6]) (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ [7]) (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا [8]) (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ [9]) وقال فرعون فيما أخبر الله عنه (أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ [10]) وقال الله تعالى (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [11]) فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعا . قال وهب . قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك . قال حتى أشاور هامان فشاور هامان ، فقال هامان

---

(1) النازعات : ٢٤ (2) غافر : ٦ (3) النساء ١٧٢ (4) الفرقان : ٦٠ (5) المؤمنون ، ٤٧ (6) ابراهيم : ١٠ (7) المؤمنون : ٣٤ (8) الفرقان : ٢١ (9) الانعام : ٨ (10) الزخرف : ٥٣ (11) القصص : ٣٩

بينما أنت رب تعبد إذ صرت عبدا تعبد فاستنكف عن عبودية الله، وعن اتباع موسى عليه السلام

وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم (لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [١]) قال قتادة · عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبى مسعود الثقفي طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا . فقال تعالى (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ [٢]) وقال الله تعالى (لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا [٤]) أى استحقارا لهم واستبعادا لتقدمهم. وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم . [١] كيف نجلس إليك وعندك هولاء ! أشاروا إلى فقراء المسلمين ، فازدروهم بأعينهم لفقرهم ، وتكبروا عن مجالستهم ، فأنزل الله تعالى (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ [٥]) إلى قوله (مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ [٦]) وقال تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [٧]) ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم ، إذ لم يروا الذين ازدروهم ، فقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ؟ قيل يعنون عمارا وبلالا ، وصهيبا ، والمقداد رضي الله عنهم . ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة فجهل كونه صلى الله عليه وسلم محقا . ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف . قال الله تعالى مخبرا عنهم (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ [٨]) وقال (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا [٨]) وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل ، وإن كان دونه ، ولكنه تكبر على قبول أمر الله ، والتواضع لرسوله

القسم الثالث : التكبر على العباد · وذلك بأن يستعظم نفسه ، ويستحقر غيره ، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم ، وتدعوه إلى الترفع عليهم ، فيزدريهم ويستصغرهم ، ويأنف من من مساواتهم . وهذا وإن كان دون الأول والثاني ، فهو أيضا عظيم من وجهين.

---

(١) حديث قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف نجلس اليك وعندك هؤلاء ـ الحديث : في نزول قوله تعالى ـ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ـ مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص الا انه قال فقال المشركون وقال ابن ماجه قالت قريش

---

(٢) الزخرف : ٣١ (٣) الزخرف : ٣٢ (٤) الانعام : ٥٣ (٥ ، ٦) الانعام : ٥٢ (٧) الكهف : ٢٨
(٨) البقرة : ٨٩ (٩) النمل : ١٤

أحدهما : الكبر ، والعز ، والعظمة ، والعلاء ، لا يليق إلا بالملك القادر . فأما العبد المملوك الضعيف ، العاجز ، الذى لا يقدر على شىء ، فمن أين يليق بحاله الكبر ! فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى فى صفة لا تليق إلا بجلاله . ومثاله أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك ، فيضعها على رأسه ، ويجلس على سريره . فما أعظم استحقاقه للمقت ! وما أعظم تهدفه للخزى والنكال وما أشد استجراءه على مولاه ! وما أقبح ما تعاطاه . وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى فيهما قصمته . أى أنه خاص صفتى ، ولا يليق إلا بى . والمنازع فيه منازع فى صفة من صفاتى . وإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه ، إذ الذى يسترذل خواص غلمان الملك ، ويستخدمهم ويترفع عليهم ، ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم ، فهو منازع له فى بعض أمره ، وإن لم تبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره ، والاستبداد بملكه . فالخلق كلهم عباد الله ، وله العظمة والكبرياء عليهم . فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله فى حقه . نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمروذ وفرعون ، ماهو الفرق بين منازعة الملك فى استصغار بعض عبيده واستخدامهم ، وبين منازعته فى أصل الملك

الوجه الثانى : الذى تعظم به رذيلة الكبر ، إنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى فى أوامره ، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله ، وتشمر لجحده . ولذلك ترى المناظرين فى مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ، ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين ، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله ، وتشمر لجحده ، واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس . وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى فقال (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ [١]) فكل من يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به ، فقد شاركهم فى هذا الخلق

وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ ، كما قال الله تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ [٢]) وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قرأها فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف فقتل ، فقام آخر فقال تقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس

(١) فصلت : ٢٦ (٢) البقرة : ٢٠٦

فقتل المتكبر الذى خالفه ، والذى أمره كبرا . وقال ابن مسعود: كفى بالرجل إثما إذا قيل له اتق الله قال عليك نفسك. وقال صلى الله عليه وسلم [١] لرجل « كُلْ بِيَمِينِكَ » قال لا أستطيع . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لَا اسْتَطَعْتَ » فامنعه إلا كبره. قال فما رفعها بعد ذلك أى اعتلت يده.

فإذاً تكبره على الخلق عظيم ، لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله. وإنما ضرب إبليس مثلا لهذا ، وما حكاه من أحواله إلا ليعتبر به ، فإنه قال(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ [١])وهذا الكبر بالنسب ،لأنه قال(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [٢]) فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذى أمره الله تعالى به ؛ وكان مبدؤه الكبر على آدم ، والحسد له . فجره ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد . فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة، ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين، إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال: يارسول الله، [٢] إنى امرؤ قد حبب إلىّ من الجمال ما ترى، أفمن الكبر هو ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « لَا وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطِرَ الْحَقَّ وَغَمِصَ النَّاسَ » وفى حديث آخر [٣] « مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ » وقوله وغمص الناس ، أى ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله ، أو خير منه ، وهذه الآفة الأولى . وسفه الحق هو رَدُّهُ ، وهى الآفة الثانية .

فكل من رأى أنه خير من أخيه ، واحتقر أخاه وازدراه ، ونظر إليه بعين الاستصغار، أورد الحق وهو يعرفه ، فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ، ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله ، فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله



بيان ما به التكبر

اعلم أنه لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال

---

(١) حديث قال لرجل كل بيمينك قال لا أستطيع فقال لا استطعت ـ الحديث : مسلم من حديث سلمة بن الأكوع

(٢) حديث قول ثابت بن قيس بن شماس انى امرؤ قد حبب الى من الجمال ماترى ـ الحديث : وفيه الكبر من بطر الحق وغمص الناس مسلم والترمذى وقد تقدم قبله بحديثين

(٣) حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس :تقدم معه

---

(٢٠١) ص:٧٦

وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوى . فالديني هو العلم والعمل . والدنيوى هو النسب، والجمال ، والقوة ، والمال ، وكثرة الأنصار . فهذه سبعة أسباب

الأول : العلم . وماأسرع الكبر إلى العلماء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « آفَةُ الْعِلْمِ الْخُيَلَاءُ » فلا يلبث العالم أن يتعزز بعزة العلم، ويستشعر فى نفسه جمال العلم وكماله، ويستعظم نفسه ، ويستحقر الناس ، وينظر إليهم نظره إلى البهائم ، ويستجهلهم ، ويتوقع أن يبدءوه بالسلام . فإن بدأ واحدامنهم بالسلام ، أورد عليه ببشر ، أوقام له ، أوأجاب له دعوة ، رأى ذلك صنيعة عنده ، ويداعليه يلزمه شكرها واعتقد أنه أكرمهم ، وفعل بهم مالا يستحقون من مثله، وأنه ينبغي أن يرقوا له ويخدموه ، شكراله على صنيعه . بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم، ويزورونه فلا يزورهم، ويعودونه فلا يعودهم، ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره فى حوائجه، فإن قصر فيه استنكره ، كأنهم عبيده أو أجراؤه، وكأن تعليمه العلم صنيعة منه إليهم، ومعروف لديهم ، واستحقاق حق عليهم . هذا فيما يتعلق بالدنيا . أما فى أمر الآخرة ، فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم ، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم. وهذا بأن يسمى جاهلا أولى من أن يسمى عالما. بل العلم الحقيقي هو الذى يعرف الإنسان به نفسه وربه ، وخطر الخاتمة ، وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه ، كما سيأتى فى طريق معالجة الكبر بالعلم . وهذا العلم يزيد خوفا ، وتواضعا ، وتخشعا ، ويقتضى أن يرى كل الناس خيرا منه ، لعظم حجة الله عليه بالعلم ، وتقصيره فى القيام بشكر نعمة العلم، ولهذا قال أبو الدرداء: من ازداد علما ازداد وجعا. وهو كما قال

فإن قلت فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا وأمنا ، فاعلم أن لذلك سببين :

أحدهما : أن يكون اشتغاله بما يسمى علما ، وليس علما حقيقيا. وإنما العلم الحقيقي مايعرف به العبد ربه ونفسه ، وخطر أمره فى لقاء الله والحجاب منه . وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر ، والأمن . قال الله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ [1]) فأما وراء ذلك

---

(١) حديث آفة العلم الخيلاء :قلت هكذا ذكره المصنف والمعروف آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء هكذا رواه القضاعى فى مسند الشهاب من حديث على بسند ضعيف. وروى عنه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس آفة الجمال الخيلاء وفيه الحسن بن عبد الحميد الكوفى لايدري من هو حدث عن أبيه بحديث موضوع قاله صاحب الميزان

---

(١) فاطر : ٢٨

كعلم الطب، والحساب، واللغة، والشعر، والنحو، وفصل الخصومات، وطرق المجادلات فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها، امتلأ بها كبرا ونفاقا. وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما. بل العلم هو معرفة العبودية، والربوبية، وطريق العبادة. وهذه تورث التواضع غالبا

السبب الثاني: أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة، ردىء النفس، سيء الأخلاق. فإنه لم يشتغل أولا بتهذيب نفسه، وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات، ولم يرض نفسه في عبادة ربه، فبقي خبيث الجوهر. فإذا خاض في العلم أي علم كان، صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا. فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره. وقد ضرب وهب لهذا مثلا فقال. العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا، فتشربه الأشجار بعروقها، فتحوله على قدر طعومها. فيزداد المر مرارة، والحلو حلاوة فكذلك العلم يحفظه الرجال، فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبرا، والمتواضع تواضعا. وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل، فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به، فازداد كبرا. وإذا كان الرجل خائفا مع جهله، فازداد علما، علم أن الحجة قد تأكدت عليه، فيزداد خوفا وإشفاقا، وذلا وتواضعا.

فالعلم من أعظم ما يتكبر به. ولذلك قال تعالى لنبيه عليه السلام (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[٢]) وقال عز وجل (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ[٣]) ووصف أولياءه فقال (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ[١]) وكذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه العباس رضي الله عنه[١] « يَكُونُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْءَانَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَقُولُونَ قَدْ قَرَأْنَا الْقُرْءَانَ فَمَنْ أَقْرَأُ مِنَّا وَمَنْ أَعْلَمُ مِنَّا » ثم التفت إلى أصحابه وقال « أُولَئِكَ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْأُمَّةُ أُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ». ولذلك قال عمر رضي الله عنه. لا تكونوا جبابرة العلماء. فلا يفي علمكم بجهلكم ولذلك استأذن تميم الداري عمر رضي الله عنه في القصص، فأبى أن يأذن له، وقال له: إنه الذبح. واستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم، فقال. إني أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا. وصلى حذيفة بقوم، فلما سلم من صلاته قال. لتلتمسن إماما غيري، أو لتصلن وحدانا، فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني. فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم

---

(١) حديث العباس يكون قوم يقرءون القرءان لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرءان فمن أقرأ منا ـ الحديث: ابن المبارك في الزهد والرقائق

(١) الشعراء: ٢١٥ (٢) آل عمران: ١٥٩ (٣)

فكيف يسلم الضعفاء من متأخرى هذه الأمة . فما أعز على بسيط الأرض عالما يستحق أن يقال له عالم، ثم إنه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه، فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة، فضلا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله . لو عرفنا ذلك ولو فى أقصى الصين لسعينا إليه، رجاء أن تشملنا بركته، وتسرى إلينا سيرته وسجيته. وهيهات، فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم، فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول، قد انقرضوا فى القرن الأول ومن يليهم. بل يعز فى زماننا عالم يختلج فى نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة، فذلك أيضا إما معدوم وإما عزيز. ولولا بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله[١] «سَيَأْتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ مَنْ تَمَسَّكَ فِيهِ بِعُشْرِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ نَجَا» لكان جديرا بنا أن نقتحم والعياذ بالله تعالى. ورطة اليأس والقنوط، مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا. ومن لنا أيضا بالتمسك بعشر ما كانوا عليه؟ وليتنا تمسكنا بعشر عشره، فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله ويستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله

الثانى: العمل والعبادة. وليس يخلو عن رذيلة العز، والكبر، واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد. ويترشح الكبر منهم فى الدين والدنيا. أما فى الدنيا، فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم، وتوقيرهم، والتوسع لهم فى المجالس، وذكرهم بالورع والتقوى، وتقديمهم على سائر الناس فى الحظوظ، إلى جميع ما ذكرناه فى حق العلماء. وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق . وأما فى الدين، فهو أن يرى الناس هالكين، ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقيقا مهما رأى ذلك. قال صلى الله عليه وسلم[٢] «إِذَا سَمِعْتُمُ الرَّجُلَ يَقُولُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ» وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله، مغتر بالله، آمن من مكره، غير خائف من سطوته. وكيف لا يخاف ويكفيه شرا احتقاره لغيره. قال صلى الله عليه وسلم[٣] «كَفَى بِالْمَرْءِ شَرًّا أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ» وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله، ويعظمه لعبادته ويستعظمه، ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه. فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه، وهو يتمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم، كأنه مترفع عن مجالستهم فما أجدرهم إذا أحبوه

---

(١) حديث سيأتى على الناس زمان من تمسك بعشر ما أنتم عليه نجا: أحمد من رواية رجل عن أبى ذر
(٢) حديث إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم: مسلم من حديث أبى هريرة
(٣) حديث كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم: مسلم من حديث أبى هريرة بلفظ احرؤ من الشر

لصلاحه ،أن ينقلهم الله إلى درجته فى العمل،وما أجدره إذا ازدراهم بعينه ،أن ينقله الله إلى حد الإهمال ، كما روي أن رجلا فى بنى اسرائيل كان يقال له خليع بنى اسرائيل،لكثرة فساده مر" برجل آخر يقال له عابد بنى اسرائيل . وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به ، فقال الخليع فى نفسه أنا خليع بنى اسرائيل،وهذا عابد بنى اسرائيل. فلو جلست إليه لعل الله يرحمنى. فجلس إليه. فقال العابد . أنا عابد بنى اسرائيل ،وهذا خليع بنى اسرائيل ، فكيف يجلس إلىّ ! فأنف منه، وقال له قم عنى فأوحى الله إلى نبى ذلك الزمان ،مرهما فليستأنفا العمل ، فقد غفرت للخليع ، وأحبطت عمل العابد ،وفى رواية أخرى،فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع . وهذا يعرفك أن الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم ،فالجاهل العاصى إذا تواضع هيبة لله ،وذل خوفا منه، فقد أطاع الله بقلبه ،فهو أطوع لله من العالم المتكبر ،والعابد المعجب . وكذلك روى أن رجلا فى بنى اسرائيل،أتى عابدا من بنى اسرائيل،[1] فوطىء على رقبته وهو ساجد. فقال ارفع فوالله لا يغفر الله لك فأوحى الله إليه أيها المتألى علىّ ،بل أنت لا يغفر الله لك. وكذلك قال الحسن. وحتى أن صاحب الصوف أشد كبرا من صاحب المطرز الخز.أى أن صاحب الخز يذل لصاحب الصوف ،ويرى الفضل له ،وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه . وهذه الآفة أيضا قلما ينفك عنها كثير من العباد وهو أنه لو استخف به مستخف،أو آذاه مؤذ ،استبعد أن يغفر الله له ، ولا يشك فى أنه صار ممقوتا عند الله . ولو آذى مسلما آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار . وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل، وجمع بين الكبر ،والعجب، والاغترار بالله . وقد ينتهى الحمق والغباوة ببعضهم إلى أن يتحدى ويقول : سترون ما يجرى عليه . وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله، والانتقام له منه . مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله ، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم ،فمنهم من قتلهم ،ومنهم من ضربهم ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم فى الدنيا، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه فى الدنيا ولا فى الآخرة . ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه ، وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به ولعله فى مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين

(١) حديث الرجل من بنى اسرائيل الذى وطىء على رقبة عابد من بنى اسرائيل وهو ساجد فقال ارفع فوالله لا يغفر الله لك ـ الحديث : أبو داود والحاكم من حديث أبى هريرة فى قصة العابد الذى قال للعاصى والله لا يغفر الله لك أبدا وهو بغير هذه السياقة وإسناده حسن

وأما الأكياس من العباد ، فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كان تهب ريح أو تقع صاعقة : ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببي ، ولو مات عطاء لتخلصوا . وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات : كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم . فانظر إلى الفرق بين الرجلين ، هذا يتقي الله ظاهرا وباطنا ، وهو وجل على نفسه ، مزدر لعمله وسعيه ، وذاك ربما يضمر من الرياء ، والكبر ، والحسد ، والغل ، ماهو ضحكة للشيطان به ، ثم إنه يمتن على الله بعمله ومن اعتقد جزما أنه فوق أحد من عباد الله ، فقد أحبط بجهله جميع عمله . فإن الجهل أفحش المعاصي وأعظم شيء يبعد العبد عن الله ، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض ، وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . ولذلك روى أن رجلا ذكر بخير للنبي صلى الله عليه وسلم [١] فأقبل ذات يوم ، فقالوا يارسول الله هذا الذي ذكرناه لك . فقال « إِنِّي أَرَى فِي وَجْهِهِ سَفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ » فسلم ووقف على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « أَسْأَلُكَ بِاللهِ حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ أَنْ لَيْسَ فِي الْقَوْمِ أَفْضَلُ مِنْكَ ؟ » قال اللهم نعم . فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور النبوة ما استكن في قلبه سفعة في وجهه ، وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله . لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات

الدرجة الأولى : أن يكون الكبر مستقرا في قلبه ، يرى نفسه خيرا من غيره ، إلا أنه يجتهد ويتواضع ، ويفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه . وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية

الثانية : أن يظهر ذلك على أفعاله ، بالترفع في المجالس ، والتقدم على الأقران ، وإظهار الإنكار على من يقصر في حقه . وأدنى ذلك في العالم أن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم وفي العابد أن يعبس وجهه ؛ ويقطب جبينه ، كأنه متنزه عن الناس ، مستقذر لهم ، أو غضبان عليهم . وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ، ولا في الوجه حتى يعبس ، ولا في الخد حتى يصعر ، ولا في الرقبة حتى تطأطأ ، ولا في الذيل حتى يضم ، إنما الورع في القلوب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « التَّقْوَى هَهُنَا » وأشار إلى صدره . فقد كان رسول الله

---

(١) حديث ان رجلا ذكر بخير للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأقبل ذات يوم فقالوا يارسول الله هذا الذي ذكرناه لك . فقال اني أرى في وجهه سفعة من الشيطان ـ الحديث : أحمد والبزار والدارقطني من حديث أنس

(٢) حديث التقوى ههنا وأشار إلى صدره : مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

صلى الله عليه وسلم[1] أكرم الخلق وأتقاهم، وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبسما وانبساطا ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعجبنى من القراء كل طليق مضحاك . فأما الذى تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس، يمن عليك بعلمه، فلا أكثر الله فى المسلمين مثله. ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[1])

وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم ، فأحوالهم أخف حالا ممن هو فى الرتبة الثالثة ، وهو الذى يظهر الكبر على لسانه ، حتى يدعوه إلى الدعوى ، والمفاخرة ، والمباهاة وتزكية النفس ، وحكايات الأحوال والمقامات ، والتشمر لغلبة الغير فى العلم والعمل

أما العابد فإنه يقول فى معرض التفاخر لغيره من العباد : من هو ؟ وما عمله ؟ ومن أين زهده ؟ فيطول اللسان فيهم بالتنقص ، ثم يثنى على نفسه ويقول ، إنى لم أفطر منذ كذا وكذا ولا أنام الليل ، وأختم القرآن فى كل يوم ، وفلان ينام سحرا ، ولا يكثر القراءة. وما يجرى مجراه . وقد يزكى نفسه ضمنا فيقول . قصدنى فلان بسوء فهلك ولده ، وأخذ ماله، أو مرض أو ما يجرى مجراه ، يدعى الكرامة لنفسه . وأما مباهاته ، فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل ، قام وصلى أكثر مما كان يصلى . وإن كانوا يصبرون على الجوع ، فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم ، ويظهر لهم قوته وعجزهم . وكذلك يشتد فى العبادة خوفا من أن يقال غيره أعبد منه ، أو أقوى منه فى دين الله . وأما العالم فإنه يتفاخر ويقول . أنا متفنن فى العلوم ، ومطلع على الحقائق ، ورأيت من الشيوخ فلانا وفلانا . ومن أنت ؟ وما فضلك ومن لقيت ؟ وما الذى سمعت من الحديث ؟ كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه . وأما مباهاته فهو أنه يجتهد فى المناظرة أن يغلب ولا يُغلب . ويسهر طول الليل والنهار فى تحصيل علوم يتجمل بها فى المحافل ، كالمناظرة ، والجدل وتحسين العبارة . وتسجيع الألفاظ. وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران ، ويتعظم عليهم ، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها . فيظهر فضله ونقصان أقرانه ، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم

(١) حديث كان أكرم الخلق وأتقاهم ـ الحديث : تقدم فى كتاب أخلاق النبوة

ليرد عليه ، ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه

فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل . وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه ؟ فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه ، وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ » كيف يستعظم نفسه ، ويتكبر على غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنه من أهل النار . وإنما العظيم من خلا عن هذا . ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر . والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له إن لك عندنا قدرا مالم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لها قدرا فلا قدر لك عندنا . ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب ، ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا . فهذا هو التكبر بالعلم والعمل

الثالث ، التكبر بالحسب والنسب . فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب ، وإن كان أرفع منه عملا وعلما وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ، ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم . وثمرته على اللسان التفاخر به ، فيقول لغيره يا نبطي ، ويا هندي ، ويا أرمني ، من أنت ؟ ومن أبوك فأنا فلان بن فلان ، وأين لمثلك أن يكلمني أو ينظر إلي ؟ ومع مثلي تتكلم ! وما يجري مجراه وذلك عرق دفين في النفس ، لا ينفك عنه نسيب ، وإن كان صالحا وعاقلا ، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال . فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته ، وترشح منه ، كما روي عن أبي ذر أنه قال : قاولت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم [٢] فقلت له يا ابن السوداء . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « يَا أَبَا ذَرٍّ طَفَّ الصَّاعُ طَفَّ الصَّاعُ لَيْسَ لِابْنِ الْبَيْضَاءِ عَلَى ابْنِ السَّوْدَاءِ فَضْلٌ » فقال أبو ذر رحمه الله : فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدي ، فانظر كيف نبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى لنفسه فضلا بكونه ابن بيضاء ، وأن ذلك خطأ وجهل . وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبر عليه ، إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذل . ومن ذلك ما روي أن رجلين تفاخرا

---

(١) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر : تقدم

(٢) حديث أبي ذر قاولت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء ــ الحديث : ابن المبارك في البر والصلة مع اختلاف ولأحمد من حديثه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له انظر فانك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى

عند النبي صلى الله عليه وسلم ،[١] فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان ، فمن أنت لا أم لك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « افْتَخَرَ رَجُلَانِ عِنْدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ أَحَدُهُمَا أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قُلْ لِلَّذِي افْتَخَرَ بَلِ التِّسْعَةُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] « لَيَدَعَنَّ قَوْمٌ الْفَخْرَ بِآبَائِهِمْ وَقَدْ صَارُوا فَحْمًا فِي جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدُوفُ بِآنَافِهَا الْقَذَرَ »

الرابع : التفاخر بالجمال ، وذلك أكثر ما يجرى بين النساء ؛ ويدعو ذلك إلى التنقص ، والثلب ، والغيبة ، وذكر عيوب الناس . ومن ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم ،[٣] فقلت بيدى هكذا ، أى إنها قصيرة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « قَدِ اغْتَبْتِهَا » وهذا منشؤه خفاء الكبر ، لأنها لو كانت أيضا قصيرة لما ذكرتها بالقصر ، فكأنها أعجبت بقامتها ، واستقصرت المرأة فى جنب نفسها ، فقالت ما قالت

الخامس : الكبر بالمال . وذلك يجرى بين الملوك فى خزائنهم ، وبين التجار فى بضائعهم ، وبين الدهاقين فى أراضيهم ، وبين المتجملين فى لباسهم ، وخيولهم ، ومراكبهم . فيستحقر الغنى الفقير ويتكبر عليه ويقول له : أنت مكد ومسكين ، وأنا لو أردت لا اشتريت مثلك ، واستخدمت من هو فوقك . ومن أنت ؟ وما معك ؟ وأساس بيتى يساوى أكثر من جميع مالك وأنا أنفق فى اليوم مالا تأكله فى سنة . وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى . وإليه الإشارة بقوله تعالى (فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا[١]) حتى أجابه فقال (إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا

---

(١) حديث ان رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أب لك ـ الحديث : عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند من حديث أبى بن كعب باسناد صحيح ورواه أحمد موقوفا على معاذ بقصة موسى فقط

(٢) حديث ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحما فى جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان ـ الحديث : أبو داود والترمذى وحسنه وابن حبان من حديث أبى هريرة

(٣) حديث عائشة دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت بيدى هكذا أى إنها قصيرة ـ الحديث : تقدم فى آفات اللسان

(١) الكهف : ٣٤

فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً* أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً[1]) وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد . ثم بين الله عاقبة أمره بقوله (يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً[2]) .

ومن ذلك تكبر قارون ، إذ قال تعالى إخبارا عن تكبره (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ[3])

السادس : الكبر بالقوة وشدة البطش ، والتكبر به على أهل الضعف

السابع : التكبر بالأتباع ، والأنصار ، والتلامذة ، والغلمان ، وبالعشيرة ، والأقارب ، والبنين ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود ، وبين العلماء فى المكاثرة بالمستفيدين

وبالجملة فكل ما هو نعمة ، وأمكن أن يعتقد كمالا ، وإن لم يكن فى نفسه كمالا ، أمكن أن يتكبر به . حتى أن المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته فى صنعة المخنثين ، لأنه يرى ذلك كمالا فيفتخر به ، وإن لم يكن فعله إلا نكالا . وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب ، وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ، ويتكبر به ، لظنه أن ذلك كمال ، وإن كان مخطئا فيه

فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض ، فيتكبر من يدلى بشىء منه على من لا يدلى به ، أو على من يدلى بما هو دونه فى اعتقاده ، وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى كالعالم الذى يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه ، لظنه أنه هو الأعلم ، ولحسن اعتقاده فى نفسه

نسأل الله العون بلطفه ورحمته ، إنه على كل شيء قدير

بيان

البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له

اعلم أن الكبر خلق باطن وأمّا ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهى ثمرة ونتيجة . وينبغى أن تسمى تكبرا ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذى هو استعظام النفس ، ورؤية قدرها فوق قدر الغير . وهذا الباطن له موجب واحد ، وهو العجب الذى يتعلق بالمتكبر كما سيأتى معناه

---

(1) الكهف : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ (2) الكهف : ٤٢ (3) القصص : ٧٩

فإنه إذا أعجب بنفسه ، وبعلمه ، وبعمله ، أو بشيء من أسبابه ، استعظم نفسه وتكبر .

وأما الكبر الظاهر ، فأسبابه ثلاثة . سبب فى المتكبر ، وسبب فى المتكبر عليه ، وسبب فيما يتعلق بغيرهما . أما السبب الذى فى المتكبر ، فهو العجب . والذى يتعلق بالمتكبر عليه ، هو الحقد والحسد . والذى يتعلق بغيرهما ، هو الرياء . فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة : العجب ، والحقد ، والحسد ، والرياء أما العجب ، فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن ، والكبر الباطن يثمر التكبر الظاهر فى الأعمال ، والأقوال والأحوال . وأما الحقد ، فإنه يحمل على التكبر من غير عجب ، كالذى يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه ، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه ، فأورثه الغضب حقدا ، ورسخ فى قلبه بغضه . فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له ، وإن كان عنده مستحقا للتواضع . فكم من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه ، أو بغضه له . ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته ، وعلى الأنفة من قبول نصحه . وعلى أن يجتهد فى التقدم عليه وإن علم أنه لا يستحق ذلك ، وعلى أن لا يستحله وإن ظلمه . فلا يعتذر إليه وإن جنى عليه ، ولا يسأله عما هو جاهل به . وأما الحسد فإنه أيضا يوجب البغض للمحسود ، وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضى الغضب والحقد . ويدعو الحسد أيضا إلى جحد الحق ، حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم . فكم من جاهل يشتاق إلى العلم ، وقد بقى فى رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه ، حسدا وبغيا عليه ، فهو يعرض عنه ، ويتكبر عليه ، مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه . ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين ، وإن كان فى باطنه ليس يرى نفسه فوقه

وأما الرياء فهو أيضا يدعو إلى أخلاق المتكبرين ، حتى أن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه ، وليس بينه وبينه معرفة ، ولا محاسدة ، ولا حقد ، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ، ولا يتواضع له فى الاستفادة ، خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه . فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه . وأما الذى يتكبر بالعجب : أو الحسد ، أو الحقد ، فإنه يتكبر أيضا عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث . وكذلك قد ينتمى إلى نسب شريف كاذبا ، وهو يعلم أنه كاذب . ثم يتكبر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب ، ويترفع عليه فى المجالس ، ويتقدم عليه فى الطريق ، ولا يرضى بمساواته فى الكرامة والتوقير ، وهو عالم

باطنا بأنه لا يستحق ذلك ، ولا كبر فى باطنه ، لمعرفته بأنه كاذب فى دعوى النسب . ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين . وكأن اسم المتكبر إنما يطلق فى الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر فى الباطن ، صادر عن العجب ، والنظر إلى الغير بعين الاحتقار . وهو إن سمى متكبرا فلأجل التشبه بأفعال الكبر ، نسأل الله حسن التوفيق . والله تعالى أعلم

بيان

أخلاق المتواضعين ، ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم أن التكبر يظهر فى شمائل الرجل ، كصعر فى وجهه ، ونظره شزرا ، وإطراقه رأسه وجلوسه متربعا أو متكئا . وفى أقواله ، حتى فى صوته ونغمته ، وصيغته فى الإيراد . ويظهر فى مشيته وتبختره ، وقيامه وجلوسه ، وحركاته وسكناته . وفى تعاطيه لأفعاله ، وفى سائر تقلباته فى أحواله ، وأقواله ، وأعماله . فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ، ومنهم من يتكبر فى بعض ويتواضع فى بعض . فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه . وقد قال على كرم الله وجهه : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار ، فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام .

وقال أنس[1] لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . ومنها أن لا يمشى إلا ومعه غيره يمشى خلفه . قال أبو الدرداء لا يزال العبد يزداد من الله بُعدا ما مشى خلفه . وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده ، إذ كان لا يتميز عنهم فى صورة ظاهرة . ومشى قوم خلف الحسن البصرى فمنعهم وقال ما يبقى هذا من قلب العبد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] فى بعض الأوقات يمشى مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ، ويمشى فى غمارهم ، إما لتعليم غيره ، أو لينفى عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر

---

(١) حديث أنس لم يكن شخص أحب اليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له الحديث : تقدم فى آداب الصحبة وفى أخلاق النبوة

(٢) حديث كان فى بعض الأوقات يمشى مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى امامة بسند ضعيف جدا انه خرج يمشى إلى البقيع فتبعه أصحابه فوقف فأمرهم أن يتقدموا ومشى خلفهم فسئل عن ذلك فقال انى سمعت خفق نعالكم فأشفقت أن يقع فى نفسى شىء من الكبر وهو منكر فيه جماعة ضعفاء

والعجب [١] كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة ، وأبدله بالخليع ، لأحد هذين المعنيين . ومنها أن لا يزور غيره ، وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين . وهو ضد التواضع . روى أن سفيان الثوري قدم الرملة . فبعث إليه إبراهيم بن أدهم أن تعال فحدثنا . فجاء سفيان . فقيل له . يا أبا اسحق ، تبعث إليه بمثل هذا ! فقال أردت أن أنظر كيف تواضعه . ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه ، إلا أن يجلس بين يديه . والتواضع خلافه . قال ابن وهب : جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد ، فمس فخذي فخذه ، فنحيت نفسي عنه . فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه وقال لي : لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة ؟ وإني لا أعرف رجلا منكم شرا مني . وقال أنس [٢] كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث شاءت . ومنها أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ، ويتحاشى عنهم وهو من الكبر [٣] دخل رجل وعليه جدري قد تقشر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده ناس من أصحابه يأكلون ، فما جلس إلى أحد إلا قام من جنبه ، فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه . وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا يحبس عن طعامه مجذوما ، ولا أبرص . ولا مبتلى إلا أقعدهم على مائدته . ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلا في بيته . والتواضع خلافه . روى أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف ، وكان يكتب ، فكاد السراج يطفأ ، فقال الضيف أقوم إلى المصباح فأصلحه ؟ فقال ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه . قال أفأنبه الغلام ؟ فقال هي أول نومة نامها . فقام وأخذ البطة ، وملأ المصباح زيتا . فقال الضيف قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين ! فقال ذهبت وأنا عمر ، ورجعت وأنا عمر ، ما نقص مني شيء . وخير الناس من كان عند الله متواضعا . ومنها أن لا يأخذ متاعه [٤] ويحمله إلى بيته . وهو خلاف عادة المتواضعين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك . وقال علي كرم الله وجهه . لا ينقص الرجل الكامل

---

(١) حديث اخراجه الثوب الجديد في الصلاة وابداله بالخليع : قلت المعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق أو نزع الخميصة ولبس الأنبجانية وكلاهما تقدم في الصلاة

(٢) حديث أنس كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : تقدم في آداب المعيشة

(٣) حديث الرجل الذي به جدري واجلاسه إلى جنبه : تقدم قريبا

(٤) حديث حمله متاعه إلى بيته : أبو يعلى من حديث أبي هريرة في شرائه للسراويل وحمله : وتقدم

من كساله ماحمل من شيء إلى عياله . وكان أبو عبيدة بن الجراح ، وهو أمير ، يحمل سطلا له من خشب إلى الحمام وقال ثابت بن أبى مالك : رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان فقال أوسع الطريق للأمير يا ابن أبى مالك . وعن الأصبغ بن نباتة قال : كأنى أنظر إلى عمر رضى الله عنه معلقا لحما فى يده اليسرى ، وفى يده اليمنى الدرة ، يدور فى الأسواق حتى دخل رحله ، وقال بعضهم . رأيت عليا رضى الله عنه قد اشترى لحما بدرهم . فحمله فى ملحفته . فقلت له أحمل عنك يا أمير المؤمنين ؟ فقال لا ، أبو العيال أحق أن يحمل

ومنها اللباس ، إذ يظهر به التكبر والتواضع . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم [(١)] « الْبَذَاذَةُ مِنَ الْإِيمَانِ » فقال هارون : سألت معنا عن البذاذة ، فقال هو الدون من اللباس وقال زيد بن وهب : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى السوق ، وبيده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم . وعوتب على كرم الله وجهه فى إزار مرقوع فقال : يقتدى به المؤمن ، ويخشع له القلب . وقال عيسى عليه السلام . جودة الثياب خيلاء فى القلب . وقال طاوس : إنى لأغسل ثوبى هذين ، فأنكر قلبى ماداما نقيين ؛

ويروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، كان قبل أن يستخلف تشترى له الحلة بألف دينار ، فيقول ما أجودها لولا خشونة فيها . فلما استخلف ، كان يشترى له الثوب بخمسة دراهم . فيقول ما أجوده لولا لينه . فقيل له أين لباسك ، ومركبك ، وعطرك يا أمير المؤمنين ؟ فقال إن لى نفسا ذواقة ، وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التى فوقها ، حتى إذا ذاقت الخلافة ، وهي أرفع الطباق ، تاقت إلى ماعند الله عز وجل . وقال سعيد بن سويد . صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ، ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أعطاك ، فلو لبست ، فنكس رأسه مليا ، ثم رفع رأسه فقال ، إن أفضل القصد عند الجدة ، وإن أفضل العفو عند القدرة . وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « مَنْ تَرَكَ زِينَةً لِلَّهِ وَوَضَعَ ثِيَابًا حَسَنَةً تَوَاضُعًا لِلَّهِ وَابْتِغَاءَ لِمَرْضَاتِهِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَدَّخِرَ لَهُ عَبْقَرِيَّ الْجَنَّةِ »

---

(١) حديث البذاذة من الايمان : أبو داود وابن ماجه من حديث أبى أمامة بن ثعلبة وقد تقدم

(٢) حديث من ترك زينة لله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله ـ الحديث : أبو سعيد الماليني فى مسند الصوفية وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس من ترك زينة لله ـ الحديث وفى اسناده نظر

فإن قلت : فقد قال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء القلب . وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم [١] عن الجمال فى الثياب ، هل هو من الكبر ؟ فقال « لا وَلَكِنَّ مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَغَمِصَ النَّاسَ » فكيف طريق الجمع بينهما ؟ . فاعلم أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر فى حق كل أحد فى كل حال . وهو الذى أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] من حال ثابت ابن قيس ، إذ قال إنى امرؤ حبب إلىّ من الجمال ما ترى ، فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب ، لا ليتكبر على غيره ، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر وقد يكون ذلك من الكبر . كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع . وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل إذا رآه الناس ، ولا يبالى إذا انفرد بنفسه كيف كان . وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال فى كل شىء ولو فى خلوته ، وحتى فى سنور داره . فذلك ليس من التكبر .

فإذاً انقسمت الأحوال . نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال . على أن قوله خيلاء القلب يعنى قد تورث خيلاء فى القلب . وقول نبينا صلى الله عليه وسلم إنه ليس من الكبر يعنى أن الكبر لا يوجبه . ويجوز أن لا يوجبه الكبر ، ثم يكون هو مورثا للكبر .

وبالجملة فالأحوال تختلف فى مثل هذا ، والمحبوب الوسط من اللباس ، الذى لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة . وقد قال صلى الله عليه وسلم [٣] « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فى غَيْرِ سَرَفٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ [٤] إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ » وقال بكر بن عبد الله المزنى : البسوا ثياب الملوك ، وأميتوا قلوبكم بالخشية . وإنما خاطب بهذا قوما يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح . وقد قال عيسى عليه السلام : مالكم تأتونى وعليكم ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى . البسوا ثياب الملوك ، وأميتوا قلوبكم بالخشية

---

(١) حديث سئل عن الجمال فى الثياب هل هو من الكبر فقال لا ـ الحديث : تقدم غير مرة

(٢) حديث ان ثابت بن قيس قال للنبى صلى الله عليه وسلم انى امرؤ حبب الى الجمال ـ الحديث : اهو الذى قبله سمى فيه السائل وقد تقدم

(٣) حديث كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير اسراف ولا مخيلة : النسائى وابن ماجه من رواية عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده

(٤) حديث ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده : الترمذى وحسنا من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أيضا وقد جعلهما المصنف حديثا واحدا

ومنها أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذى وأخذحقه . فذلك هو الأصل. وقد أوردنا ماتقل عن السلف من احتمال الأذى فى كتاب الغضب والحسد

وبالجملة فجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيه . فينبغى أن يقتدى به . ومنه ينبغى أن يتعلم . وقد قال أبو سلمة : قلت لأبى سعيد الخدرى : ماترى فيما أحدث الناس من الملبس ، والمشرب ، والمركب ، والمطعم ؟ فقال ياابن أخى ، كل لله ، واشرب لله ، والبس لله . وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة ، فهو معصية وسرف وعالج فى بيتك من الخدمة [1] ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته . كان يعلف الناضح ، ويعقل البعير ، ويقم البيت ، ويحلب الشاة ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويأكل مع خادمه ، ويطحن عنه إذا أعيا ، ويشترى الشيء من السوق ، ولا يمنعه من الحياء أن يعلقه بيده ، أو يجعله فى طرف ثوبه ، وينقلب إلى أهله يصافح الغنى والفقير ، والكبير والصغير . ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من صغير أو كبير ، أسود أو أحمر ، حر أو عبد من أهل الصلاة ، ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه ، لايستحي من أن يجيب إذا دعى ، وإن كان أشعث أغبر ، ولا يحقر مادعى إليه ، وإن لم يجد إلا حشف الدقل ، لا يرفع غداء لعشاء ، ولا عشاء لغداء . هين المؤنة ، لين الخلق ، كريم الطبيعة ، جميل المعاشرة طليق الوجه ، بسام من غير ضحك ، محزون من غير عبوس ، شديد فى غير عنف ، متواضع فى غير مذلة ، جواد من غير سرف ، رحيم لكل ذى قربى ومسلم ، رقيق القلب ، دائم الإطراق لم يبشم قط من شبع ، ولا يمد يده من طمع . قال أبو سلمة . فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد فى زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت ما أخطأ منه حرفا ولقد قصر ، إذما أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلىء قط شبعا ، ولم يبث إلى أحد شكوى ، وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى ، وإن كان ليظل جائعا يلتوى ليلته حتى يصبح ، فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ، ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتى بكنوز

---

(١) حديث أبى سعيد الخدرى وعائشة قال الخدرى لأبى سلمة عالج فى بيتك من الخدمة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج فى بيته كان يعلف الناضح ـ الحديث : وفيه قال أبو سلمة فدخلت على عائشة فحدثتها بذلك عن أبى سعيد فقالت ما أخطأ ولقد قصر أو ما أخبرك انه لم يمتلىء قط شبعا الحديث : بطوله لم أقف له على اسناد

الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعل . وربما بكيت رحمة له مما أوتى من الجوع ، فأمسح بطنه بيدى ، وأقول نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر مايقوتك ويمنعك من الجوع ؟ فيقول ياعائشة ، إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا ، فمضوا على حالهم ، وقدموا على ربهم ، فأكرم مآبهم ، وأجزل ثوابهم . فأجدنى استحيي إن ترفهت فى معيشتى ، أن يقصر بى دونهم ، فأصبر أياما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظى غدا فى الآخرة ، وما من شىء أحب إلى من اللحوق بإخوانى وأخلائى . قالت عائشة رضى الله عنها . فو الله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل

فما نقل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة أخلاق المتواضعين . فمن يطلب التواضع فليقتد به . ومن رأى نفسه فوق محله صلى الله عليه وسلم ، ولم يرض لنفسه بما رضى هو به فما أشد جهله . فلقد كان أعظم خلق الله منصبا فى الدنيا والدين ، فلا عز ولا رفعة إلا فى الاقتداء به . ولذلك قال عمر رضى الله عنه : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلن نطلب العز فى غيره ، لما عوتب فى بذاذة هيئته عند دخوله الشام . وقال أبو الدرداء : اعلم أن لله عبادا يقال لهم الأبدال ، خلف من الأنبياء ، هم أوتاد الأرض . فلما انقضت النبوة ، أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ، ولكن بصدق الورع ، وحسن النية ، وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله ، بصبر من غير تجبن ، وتواضع فى غير مذلة . وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه ، وهم أربعون صديقا ، أو ثلاثون رجلا ، قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام . لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه

واعلم ياأخى أنهم لا يلعنون شيئا ، ولا يؤذونه ، ولا يحقرونه ، ولا يتطاولون عليه ، ولا يحسدون أحدا ، ولا يحرصون على الدنيا ، هم أطيب الناس خبرا ، وألينهم عريكة ، وأسخاهم نفسا . علامتهم السخاء ، وسجيتهم البشاشة ، وصفتهم السلامة . ليسوا اليوم فى خشية ، وغدا فى غفلة . ولكن مداومين على حالهم الظاهر ، وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ، ولا الخيل المجراة . قلوبهم تصعد ارتياحا إلى الله ، واشتياقا إليه وقدما فى استباق الخيرات . أولئك حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون ،

قال الراوي: فقلت يا أبا الدرداء ، ما سمعت بصفة أشد عليّ من تلك الصفة ، وكيف لي أن أبلغها؟ فقال ما بينك وبين أن تكون في أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا . فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة وبقدر حبك للآخرة تزهد في الدنيا . وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد ، واكتنفه بالعصمة. واعلم يا ابن أخي أن ذلك في كتاب الله تعالى المنزل (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ [١]) قال يحيى بن كثير . فنظرنا في ذلك ، فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته . اللهم اجعلنا من محب المحبين لك يارب العالمين ، فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضيته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

بيان

الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له

اعلم أن الكبر من المهلكات . ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه . وإزالته فرض عين . ولا يزول بمجرد التمني ، بل بالمعالجة ، واستعمال الأدوية القامعة له. وفي معالجته مقامان

أحدهما: استئصال أصله من سنخه ، وقلع شجرته من مغرسها في القلب

الثاني : دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره

المقام الأول : في استئصال أصله . وعلاجه علميّ وعمليّ . ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما . أما العلمي ، فهو أن يعرف نفسه ، ويعرف ربه تعالى. ويكفيه ذلك في إزالة الكبر. فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة ، علم أنه أذل من كل ذليل ، وأقل من كل قليل . وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة . وإذا عرف ربه ، علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله

أما معرفته ربه وعظمته ومجده ، فالقول فيه يطول ، وهو منتهى علم المكاشفة

وأما معرفته نفسه ، فهو أيضا يطول ، ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة . ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله ، فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته . وقد قال تعالى (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

---

[١] النحل : ١٢٨

مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (١)) فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان، وإلى آخر أمره، وإلى وسطه. فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية. أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئا مذكورا؛ وقد كان فى حيز العدم دهورا، بل لم يكن لعدمه أول. وأى شىء أخس وأقل من المحو والعدم؟ وقد كان كذلك فى القدم، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء، ثم من أقذرها، إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظما، ثم كسا العظم لحما. فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئا مذكورا. فما صار شيئا مذكورا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت، إذ لم يخلق فى ابتدائه كاملا، بل خلقه جمادا ميتا لا يسمع، ولا يبصر، ولا يحس، ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش، ولا يدرك ولا يعلم. فبدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبجهله قبل علمه، وبعماه قبل بصره، وبصممه قبل سمعه، وبيكمه قبل نطقه، وبضلالته قبل هداه، وبفقره قبل غناه، وبعجزه قبل قدرته، فهذا معنى قوله (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (٢)). ومعنى قوله (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ (٣)) كذلك خلقه أولا. ثم امتن عليه فقال (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٤)) وهذا إشارة إلى ما تيسر له فى مدة حياته إلى الموت. وكذلك قال (مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٥)) ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جمادا ميتا، ترابا أولا، ونطفة ثانيا، وأسمعه بعد ما كان أصم، وبصره بعد ما كان فاقدا للبصر، وقواه بعد الضعف، وعلمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع وكساه بعد العرى، وهداه بعد الضلال. فانظر كيف دبره وصوره، وإلى السبيل كيف يسره وإلى طغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره فقال (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٦) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٧)). فانظر إلى نعمة الله عليه، كيف نقله من تلك الذلة، والقلة والخسة، والقذارة، إلى هذه الرفعة والكرامة، فصار موجودا بعد العدم، وحيا بعد العجز

(١ ، ٢ ، ٤) عبس: من ١٧ إلى ٢٢ (٣ ، ٥) الدهر: ١ ، ٢ ، ٣ (٦) يس: ٧٧ (٧) الروم: ٢٠

وغنيا بعد الفقر . فكان فى ذاته لاشىء ، وأى شىء أخس من لا شىء ، وأى قلة أقل من العدم المحض ، ثم صار بالله شيئا . وإنما خلقه من التراب الذليل الذى يوطأ بالأقدام ، والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضا ، ليعرفه خسة ذاته ، فيعرف به نفسه . وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ، ويعلم بها عظمته وجلاله ، وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا ، ولذلك امتن عليه فقال (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ[1]) وعرف خسته أولا فقال (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً[2]) ثم ذكر منته عليه فقال (فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى[3]) ليدوم وجوده بالتناسل ، كما حصل وجوده أولا بالاختراع

فمن كان هذا بدأه ، وهذه أحواله ، فمن أين له البطر والكبرياء ، والفخر والخيلاء ، وهو على التحقيق أخس الأخساء ، وأضعف الضعفاء ! ولكن هذه عادة الخسيس ، إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم ، وذلك لدلالة خسة أوله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . نعم لو أكمله وفوض إليه أمره ، وأدام له الوجود باختياره ، لجاز أن يطغى ؛ وينسى المبدأ والمنتهى ، ولكنه سلط عليه فى دوام وجوده الأمراض الهائلة ، والأسقام العظيمة ، والآفات المختلفة ، والطباع المتضادة من المرة ، والبلغم ، والريح ، والدم ، يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى ، أم سخط ، فيجوع كرها ، ويعطش كرها ويمرض كرها ، ويموت كرها ، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا خيراً ولا شرا ، يريد أن يعلم الشىء فيجهله ، ويريد أن يذكر الشىء فينساه ، ويريد أن ينسى الشىء ويغفل عنه فلا يغفل عنه ، ويريد أن يصرف قلبه إلى ما يهمه فيجول فى أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار ، فلا يملك قلبه قلبه ، ولا نفسه نفسه ، ويشتهى الشىء وربما يكون هلاكه فيه ، ويكره الشىء وربما تكون حياته فيه . يستلذ الأطعمة وتهلكه وترديه ويستبشع الأدوية وهى تنفعه وتحييه ، ولا يأمن فى لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ، ويختطف روحه ، ويسلب جميع ما يهواه فى دنياه . فهو مضطر ذليل ، إن ترك بقى ، وإن اختطف فنى . عبد مملوك لا يقدر على شىء من نفسه ، ولا شىء من غيره فأى شىء أذل منه . لو عرف نفسه وأنى يليق الكبر به لولا جهله . فهذا أوسط أحواله فليتأمله

---

(1) البلد : ٨ ، ٩ ، ١٠ (٢ ، ٣) القيامة : ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ[1]) ومعناه أنه يسلب روحه، وسمعه، وبصره، وعلمه، وقدرته، وحسه، وإدراكه وحركته، فيعود جمادا كما كان أول مرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته، لا حس فيه ولا حركة. ثم يوضع فى التراب فيصير جيفة منتنة قذرة، كما كان فى الأول نطفة مذرة، ثم تبلى أعضاؤه، وتتفتت أجزاؤه، وتنخر عظامه، ويصير رميما رفاتا، ويأكل الدود أجزاءه فيبتدىء بحدقتيه فيقلعهما، وبخديه فيقطعهما، وبسائر أجزائه فيصير روثا فى أجواف الديدان، ويكون جيفة يهرب منه الحيوان، ويستقذره كل إنسان، ويهرب منه لشدة الإنتان. وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان، فيصير ترابا يعمل منه الكيزان، ويعمر منه البنيان، فيصير مفقودا بعد ما كان موجودا، وصار كأن لم يغن بالأمس حصيدا، كما كان فى أول أمره أمدا مديدا. وليته بقى كذلك، فما أحسنه لو ترك ترابا. لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسى شديد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة، ويخرج إلى أهوال القيامة، فينظر إلى قيامة قائمة، وسماء مشققة ممزقة، وأرض مبدلة، وجبال مسيرة ونجوم منكدرة، وشمس منكسفة، وأحوال مظلمة، وملائكة غلاظ شداد، وجهنم تزفر وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر، ويرى صحائف منشورة، فيقال له اقرأ كتابك، فيقول وما هو؟ فيقال كان قد وكل بك فى حياتك التى كنت تفرح بها، وتتكبر بنعيمها، وتفتخر بأسبابها، ملكان رقيبان، يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله، من قليل وكثير، ونقير وقطمير، وأكل وشرب، وقيام وقعود. قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك، فهلم إلى الحساب، واستعد للجواب، أو تساق إلى دار العذاب، فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب، قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه. فإذا شاهده قال: ياويلتنا، ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فهذا آخر أمره، وهو معنى قوله تعالى (ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ[2]) . فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم، بل ما له وللفرح فى لحظة واحدة، فضلا عن البطر والأشر، فقد ظهر له أول حاله، ووسطه، ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلبا أو خنزيرا، ليصير مع البهائم ترابا، ولا يكون إنسانا

(٢،١) عبس : ٢١، ٢٢.

يسمع خطابا ، أو يلقى عذابا . وإن كان عند الله مستحقا للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع ، إذ أوله التراب ، وآخره التراب ، وهو بمعزل عن الحساب والعذاب . والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق ؛ ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب فى النار لصعقوا من وحشة خلقته ، وقبح صورته . ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذى يسقى منه فى بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة . فمن هذا حاله فى العاقبة، إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو ، كيف يفرح ويبطر ، وكيف يتكبر ويتجبر ، وكيف يرى نفسه شيئا حتى يعتقد له فضلا . وأى عبد لم يذنب ذنبا استحق به العقوبة؟ إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ، ويجبر الكسر بمنه . والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ،ولا قوة إلا بالله أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب ألف سوط ، فحبس فى السجن ، وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض ، وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق ، وليس يدرى أيعفى عنه أم لا ، كيف يكون ذله فى السجن ؟ أفترى أنه يتكبر على من فى السجن ؟ وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه ،وقد استحق العقوبة من الله تعالى،ولا يدرى كيف يكون آخر أمره،فيكفيه ذلك حزنا،وخوفا،وإشفاقا،ومهانة،وذلا.فهذا هو العلاج العلمى القامع لأصل الكبر

وأما العلاج العملى فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق ، بالمواظبة على أخلاق المتواضعين ، كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ، ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] حتى أنه كان يأكل على الأرض ويقول« إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ » وقيل لسلمان لم لا تلبس ثوبا جديدا ؟ فقال : إنما أنا عبد ، فإذا أعتقت يوما لبست جديدا . أشار به إلى العتق فى الآخرة . ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعا، وقيل الصلاة عماد الدين وفى الصلاة أسرار لأجلها كانت عمادا . ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائما، وبالركوع والسجود ،وقد كانت العرب قديما يأنفون من الانحناء، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحنى لأخذه ، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه ، حتى قال حكيم بن حزام

---

(١) حديث كان يأكل على الارض ويقول انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد : تقدم فى آداب المعيشة

بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا أخر إلا قائما (١) ، فبايعه النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، ثم فقه وكمل إيمانه بعد ذلك ، فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة ، أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ، ويزول كبرهم ، ويستقر التواضع فى قلوبهم . وبه أمر سائر الخلق فإن الركوع ، والسجود ، والمثول قائما ، هو العمل الذى يقتضيه التواضع . فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال ، فليواظب على نقيضه ، حتى يصير التواضع له خلقا ، فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعا ، وذلك لخفاء العلاقة بين القلب والجوارح ، وسر الارتباط الذى بين عالم الملك وعالم الملكوت ، والقلب من عالم الملكوت

المقام الثانى : فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة . وقد ذكرنا فى كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقى هو العلم والعمل . فأما ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمى . فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل فى جميع الأسباب السبعة

الأول : النسب ، فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين :

أحدهما : أن هذا جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره ، ولذلك قيل

لئن فخرت بآباء ذوى شرف * لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيسا فى صفات ذاته ، فمن أين يجبر خسته بكمال غيره ! بل لو كان الذى ينسب إليه حيا لكان له أن يقول : الفضل لى ، ومن أنت ؟ وإنما أنت دودة خلقت من بولى . أفترى أن الدودة التى خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التى من بول فرس ؟ هيهات ، بل هما متساويان ، والشرف للإنسان لا للدودة

الثانى : أن يعرف نسبه الحقيقى ، فيعرف أباه وجده ، فإن أباه القريب نطفة قذرة وجده البعيد تراب ذليل . وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (١)) فمن أصله التراب المهين الذى يداس بالأقدام ، ثم خمر طينه حتى صار حمأ مسنونا ، كيف يتكبر

---

(١) حديث حكيم بن حزام بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا أخر إلا قائما ـ الحديث : رواه أحمد مقتصرا على هذا وفيه إرسال خفى

---

(١) السجدة : ٧ ، ٨

وأخس الأشياء ما إليه انتسابه، إذ يقال : ياأذل من التراب ، وياأنتن من الحمأة ، وياأقذر من المضغة . فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب ، فنقول افتخر بالقريب دون البعيد فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب ، فليحقر نفسه بذلك . ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربه ، فالأب الأعلى من التراب ، فمن أين رفعته ؟ وإذا لم يكن له رفعة ، فمن أين جاءت الرفعة لولده ؟ فإذاً أصله من التراب ، وفصله من النطفة ، فلا أصل له ولا فصل . وهذه غاية خسة النسب . فالأصل يوطأ بالأقدام ، والفصل تغسل منه الأبدان . فهذا هو النسب الحقيقى للإنسان . ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ، ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله ، كرجل لم يزل عند نفسه من بنى هاشم ، وقد أخبره بذلك والداه فلم يزل فيه نخوة الشرف ، فبينما هو كذلك إذا أخبره عدول لايشك فى قولهم ، أنه ابن هندى حجام يتعاطى القاذورات ، وكشفوا له وجه التلبيس عليه ، فلم يبق له شك فى صدقهم أفترى أن ذلك يبقى شيئاً من كبره ؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم . فهو من استشعار الخزى لخسته فى شغل عن أن يتكبر على غيره . فهذا حال البصير إذا تفكر فى أصله وعلم أنه من النطفة ، والمضغة ، والتراب. إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب ، أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها ، لكان يعلم به خسة نفسه لمماسة أعضاء أبيه للتراب والدم . فكيف إذا عرف أنه فى نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التى يتنزه عنها هو فى نفسه .

السبب الثانى : التكبر بالجمال . ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ، ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم . ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح مايقدر عليه تعززه بالجمال ، فإنه وكل به الأقذار فى جميع أجزائه ، الرجيع فى أمعائه ، والبول فى مثانته ، والمخاط فى أنفه ، والبزاق فى فيه ، والوسخ فى أذنيه ، والدم فى عروقه ، والصديد تحت بشرته ، والصنان تحت إبطه ، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين ، ويتردد كل يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه مالو رآه بعينه لاستقذره ، فضلا عن أن يمسه أو يشمه ، كل ذلك ليعرف قذارته وذله . هذا فى حال توسطه . وفى أول أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور ، من النطفة ، ودم الحيض وأخرج من مجرى الأقذار ، إذ خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول ، ثم من الرحم مفيض دم الحيض ، ثم خرج من مجرى القذر

قال أنس رحمه الله : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يخطبنا فيقـــذر إلينا أنفسنا ويقول : خرج أحدكم من مجرى البول مرتين . وكذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز . ما هذه مشية من فى بطنه خرء . إذ رآه يتبختر، وكان ذلك قبل خلافته وهذا أوله ووسطه . ولو ترك نفسه فى حياته يوما لم يتعهدها بالتنظيف والغسل، لثارت منه الأنتان والأقذار ، وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التى لا تتعهد نفسها قط

فإذا نظر أنه خلق من أقذار ، وأسكن فى أقذار ، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار ، لم يفتخر بجماله الذى هو كخضراء الدمن ، وكلون الأزهار فى البوادى ، فبينما هو كذلك إذا صار هشيما تذروه الرياح . كيف ولو كان جماله باقيا ، وعن هذه القبائح خاليا ، لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح ، إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه ، ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه . كيف ولا بقاء له ، بل هو فى كل حين يتصور أن يزول بمرض ، أو جدرى ، أو قرحة ، أو سبب من الأسباب ، فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب . فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها

السبب الثالث : التكبر بالقوة والأيدى . وعلاجه من ذلك أن يعلم ماسلط عليه من العلل والأمراض ، وأنه لو توجع عرق واحد فى يده لصار أعجز من كل عاجز ، وأذل من كل ذليل . وأنه لو سلبه الذباب شيئا لم يستنقذه منه . وأن بقة لو دخلت فى أنفه ، أو نملة دخلت فى أذنه لقتلته . وأن شوكة لو دخلت فى رجله لأعجزته . وأن حمى يوم تحلل من قوته مالا ينجبر فى مدة . فمن لا يطيق شوكة ، ولا يقاوم بقة ، ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة ، فلا ينبغى أن يفتخر بقوته . ثم إن قوى الإنسان فلا يكون أقوى من حمار ، أو بقرة أو فيل، أو جمل . وأى افتخار فى صفة يسبقك فيها البهائم

السبب الرابع والخامس الغنى وكثرة المال . وفى معناه كثرة الأتباع والأنصار، والتكبر بولاية السلاطين ؛ والتمكن من جهتهم . وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم . وهذا أقبح أنواع الكبر . فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره : ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلا . والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة فى نفسه ، بنى أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر . فإن تغير عليه كان أذل الخلق،

وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل . كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى فى اليهود من يزيد عليه فى الغنى والثروة والتجمل . فأف لشرف يسبقك به اليهودى وأف لشرف يأخذه السارق فى لحظة واحدة ، فيعود صاحبه ذليلا مفلسا . فهذه أسباب ليست فى ذاته . وما هو فى ذاته ليس إليه دوام وجوده ، وهو فى الآخرة وبال ونكال فالتفاخر به غاية الجهل . وكل ما ليس إليك فليس لك وشيء من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه ، إن أبقاه لك ، وإن استرجعه زال عنك . وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شيء . ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره . ومثاله أن يفتخر الغافل بقوته ، وجماله وماله ، وحريته ، واستقلاله ، وسعة منازله ، وكثرة خيوله وغلمانه ، إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف ، بأنه رقيق لفلان ، وأن أبويه كانا مملوكين له ، فعلم ذلك وحكم به الحاكم ، فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما فى يده ، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه فى أمواله ، وتقصيره فى طلب مالكه ليعرف أن له مالكا ، ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوسا فى منزل ، قد أحدقت به الحيات والعقارب والهوام ، وهو فى كل حال على وجل من كل واحدة منها ، وقد بقى لا يملك نفسه ولا ماله ، ولا يعرف طريقا فى الخلاص ألبتة . أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته ، وثروته ، وقوته ، وكماله؟ أم تذل نفسه ويخضع ؟ وهذا حال كل عاقل بصير . فإنه يرى نفسه كذلك ، فلا يملك رقبته ، وبدنه وأعضاءه ، وماله ، وهو مع ذلك بين آفات ، وشهوات ، وأمراض ، وأسقام ، هى كالعقارب والحيات ، يخاف منها الهلاك . فمن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدرته ، إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة

فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة ، وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل ، فإنهما كمالان فى النفس جديران بأن يفرح بهما ، ولكن التكبر بهما أيضا نوع من الجهل خفى كما سنذكره

السبب السادس : الكبر بالعلم ، وهو أعظم الآفات ، وأغلب الأدواء ، وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد . وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله ، عظيم عند الناس . وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما . بل لا قدر لهما أصلا إلا إذا كان معهما علم وعمل

ولذلك قال كعب الأحبار : إن للعلم طغيانا كطغيان المال . وكذلك قال عمر رضى الله عنه : العالم إذ زل زل بزلته عالم . فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم . ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين

أحدهما: أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد ، وأنه يحتمل من الجاهل ما لم يحتمل عشره من العالم . فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم ، فجنايته أفحش ، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه فى العلم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « يُؤْتَى بِالعَالِمِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِى النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِالرَّحَا فَيَطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ مَا لَكَ ؟ فَيَقُولُ كُنْتُ آمُرُ بِالخَيْرِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَآتِيهِ » وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عز وجل (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا [١]) أراد به علماء اليهود . وقال فى بلعم بن باعوراء (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا [٢]) حتى بلغ (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ [٣]) قال ابن عباس رضى الله عنهما : أوتى بلعم كتابا ، فأخلد إلى شهوات الأرض ، أى سكن حبه إليها ، فمثله بالكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث . أى سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته

ويكفى العالم هذا الخطر . فأى عالم لم يتبع شهوته ؟ وأى عالم لم يأمر بالخير الذى لا يأتيه؟ فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل ، فليتفكر فى الخطر العظيم الذى هو بصدده فإن خطره أعظم من خطر غيره ، كما أن قدره أعظم من قدر غيره ، فهذا بذاك . وهو كالملك المخاطر بروحه فى ملكه لكثرة أعدائه . فإنه إذا أخذ وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيرا . فكم من عالم يشتهى فى الآخرة سلامة الجهال والعياذ بالله منه

فهذا الخطر يمنع من التكبر ، فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه ، فكيف يتكبر من هذا حاله ! فلا ينبغى أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم

---

(١) حديث يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه ـ الحديث : متفق عليه من حديث أسامة ابن زيد بلفظ يؤتى بالرجل وتقدم فى العلم

---

(١) الجمعة : ٥ (٢ ، ٣) الاعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

وقد كان بعضهم يقول : ياليتنى لم تلدنى أمى . ويأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول : ياليتنى كنت هذه التبنة . ويقول الآخر : ليتنى كنت طيرا أوكل . ويقول الآخر : ليتنى لم أك شيئا مذكورا . كل ذلك خوفا من خطر العاقبة . فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من الطير ومن التراب ، ومنها أطال فكره فى الخطر الذى هو بصدده زال بالكلية كبره ، ورأى نفسه كأنه شر الخلق ، ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمور فشرع فيها ، فترك بعضها وأدخل النقصان فى بعضها ، وشك فى بعضها أنه هل أداها على مايرتضيه سيده أم لا . فأخبره مخبر أن سيده أرسل إليه رسولا يخرجه من كل ماهو فيه عريانا ذليلا ، ويلقيه على بابه فى الحر والشمس زمانا طويلا ، حتى إذا ضاق عليه الأمر ، وبلغ به المجهود ، أمر برفع حسابه ، وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها ، ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم ، لا يروح عنه ساعة وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك ، وعفا عن بعضهم ؟ وهو لا يدرى من أى الفريقين يكون . فإذا تفكر فى ذلك انكسرت نفسه وذل ، وبطل عزه وكبره ، وظهر حزنه وخوفه ، ولم يتكبر على أحد من الخلق ، بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب . فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه ، بجنايات على جوارحه ، وبذنوب فى باطنه من الرياء ، والحقد ، والحسد ، والعجب ، والنفاق وغيره ، وعلم مما هو بصدده من الخطر العظيم ، فارقه كبره لامحالة

الأمر الثانى : أن العالم يعرف أن الكبر لايليق إلا بالله عز وجل وحده ، وأنه إذا تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا ، وقد أحب الله منه أن يتواضع ، وقال له إن لك عندى قدرا مالم تر لنفسك قدرا ، فإن رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندى . فلا بد وأن يكلف نفسه مايحبه مولاه منه ، وهذا يزيل التكبر عن قلبه ، وإن كان يستيقن أنه لاذنب له مثلا أو تصور ذلك . وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام ، إذ علموا أن من نازع الله تعالى فى رداء الكبرياء قصمه . وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم . فهذا أيضا مما يبعثه على التواضع لامحالة

فإن قلت : فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع ، وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد ، وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى ، وكيف ينبغى أن يخطر بباله

بخطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر ؟

فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر فى خطر الخاتمة . بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه ، إذ يتصور أن يسلم الكافر ، فيختم له بالإيمان ، ويضل هذا العالم ، فيختم له بالكفر والكبير من هو كبير عند الله فى الآخرة ، والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لايدرى ذلك . فكم من مسلم نظر إلى عمر رضى الله عنه قبل إسلامه ، فاستحقره وازدراه لكفره ، وقد رزقه الله الإسلام ، وفاق جميع المسلمين إلا أبا بكر وحده فالعواقب مطوية عن العباد، ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة. وجميع الفضائل فى الدنيا تراد للعاقبة

فإذاً من حق العبد أن لا يتكبر على أحد . بل إن نظر إلى جاهل قال . هذا عصى الله بجهل ، وأنا عصيته بعلم ، فهو أعذر منى . وإن نظر إلى عالم قال هذا قد علم مالم أعلم، فكيف أكون مثله . وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنا قال . هذا قد أطاع الله قبلى، فكيف أكون مثله . وإن نظر إلى صغير قال . إنى عصيت الله قبله، فكيف أكون مثله. وإن نظر إلى مبتدع أوكافر قال . مايدرينى لعله يختم له بالإسلام ، ويختم لى بما هو عليه الآن ، فليس دوام الهداية إلىّ ، كما لم يكن ابتداؤها إلىّ. فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفى الكبر عن نفسه ، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال فى سعادة الآخرة والقرب من الله ، لافيما يظهر فى الدنيا مما لابقاء له ، ولعمرى هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه . ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه ، مشغول القلب بخوفه لعاقبته .لا أن يشتغل بخوف غيره. فإن الشفيق بسوء الظن مولع ، وشفقة كل إنسان على نفسه . فإذا حبس جماعة فى جناية، ووعدوا بأن تضرب رقابهم، لم يتفرغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر، إذ شغل كل واحد همُّ نفسه عن الالتفات إلى هم غيره، حتى كأن كل واحد هو وحده فى مصيبته وخطره

فإن قلت . فكيف أبغض المبتدع فى الله ، وأبغض الفاسق ، وقد أمرت ببغضهما ، ثم مع ذلك أتواضع لهما ، والجمع بينهما متناقض .

فاعلم أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق إذ يمتزج غضبك لله فى إنكار البدعة والفسق بكبر النفس ، والإدلال بالعلم والورع . فكم من عابد جاهل ،وعالم مغرور ، إذا رأى فاسقا جلس بجنبه أزعجه من عنده ، وتنزه عنه بكبر باطن فى نفسه،وهو ظان أنه قد غضب لله

كما وقع لعابد بنى إسرائيل مع خليعهم . وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شرا والحذر منه ممكن . والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله ، وهو خير . فإن الغضبان أيضا يتكبر على من غضب عليه ، والمتكبر يغضب . وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه ، وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا الموفقون . والذى يخلصك من هذا ، أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق ، أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور . أحدها: التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك وخطاياك ، ليصغر عند ذلك قدرك فى عينك ، والثانى : أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم ، واعتقاد الحق ، والعمل الصالح ، من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك ، فله المنة فيه لا لك ، فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك ، وإذا لم تعجب لم تتكبر ، والثالث ملاحظة إبهام عاقبتك وعاقبته ، أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى ، حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه

فإن قلت : فكيف أغضب مع هذه الأحوال ؟ فأقول تغضب لمولاك وسيدك إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك ، وأنت فى غضبك لا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا ، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك ، أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة وأعرفك ذلك بمثال لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول

إذا كان للملك غلام وولد هو قرة عينه ، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه ، وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به ، ويغضب عليه ، فإن كان الغلام محبا مطيعا لمولاه ، فلا يجد بدا أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب . وإنما يغضب عليه لمولاه ، ولأنه أمره به ، ولأنه يريد التقرب بامتثال أمره إليه ، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه ، فيضرب ولده ويغضب عليه ، من غير تكبر عليه . بل هو متواضع له ، يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه ، لأن الولد أعز لا محالة من الغلام ، فإذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع : فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق ، وتظن أنه ربما كان قدرهما فى الآخرة عند الله أعظم ، لما سبق لهما من الحسنى فى الأزل ، ولما سبق لك من سوء القضاء فى الأزل ، وأنت غافل عنه . ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولاك إذ جرى ما يكرهه ، مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك فى الآخرة .

فهكذا يكون بعض العلماء والأكياس ، فينضم إليه الخوف والتواضع . وأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره ، مع جهله بالعاقبة ، وذلك غاية الغرور . فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر

السبب السابع : التكبر بالورع والعبادة . وذلك أيضا فتنة عظيمة على العباد وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد ، وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان ، لما عرفه من فضيلة العلم . وقد قال تعالى (هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ [1]) وقال صلى الله عليه وسلم [1] « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي » إلى غير ذلك مما ورد فى فضل العلم . فإن قال العابد : ذلك لعالم عامل بعلمه ، وهذا عالم فاجر ، فيقال له أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات ، وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم ، فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه ، وكل واحد منهما ممكن . وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك . وإذا كان هذا الأمر غائبا عنه ، لم يجز له أن يحتقر عالما ، بل يجب عليه التواضع له .

فإن قلت : فإن صح هذا فينبغى أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد ، لقوله عليه السلام « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي »

فاعلم أن ذلك كان ممكنا لو علم العالم عاقبة أمره ، وخاتمة الأمر مشكوك فيها ، فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق ، لذنب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم ، وقد مقته به . وإذا كان هذا ممكنا ، كان على نفسه خائفا . فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفا على نفسه ، وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره ، فينبغى أن يكون الغالب عليه فى حق نفسه الخوف . وفى حق غيره الرجاء . وذلك يمنعه من التكبر بكل حال . فهذا حال العابد مع العالم

فأما مع غير العالم ، فهم منقسمون فى حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين . فينبغى أن لا يتكبر

---

(١) حديث فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي : الترمذى من حديث أبى أمامة وتقدم فى العلم

(١) الزمر : ٩

على المستور فلعله أقل منه ذنوبا ، وأكثر منه عبادة ، وأشد منه حبا لله . وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ماتزيد عليه ذنوبك فى طول عمرك . فلا ينبغى أن تتكبر عليه . ولا يمكن أن تقول هو أكثر منى ذنبا ، لأن عدد ذنوبك فى طول عمرك ، وذنوب غيرك فى طول العمر لاتقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة . نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل ، والشرب ، والزنا ، ومع ذلك فلا ينبغى أن تتكبر عليه ، إذ ذنوب القلوب من الكبر ، والحسد ، والرياء ، والغل ، واعتقاد الباطل ، والوسوسة فى صفات الله تعالى ، وتخيل الخطأ فى ذلك كل ذلك شديد عند الله . فربما جرى عليك فى باطنك من خفايا الذنوب ماصرت به عند الله ممقوتا . وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله ، وإخلاص ، وخوف ، وتعظيم : ما أنت خال عنه . وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته ، فينكشف الغطاء يوم القيامة ، فتراه فوق نفسك بدرجات ، فهذا ممكن ، والإمكان البعيد فيما عليك ينبغى أن يكون قريبا عندك إن كنت مشفقا على نفسك . فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك ، بل فيما هو مخوف فى حقك فإنه لاتزر وازرة وزر أخرى ، وعذاب غيرك لايخفف شيئا من عذابك . فإذا تفكرت فى هذا الخطر ، كان عندك شغل شاغل عن التكبر ، وعن أن ترى نفسك فوق غيرك . وقد قال وهب بن منبه : ماتم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال : فعد تسعة حتى بلغ العاشر فقال : العاشرة وما العاشرة ، بها ساد مجده وبها علا ذكره ، أن يرى الناس كلهم خيرا منه ، وإنما الناس عنده فرقتان فرقة هي أفضل منه وأرفع ، وفرقة هى شر منه وأدنى . فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه . إن رأى من هو خير منه سره ذلك ، وتمنى أن يلحق به ، وإن رأى من هو شر منه قال لعل هذا ينجو وأهلك أنا ، فلا تراه إلا خائفا من العاقبة . ويقول لعل بر هذا باطن ، فذلك خير له ، ولا أدرى لعل فيه خلقا كريما بينه وبين الله ، فيرحمه الله ويتوب عليه ، ويختم له بأحسن الأعمال . ويرى ظاهر فذلك شرلى ، فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها . ثم قال : فحينئذ كمل عقله : وساد أهل زمانه . فهذا كلامه . وبالجملة فمن جوز أن يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء فى الأزل بشقوته . فماله سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال . نعم إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيرا من نفسه . وذلك هو الفضيلة ، كما روى أن عابدا آوى إلى جبل

فقيل له فى النوم ائت فلانا الإسكاف فسله أن يدعو لك . فأتاه فسأله عن عمله ، فأخبره أنه يصوم النهار ، ويكتسب فيتصدق ببعضه ، ويطعم عياله ببعضه . فرجع وهو يقول : إن هذا الحسن ، ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله ، فأتى فى النوم ثانيا فقيل له ائت فلانا الإسكاف فقل له ماهذا الصفار الذى بوجهك . فأتاه فسأله فقال له . مارأيت أحدا من الناس إلا وقع لى أنه سينجو وأهلك أنا . فقال العابد بهذه ، والذى يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى (يُؤْتُونَ مَا أَتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ[1]) أى أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها . وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ[2]) وقال تعالى (إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ[3]) وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام ، مع تقدسهم عن الذنوب ، ومواظبتهم على العبادات ، على الدؤب بالإشفاق فقال تعالى مخبرا عنهم (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ[4]) (وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ[5]) فمتى زال الإشفاق والحذر مما سبق به القضاء فى الأزل ، وينكشف عند خاتمة الأجل ، غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر ، وهو سبب الهلاك . فالكبر دليل الأمن ، والأمن مهلك . والتواضع دليل الخوف ، وهو مسعد ، فإذن ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق ، والنظر إليهم بعين الاستصغار ، أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال .

فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير . إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهى كاذبة . فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ، ونسيت وعدها فمن هذا لا ينبغى أن يكتفى فى المداواة بمجرد المعرفة ، بل ينبغى أن تكمل بالعمل ، وتجرب بأفعال المتواضعين فى مواقع هيجان الكبر من النفس . وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هى أدلة على استخراج ما فى الباطن ، وإن كانت الامتحانات كثيرة

الامتحان الأول : أن ينظر فى مسألة مع واحد من أقرانه ، فإن ظهر شىء من الحق على لسان صاحبه ، فثقل عليه قبوله ، والانقياد له ، والاعتراف به ، والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق ، فذلك يدل على أن فيه كبرا دفينا ، فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه

---

(1) المؤمنون : ٦٠ (2) المؤمنون : ٥٧ (3) الطور : ٢٦ (4) الأنبياء : ٢٠ (5) الأنبياء : ٢٨

أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه ، وخطر عاقبته ، وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى . وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق ، وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ، ويقر على نفسه بالعجز ، ويشكره على الاستفادة ، ويقول ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلا عنه ، فجزاك الله خيرا كما نبهتنى له ، فالحكمة ضالة المؤمن ، فإذا وجدها ينبغى أن يشكر من دله عليها . فإذا واظب على ذلك مرات متوالية ، صار ذلك له طبعا ، وسقط ثقل الحق عن قلبه ، وطاب له قبوله . ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ، ففيه كبر . فإن كان ذلك لا يثقل عليه فى الخلوة ، ويثقل عليه فى الملأ ، فليس فيه كبر ، وإنما فيه رياء ؛ فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ، ويذكر القلب بأن منفعته فى كماله فى ذاته ، وعند الله لا عند الخلق ، إلى غير ذلك من أدوية الرياء . وإن ثقل عليه فى الخلوة والملأ جميعا ، ففيه الكبر والرياء جميعا ، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما مالم يتخلص من الثانى ، فليعالج كلا الداءين ، فإنهما جميعا مهلكان

الامتحان الثانى . أن يجتمع مع الأقران والأمثال فى المحافل ، ويقدمهم على نفسه ، ويمشى خلفهم ، ويجلس فى الصدور تحتهم فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر ، فليواظب عليه تكلفا ، حتى يسقط عنه ثقله . فبذلك يزايله الكبر . وههنا للشيطان مكيدة ، وهو أن يجلس فى صف النعال ، أو يجعل بينه و بين الأقران بعض الأرذال ، فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين ، إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضا ، بل ينبغى أن يقدم أقرانه ، ويجلس بينهم بجنبهم ، ولا ينحط عنهم إلى صف النعال ، فذلك هو الذى يخرج خبث الكبر من الباطن

الامتحان الثالث : أن يجيب دعوة الفقير ، ويمر إلى السوق فى حاجة الرفقاء والأقارب فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر . فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق ، والثواب عليها جزيل فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث فى الباطن ، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه ، مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التى تزيل داء الكبر ـ

الامتحان الرابع . أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت ، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء ، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر . وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء . وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له إن لم تتدارك . وقد أهمل الناس طب القلوب ، واشتغلوا بطب الأجساد ، مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لامحالة ، والقلوب لاتدرك السعادة إلا بسلامتها ، إذ قال تعالى (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [1]) . ويروى عن عبد الله بن سلام ، أنه حمل حزمة حطب ، فقيل له يا أبا يوسف ، قد كان فى غلمانك وبنتك ما يكفيك . قال أجل ، ولكن أردت أن أجرب نفسى هل تنكر ذلك . فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة ، حتى جربها أهى صادقة أم كاذبة وفى الخبر [1] « مَنْ حَمَلَ الفَاكِهَةَ أَوِ الشَّيْءَ فَقَدْ بَرِيءَ مِنَ الْكِبْرِ » .

الامتحان الخامس . أن يلبس ثيابا بذلة ، فإن نفور النفس عن ذلك فى الملأ رياء ، وفى الخلوة كبر . وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، له مسح يلبسه بالليل . وقد قال صلى الله عليه وسلم [2] « مَنِ اعْتَقَلَ الْبَعِيرَ وَلَبِسَ الصُّوفَ فَقَدْ بَرِيءَ مِنَ الْكِبْرِ » وقال عليه السلام [3] « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ بِالْأَرْضِ وَأَلْبَسُ الصُّوفَ وَأَعْقِلُ الْبَعِيرَ وَأَلْعَقُ أَصَابِعِي وَأُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » وروى أن أبا موسى الأشعرى قيل له إن أقواما يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم ، فلبس عباءة فصلى فيها بالناس .

وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر ، فما يختص بالملأ فهو الرياء ، وما يكون فى الخلوة فهو الكبر ، فاعرف فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ، ومن لا يدرك المرض لا يداويه .

---

(١) حديث من حمل الشيء والفاكهة فقد برىء من الكبر : البيهقى فى الشعب من حديث أبى أمامة وضعفه بلفظ من حمل بضاعته

(٢) حديث من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برىء من الكبر : البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة بزيادة فيه وفى إسناده القاسم العمرى ضعيف جداً

(٣) حديث إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف ـ الحديث : تقدم بعضه ولم أجده بقيته

---

(١) الشعراء : ٨٩

بيـــان

غاية الرياضة فى خلق التواضع

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق ، له طرفان وواسطة . فطرفه الذى يميل إلى الزيادة يسمى تكبرا ، وطرفه الذى يميل إلى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة، والوسط يسمى تواضعا والمحمود أن يتواضع فى غير مذلة ومن غير تخاسس . فإن كلا طرفى الأمور ذميم ، وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها . فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع ، أى وضع شيئا من قدره الذى يستحقه . والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتنحى له عن مجلسه ، وأجلسه فيه ، ثم تقدم وسوى له نعله ، وغدا إلى باب الدار خلفه، فقد تخاسس وتذلل . وهذا أيضا غير محمود . بل المحمود عند الله العدل : وهو أن يعطى كل ذى حق حقه . فينبغى أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته . فأما تواضعه للسوقى فبالقيام ، والبشر فى الكلام ، والرفق فى السؤال ، وإجابة دعوته ، والسعى فى حاجته ، وأمثال ذلك ، وأن لا يرى نفسه خيرا منه ، بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره . فلا يحتقره ، ولا يستصغره ، وهو لا يعرف خاتمة أمره .

فإذاً سبيله فى اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولمن دونهم ، حتى يخف عليه التواضع المحمود فى محاسن العادات ، ليزول به الكبر عنه . فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع . وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع . بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ، ومن غير روية . فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره ، حتى أحب التملق والتخاسس ، فقد خرج إلى طرف النقصان ، فليرفع نفسه ، إذ ليس للمؤمن من أن تذل نفسه ، إلى أن يعود إلى الوسط الذى هو الصراط المستقيم وذلك غامض فى هذا الخلق وفى سائر الأخلاق . والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر . كما أن الميل إلى طرف التبذير فى المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل . فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان ، وأحدهما أفحش

وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان ؛ وأحدهما أقبح من الآخر . والمحمود المطلق هو العدل ، ووضع الأمور مواضعها كما يجب ، وعلى ما يجب ، كما يعرف ذلك بالشرع والعادة . ولنقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع

الشطر الثاني من الكتاب

في العجب

وفيه بيان ذم العجب وآفاته ، وبيان حقيقة العجب والإدلال ، وحدهما ، وبيان علاج العجب على الجملة ، وبيان أقسام ما به العجب ، وتفصيل علاجه

بيان

ذم العجب وآفاته

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً [١]) ذكر ذلك في معرض الإنكار . وقال عز وجل (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا [٢]) فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم . وقال تعالى (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً [٣]) وهذا أيضا يرجع إلى العجب بالعمل . وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطىء فيه ، كما يعجب بعمل هو مصيب فيه .

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » وقال لأبي ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الأمة فقال [٢] « إِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعاً وَهَوًى مُتَّبَعاً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ »

---

(١) حديث ثلاث مهلكات ـ الحديث : تقدم غير مرة

(٢) حديث أبي ثعلبة اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا واعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك : أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وقد تقدم

(١) التوبة : ٢٥ (٢) الحشر : ٢ (٣) الكهف : ١٠٤

وقال ابن مسعود : الهلاك فى اثنتين : القنوط والعجب : وإنما جمع بينهما لأن السعادة لاتنال إلا بالسعي ، والطلب ، والجد ، والتشمر . والقانط لايسعى ، ولا يطلب . والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى . فالموجود لايطلب ، والمحال لايطلب . والسعادة موجودة فى اعتقاد المعجب ، حاصلة له ، ومستحيلة فى اعتقاد القانط . فمن ههنا جمع بينهما وقد قال تعالى (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ [١]) قال ابن جريج . معناه إذا عملت خيرا فلا تقل عملت . وقال زيد بن أسلم : لاتبروها ، أى لاتعتقدوا أنها بارة ، وهو معنى العجب

ووقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] يوم أحد بنفسه ، فأكب عليه حتى أصيبت كفه . فكأنه أعجبه فعله العظيم ، إذ فداه بروحه حتى جرح . فتفرس ذلك عمر فيه فقال : مازال يعرف فى طلحة نأو منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنأو هو العجب فى اللغة ، إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلما . ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس . أين أنت من طلحة؟ قال ذلك رجل فيه نخوة . فإذا كان لايتخلص من العجب أمثالهم ، فكيف يتخلص الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم !

وقال مطرف : لأن أبيت نائما ، وأصبح نادما ، أحب إلى من أن أبيت قائما ، وأصبح معجبا . وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَاهُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ الْعُجْبُ الْعُجْبُ » فجعل العجب أكبر الذنوب . وكان بشر بن منصور من الذين إذ رؤا ذكر الله تعالى والدار الآخرة ، لمواظبته على العبادة . فأطال الصلاة يوما ورجل خلفه ينظر . ففطن له بشر ، فلما انصرف عن الصلاة قال له : لايعجبنك مارأيت منى . فإن ابليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ، ثم صار إلى ماصار إليه .

---

(١) حديث وقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وأكب عليه حتى أصيبت كفه : البخارى من رواية قيس بن أبى حازم قال رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبى صلى الله عليه وسلم

(٢) حديث لولم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو أكبر من ذلك العجب العجب : البزار وابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث أنس وفيه سلام بن أبى الصهباء قال البخارى منكر الحديث وقال أحمد حسن الحديث ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد بسند ضعيف جدا

---

(١) النجم : ٣٢ .

وقيل لعائشة رضى الله عنها : متى يكون الرجل مسيئا ؟ قالت إذا ظن أنه محسن . وقد قال تعالى (لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى [1]) والمن نتيجة استعظام الصدقة ، واستعظام العمل هو العجب فظهر بهذا أن العجب مذموم جدا

بيان

آفة العجب

اعلم أن آفات العجب كثيرة . فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه كما ذكرناه فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة التى لا تخفى . هذا مع العباد . وأما مع الله تعالى ، فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها ، لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها . وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه، فلا يجتهد فى تداركه وتلافيه . بل يظن أنه يغفر له . وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها . ثم إذا أعجب بها عمى عن آفاتها . ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعا فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع . وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب . والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه، ويأمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان ، وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التى هى نعمة من نعمه، وعطية من عطاياه . ويخرجه العجب إلى أن يثنى على نفسه ويحمدها ويزكيها . وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ، ومن الاستشارة والسؤال ، فيستبد بنفسه ورأيه ، ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه . وربما يعجب بالرأى الخطأ الذى خطر له ، فيفرح بكونه من خواطره ، ولا يفرح بخواطر غيره ، فيصر عليه ، ولا يسمع نصح ناصح ، ولا وعظ واعظ . بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ، ويصر على خطئه . فإن كان رأيه فى أمر دنيوى فيحقق فيه ، وإن كان فى أمر دينى لاسيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به . ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه ، واستضاء بنور القرآن ، واستعان بعلماء الدين ، وواظب

[1] البقرة : ٢٦٤

على مدارسة العلم ، وتابع سؤال أهل البصيرة ؛ لكان ذلك يوصله إلى الحق . فهذا وأمثاله من آفات للعجب . فلذلك كان من المهلكات . ومن أعظم آفاته أن يفتر فى السعى لظنه أنه قد فاز ، وأنه قد استغنى ، وهو الهلاك الصريح الذى لا شبهة فيه، نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته

بيان

حقيقة العجب والإدلال وحدهما

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة . وللعالم بكمال نفسه فى علم، وعمل، ومال ، وغيره حالتان : إحداهما: أن يكون خائفا على زواله ، ومشفقا على تكدره أو سلبه من أصله . فهذا ليس بمعجب . والأخرى: أن لا يكون خائفا من زواله، لكن يكون فرحا به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه ، لا من حيث إضافته إلى نفسه . وهذا أيضا ليس بمعجب. وله حالة ثالثة هى العجب، وهى أن يكون غير خائف عليه، بل يكون فرحا به مطمئنا إليه ، ويكون فرحه به من حيث إنه كمال ، ونعمة، وخير، ورفعة، لا من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه. فيكون فرحه به من حيث إنه صفته، ومنسوب إليه بأنه له، لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه . فمهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله، مهما شاء سلبها عنه ، زال العجب بذلك عن نفسه

فإذاً العجب هو استعظام النعمة ، والركون إليها ، مع نسيان إضافتها إلى المنعم . فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا ، وأنه منه بمكان ، حتى يتوقع بعمله كرامة فى الدنيا ، واستبعد أن يجرى عليه مكروه ، استبعادا يزيد على استبعاده ما يجرى على الفساق ، سمى هذا إدلالا بالعمل . فكأنه يرى لنفسه على الله دالة . وكذلك قد يعطى غيره شيئا فيستعظمه ويمن عليه ، فيكون معجبا . فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه ، كان مدلا عليه . وقال قتادة فى قوله تعالى (وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ [1]) أى لا تدل بعملك . وفى الخبر [1] « إِنَّ صَلَاةَ الْمُدِلِّ لَا تُرْفَعُ فَوْقَ رَأْسِهِ وَلَأَنْ تَضْحَكَ وَأَنْتَ مُعْتَرِفٌ بِذَنْبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبْكِيَ وَأَنْتَ مُدِلٌّ بِعَمَلِكَ »

---

(١) حديث ان صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه ـ الحديث : لم أجد له أصلا

(١) المدثر : ٦

والإدلال وراء العجب ، فلا مدل إلا وهو معجب ، ورب معجب لا يدل . إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة ، دون توقع جزاء عليه . والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء فإن توقع إجابة دعوته، واستنكر ردها بباطنه، وتعجب منه ،كان مدلا بعمله ، لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ، ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك . فهذا هو العجب والإدلال ، وهو من مقدمات الكبر وأسبابه ، والله تعالى أعلم

بيان

علاج العجب على الجملة

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده . وعلة العجب الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل ، فقط . فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد ،كالعبادة والصدقة ، والغزو ، وسياسة الخلق وإصلاحهم ، فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة ، والنسب ، وما لا يدخل تحت اختياره ، ولا يراه من نفسه فنقول

الورع والتقوى والعبادة والعمل الذى به يعجب ، إنما يعجب به من حيث إنه فيه ، فهو محله ومجراه . أو من حيث إنه منه وبسببه ، وبقدرته وقوته . فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه ، وهو محله ومجراه ، يجرى فيه وعليه من جهة غيره ، فهذا جهل . لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له فى الإيجاد والتحصيل ، فكيف يعجب بما ليس إليه ! وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه ، وباختياره حصل ، وبقدرته تم ، فينبغى أن يتأمل فى قدرته ، وإرادته ، وأعضائه ، وسائر الأسباب التى بها يتم عمله أنها من أين كانت له ، فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه ، من غير حق سبق له ، ومن غير وسيلة يدلى بها ، فينبغى أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله ، إذ أفاض عليه ما لا يستحق ، وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة . فمهما برز الملك لغلمانه ، ونظر إليهم ، وخلع من جملتهم على واحد منهم ، لا لصفة فيه ، ولا لوسيلة ، ولا لجمال ، ولا لخدمة ، فينبغى أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه ، وإيثاره من غير استحقاق . وإعجابه بنفسه من أين وما سببه . ولا ينبغى أن يعجب هو بنفسه . نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول . الملك حكم عدل

لا يظلم ، ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب ، فلولا أنه تفطن فى صفة من الصفات المحمودة الباطنة ، لما اقتضى الإيثار بالخلعة ، ولما آثرنى بها . فيقال وتلك الصفة أيضا هي من خلعة الملك وعطيته ، التى خصصك بها من غيرك من غير وسيلة . أو هى عطية غيره ؟ فإن كانت من عطية الملك أيضا ، لم يكن لك أن تعجب بها . بل كان كما لو أعطاك فرسا فلم تعجب به ، فأعطاك غلاما فصرت تعجب به وتقول : إنما أعطانى غلاما لأنى صاحب فرس فأما غيرى فلا فرس له. فيقال وهو الذى أعطاك الفرس ، فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معا ، أو يعطيك أحدهما بعد الآخر . فإذا كان الكل منه فينبغى أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك

وأما إن كانت تلك الصفة من غيره ، فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة . وهذا يتصوّر فى حق الملوك ، ولا يتصوّر فى حق الجبار القاهر ملك الملوك ، المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة . فإنك إن أعجبت بعبادتك ، وقلت وفقنى للعبادة لحبى له ، فيقال ومن خلق الحب فى قلبك ؟ فستقول هو . فيقال فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ، ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك ، إذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فيكون الإعجاب بجوده ، إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك ، وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك

فإذاً لا معنى لعجب العابد بعبادته ، وعجب العالم بعلمه ، وعجب الجميل بجماله ، وعجب الغنى بغناه ، لأن كل ذلك من فضل الله ، وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده ، والمحل أيضا من فضله وجوده . فإن قلت : لا يمكننى أن أجهل أعمالى ، وأنى أنا عملتها ، فإنى أنتظر عليها ثوابا ، ولولا أنها عملى لما انتظرت ثوابا ، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لى الثواب . وإن كانت الأعمال منى وبقدرتى فكيف لا أعجب بها

فاعلم أن جوابك من وجهين . أحدهما هو صريح الحق ، والآخر فيه مسامحة . أما صريح الحق فهو أنك وقدرتك ، وإرادتك وحركتك ، وجميع ذلك من خلق الله واختراعه . فما عملت إذ عملت ، وما صليت إذ صليت ، وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى . فهذا هو الحق الذى انكشف لأرباب القلوب ، بمشاهدة أوضح من أبصار العين . بل خلقك وخلق أعضاءك ، وخلق فيها القوة والقدرة والصحة ، وخلق لك العقل والعلم ، وخلق لك

الإرادة . ولو أردت أن تنفى شيئا من هذا عن نفسك لم تقدر عليه . ثم خلق الحركات فى
فى أعضائك ، مستبدا باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه فى الاختراع ، إلا أنه خلقه
على ترتيب ، فلم يخلق الحركة ما لم يخلق فى العضو قوة ، وفى القلب إرادة . ولم يخلق إرادة
مالم يخلق علما بالمراد . ولم يخلق علما مالم يخلق القلب الذى هو محل العلم . فتدريجه فى
الخلق شيئا بعد شىء هو الذى خيل لك أنك أوجدت عملك ، وقد غلطت . وإيضاح ذلك
وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله ، سيأتى تقريره فى كتاب الشكر ، فإنه أليق به ، فارجع إليه

ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثانى ، الذى فيه مسامحة ما ، وهو أن تحسب أن
العمل حصل بقدرتك . فمن أين قدرتك ؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ، ووجود عملك
وإرادتك ، وقدرتك ، وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك . فإن كان العمل
بالقدرة ، فالقدرة مفتاحه . وهذا المفتاح بيد الله . ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل
فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ، ومفاتيحها القدرة ، والإرادة ، والعلم ، وهى
بيد الله لا محالة . أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا مجموعة فى قلعة حصينة ، ومفتاحها بيد خازن
ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار مما فيها ولو أعطاك
المفتاح لأخذته من قريب ، بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط . فإذا أعطاك الخازن المفاتيح
وسلطك عليها ، ومكنك منها ، فمددت يدك وأخذتها ، كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح
أو بما إليك من مد اليد وأخذها ؟ فلا تشك فى أنك ترى ذلك نعمة من الخازن ، لأن المؤنة
فى تحريك اليد بأخذ المال قريبة . وإنما الشأن كله فى تسليم المفاتيح : فكذلك مهما خلقت
القدرة وسلطت الإرادة الجازمة ، وحركت الدواعى والبواعث ، وصرف عنك الموانع
والصوارف ، حتى لم يبق صارف إلا دفع ، ولا باعث إلا وكل بك ، فالعمل هين عليك
وتحريك البواعث ، وصرف العوائق ، وتهيئة الأسباب ، كلها من الله ، ليس شىء منها إليك
فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله ، ولا تعجب بجوده وفضله
وكرمه فى إيثاره إياك على الفساق من عباده ، إذ سلط دواعى الفساد على الفساق ، وصرفها
عنك ، وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم ، وصرفهم عنك ، ومكنهم من أسباب
الشهوات واللذات ، وزواها عنك ، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه ، وسلطها عليك

حتى تيسر لك الخير ، وتيسر لهم الشر . فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ، ولا بجريمة سابقة من الفاسق العاصي . بل آثرك ، وقدمك ، واصطفاك بفضله ، وأبعد العاصي ، وأشقاه بعدله . فما أعجب أعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك !

فإذاً لاتنصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لاتجد سبيلا إلى مخالفتها فكأنه الذي اضطرك إلى الفعل إن كنت فاعلا تحقيقا فله الشكر والمنة لالك . وسيأتى فى كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ماتستبين به أنه لافاعل إلا الله ، ولا خالق سواه . والعجب ممن يتعجب إذا رزقه الله عقلا ، وأفقره ممن أفاض عليه المال من غير علم ، فيقول كيف منعني قوت يومي وأنا العاقل الفاضل ! وأفاض على هـذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل ! حتى يكاد يرى هذا ظلما . ولا يدرى المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمـال جميعا ، لـكان ذلك بالظلم أشبه فى ظاهر الحال . إذ يقول الجاهل الفقير يارب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتني منهما ؟ فهلا جمعتهما لى أو هلا رزقتني أحدهما وإلى هذا أشار على رضى الله عنه حيث قيل له . مابال العقلاء فقراء ؟ فقال : إن عقل الرجل محسوب عليه من رزقه . والعجب أن العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغنى أحسن حالا من نفسه . ولو قيل له هل تؤثر جهله وغنـاه عوضا عن عقلك وفقرك ؟ لامتنع عنه . فإذاً ذلك يدل على أن نعمة الله عليه أكبر ، فلم يتعجب من ذلك ؟ والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلى والجواهر على الذميمة القبيحة ، فتتعجب وتقول : كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ؟ ويخصص مثل ذلك القبح ! ولا تدرى المغرورة أن الجمال محسوب عليها من رزقها ، وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال . فإذن نعمة الله عليها أكبر . وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه . يارب لم حرمتني الدنيا وأعطيتها الجهال ، كقول من أعطاه الملك فرسا فيقول . أيها الملك لم لاتعطيني الغلام وأنا صاحب فرس ؟ فيقول كنت لاتتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس . فهب أنى ماأعطيتك فرسا ، أصارت نعمتى عليك وسيلة لك وحجة ، تطلب بها نعمة أخرى . فهذه أوهام لاتخلو الجهال عنها ومنشأ جميع ذلك الجهل ويزال ذلك بالعلم المحقق بأن العبد ، وعمله ، وأوصافه ، كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق ؛ وهذا ينفى العجب والإدلال ، ويورث الخضوع ، والشكر ،

والخوف من زوال النعمة . ومن عرف هذا لم يتصور أن يعجب بعلمه وعمله ، إذ يعلم أن ذلك من الله تعالى . ولذلك قال داود عليه السلام: يارب ماتأتى ليلة إلا وإنسان من آل داود قائم . ولا يأتى يوم إلا وإنسان من آل داود صائم . وفى رواية ، ماتمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك ، إما يصلى وإما يصوم وإما يذكرك . فأوحى الله تعالى إليه ياداود، ومن أين لهم ذلك؟ إن ذلك لم يكن إلا بى . ولولا عونى إياك ماقويت، وسأكلك إلى نفسك. قال ابن عباس : إنما أصاب داود ماأصاب من الذنب بعجبه بعمله ، إذ أضافه إلى آل داود مدلا به ، حتى وكل إلى نفسه ، فأذنب ذنبا أورثه الحزن والندم . وقال داود يارب إن بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم ، وإسحق، ويعقوب. فقال :إنى ابتليتهم فصبروا فقال يارب وأنا إن ابتليتنى صبرت . فأدل بالعمل قبل وقته . فقال الله تعالى : فإنى لم أخبرهم بأى شىء أبتليهم ، ولا فى أى شهر ، ولا فى أى يوم . وأنا مخبرك فى سنتك هذه ،وشهرك هذا ، أبتليك غدا بامرأة . فاحذر نفسك . فوقع فيما وقع فيه . وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) يوم حنين على قوتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم ، وقالوا لانغلب اليوم من قلة ، وكلوا إلى أنفسهم . فقال تعالى (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (١)) وروى ابن عيينة أن أيوب عليه السلام قال: إلهى إنك ابتليتنى بهذا البلاء ، وما ورد على أمر إلا آثرت هواك على هواى. فنودى من غمامة بعشرة آلاف صوت ياأيوب ، أنى لك ذلك ؟ أى من أين لك ذلك . قال : فأخذ رمادا ووضعه على رأسه وقال: منك يارب ، منك يارب . فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى . ولهذا قال الله تعالى (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا (٢)) وقال النبى

---

(١) حديث قولهم يوم حنين لانغلب اليوم من قلة: البيهقى فى دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسلا أن رجلا قال يوم حنين لن نغلب اليوم من قلة فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ولابن مردويه فى تفسيره من حديث أنس لما التقوا يوم حنين أعجبتهم كثرتهم فقالوا اليوم نقاتل ففروا فيه: الفرج بن فضالة ضعفه الجمهور

(١) التوبة : ٢٥ (٢) النور : ٢٠

صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس[1] «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُنْجِيهِ عَمَلُهُ» قالوا ولا أنت يا رسول الله قال «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ» ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا ترابا ، وتبنا ، وطيرا ، مع صفاء أعمالهم وقلوبهم . فكيف يكون لذى بصيرة أن يعجب بعمله ، أو يدل به، ولا يخاف على نفسه . فإذاً هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب ومهما غلب ذلك على القلب : شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها ، بل هو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل ، فيخاف من ذلك فيقول : إن من لا يبالى أن يحرم من غير جناية ، ويعطى من غير وسيلة ، لا يبالى أن يعود ويسترجع ما وهب ، فكم من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بسوء ، وهذا لا يبقى معه عجب بحال . والله تعالى أعلم

بيان

أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

اعلم أن العجب بالأسباب التي بها يتكبر كما ذكرناه . وقد يعجب بما لا يتكبر به ، كعجبه بالرأى الخطأ الذي يزين له بجهله . فما به العجب ثمانية أقسام :

الأول : أن يعجب ببدنه في جماله ، وهيئته ، وصحته ، وقوته ، وتناسب أشكاله، وحسن صورته ، وحسن صوته . وبالجملة تفصيل خلقته . فيلتفت إلى جمال نفسه ، وينسى أنه نعمة من الله تعالى . وهو بعرضة الزوال في كل حال . وعلاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال وهو التفكر في أقذار باطنه، وفي أول أمره ، وفي آخره ، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب ، وأنتنت في القبور ، حتى استقذرتها الطباع

الثاني : البطش والقوة ، كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً[1]) وكما اتكل عوج على قوته وأعجب بها فاقتلع جبلا ليطبقه على عسكر

---

(١) حديث ما منكم من أحد ينجيه عمله ــ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(١) فصلت : ١٥

موسى عليه السلام ، فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر هدهد ضعيف المنقار ، حتى صارت في عنقه . وقد يتكل المؤمن أيضا على قوته ، كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال [1]: لأطوفن الليلة على مائة امرأة . ولم يقل إن شاء الله تعالى . فحرم ما أراد من الولد . وكذلك قول داود عليه السلام : إن ابتليتني صبرت . وكان إعجابا منه بالقوة ، فلما ابتلى بالمرأة لم يصبر

ويورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب ، وإلقاء النفس في التهلكة ، والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء . وعلاجه ما ذكرناه ، وهو أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته ، وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه

الثالث : العجب بالعقل والكياسة ، والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا وثمرته الاستبداد بالرأى ، وترك المشورة ، واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه . ويخرج إلى قلة الاصغاء إلى أهل العلم ، إعراضا عنهم بالاستغناء بالرأى والعقل ، واستحقارا لهم وإهانة

وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل ، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن ، بحيث يضحك منه . فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره . وليستقصر عقله وعلمه ، وليعلم أنه ما أوتى من العلم إلا قليلا ، وإن اتسع علمه . وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه ، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى ! وأن يتهم عقله . وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم . فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري ، فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله ، فينبغى أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه . ومن أعدائه لا من أصدقائه ، فإن من يداهنه يثنى عليه ، فيزيده عجبا ، وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ، ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد به عجبا .

الرابع : العجب بالنسب الشريف . كعجب الهاشمية . حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه ، وأنه مغفور له . ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد .

وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم ، وظن أنه ملحق بهم ، فقد جهل . وإن اقتدى بآبائه ، فما كان من أخلاقهم العجب ، بل الخوف والإزراء على النفس ،

---

(١) حديث قال سليمان لأطوفن الليلة بمائة امرأة ـ الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة

واستعظام الخلق ، ومذمة النفس . ولقد شرفوا بالطاعة ، والعلم ، والخصال الحميدة ، لا بالنسب فليتشرف بما شرفوا به . وقد ساواهم فى النسب وشاركهم فى القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر ، وكانوا عند الله شرا من الكلاب ، وأخس من الخنازير . ولذلك قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى [1]) أى لا تفاوت فى أنسابكم لاجتماعكم فى أصل واحد . ثم ذكر فائدة النسب فقال (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا [2]) ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ [3]) ولما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم [1] من أكرم الناس ؟ من أكيس الناس ؟ لم يقل من ينتمى إلى نسبى ولكن قال « أَكْرَمُهُمْ أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً وَأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَاداً » وإنما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة ، فقال الحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد : هذا العبد الأسود يؤذن ! فقال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ [4])

وقال النبى صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ » أى كبرها « كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ » وقال النبى صلى الله عليه وسلم [2] « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لَا تَأْتِى النَّاسُ بِالْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَأْتُونَ بِالدُّنْيَا تَحْمِلُونَهَا عَلَى رِقَابِكُمْ تَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ فَأَقُولُ هٰكَذَا » أى أعرض عنكم . فبين أنهم إن مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش . ولما نزل قوله تعالى [4] (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [5]) ناداهم بطنا بعد بطن ، حتى قال « يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمَّةُ رَسُولِ اللهِ

---

(١) حديث لما قيل له من أكرم الناس من أكيس الناس قال أكثرهم للموت ذكرا ـ الحديث : ابن ماجه من حديث ابن عمر دون قوله وأكرم الناس وهو بهذه الزيادة ، عند ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت آخر الكتاب

(٢) حديث إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية ـ الحديث : أبو داود والترمذى وحسنه من حديث أبى هريرة ورواه الترمذى أيضا من حديث ابن عمر وقال غريب

(٣) حديث يامعشر قريش لا يأتى الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم ـ الحديث : الطبرانى من حديث عمران بن حصين إلا أنه قال يامعشر بنى هاشم وسنده ضعيف

(٤) حديث لما نزل قوله تعالى : وأنذر عشيرتك الأقربين ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يافاطمة بنت محمد ياصفية بنت عبد المطلب ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة ورواه مسلم من حديث عائشة

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) الحجرات : ١٣ (٥) الشعراء : ٢١٤

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْمَلاَ لِأَنْفُسِكُمَا فَإِنِّى لاَ أُغْنِى عَنْكُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا »

فمن عرف هذه الأمور ، وعلم أن شرفه بقدر تقواه ، وقد كان من عادة آبائه التواضع ، اقتدى بهم فى التقوى والتواضع . وإلا كان طاعنا فى نسب نفسه بلسان حاله ، مهما انتمى إليهم ولم يشبههم فى التواضع ، والتقوى ، والخوف ، والإشفاق .

فإن قلت : فقد قال صلى الله عليه وسلم[1] بعد قوله لفاطمة وصفية « إِنِّى لاَ أُغْنِى عَنْكُمَا مِنَ اللهِ شيئًا إِلاَّ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبِلاَلِهَا* » وقال عليه الصلاة والسلام[2] « أَتَرْجُوا سليمٌ شَفَاعَتِى وَلاَ يَرْجُوهَا بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ » فذلك يدل على أنه سيخص قرابته بالشفاعة

فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والنسيب أيضا جدير بأن يرجوها ، لكن بشرط أن يتقى الله أن يغضب عليه . فإنه إن يغضب عليه . فلا يأذن لأحد فى شفاعته ، لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن فى الشفاعة له ، وإلى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة . كالذنوب عند ملوك الدنيا ، فإن كل ذى مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما اشتد عليه غضب الملك . فمن الذنوب مالا تنجى منه الشفاعة وعنه العبارة بقوله تعالى (وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى [1]) وبقوله (مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ [2]) وبقوله (وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ [3]) وبقوله (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ [4])

وإذا انقسمت الذنوب إلى ما يشفع فيه وإلى ما لا يشفع فيه ، وجب الخوف والإشفاق لامحالة ، ولو كان كل ذنب تقبل فيه الشفاعة ، لما أمر قريشا بالطاعة ، ولما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضى الله عنها عن المعصية ، ولكان يأذن لها فى اتباع الشهوات لتكمل لذاتها فى الدنيا ، ثم يشفع لها فى الآخرة لتكمل لذاتها فى الآخرة . فالانهماك فى الذنوب وترك التقوى ، اتكالا على رجاء الشفاعة ، يضاهى انهماك المريض فى شهواته ،

---

(١) حديث قوله بعد قوله المتقدم لفاطمة وصفية إلا أن لكما رحما سأبلها ببلالها : مسلم من حديث أبى هريرة بلفظ غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها

(٢) حديث أيرجوا سليم شفاعتى ولا ترجوها بنو عبد المطلب : الطبرانى فى الأوسط من حديث عبد الله ابن جعفر وفيه اصيرم بن حوشب عن اسحاق بن واصل وكلاهما ضعيف جدا

---

(١) الأنبياء : ٢٨ (٢) البقرة : ٢٥٥ (٣) سبأ : ٢٣ (٤) المدثر : ٤٨.

* سأبلها ببلالها : أى أصلكم فى الدنيا ولا أغنى عنكم من الله شيئا

اعتماداً على طبيب حاذق ، قريب ، مشفق ، من أب أو أخ أو غيره ، وذلك جهل . لأن سعي الطبيب وهمته وحذقه ، تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها . فلا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتماداً على مجرد الطب . بل للطبيب أثر على الجملة . ولكن في الأمراض الخفيفة ، وعند غلبة اعتدال المزاج . فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء والصلحاء ، للأقارب والأجانب ، فإنه كذلك قطعا . وذلك لايزيل الخوف والحذر وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة ، مع كمال تقواهم ، وحسن أعمالهم ، وصفاء قلوبهم ، وما سمعوه من وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بالجنة خاصة ، وسائر المسلمين بالشفاعة عامة . ولم يتكلوا عليه ، ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم . فكيف يعجب بنفسه ، ويتكل على الشفاعة ، من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم !

الخامس: العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم، دون نسب الدين والعلم. وهذا غاية الجهل وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم ، وما جرى لهم من الظلم على عباد الله ، والفساد في دين الله ، وأنهم الممقوتون عند الله تعالى . ولو نظر إلى صورهم في النار ، وأنتانهم وأقذارهم . لاستنكف منهم ، ولتبرأ من الانتساب إليهم ، ولأنكر على من نسبه إليهم ، استقذارا واستحقارا لهم ولو انكشف له ذلهم في القيامة ، وقد تعلق الخصماء بهم ، والملائكة آخذون بنواصيهم ، يجرونهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم العباد ، لتبرأ إلى الله منهم ، ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الانتساب إليهم . فحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم ، أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ، ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين فأما العجب بنسبهم فجهل محض .

السادس : العجب بكثرة العدد من الأولاد ، والخدم ، والغلمان ، والعشيرة ، والأقارب والأنصار ، والأتباع . كما قال الكفار (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً [1]) وكما قال المؤمنون يوم حنين ، لانغلب اليوم من قلة " . وعلاجه ماذكرناه في الكبر ، وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم ، وأن كلهم عبيد عجزة ، لايملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا . وكم من فئة

(١) سبأ : ٣٥

قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. ثم كيف يعجب بهم، وإنهم سيفترقون عنه إذا مات، فيدفن في قبره ذليلا مهينا وحده، لا يرافقه أهل ولا ولد، ولا قريب، ولا حميم، ولا عشير، فيسلمونه إلى البلى، والحيات، والعقارب، والديدان، ولا يغنون عنه شيئا، وهو في أحوج أوقاته إليهم. وكذلك يهربون منه يوم القيامة (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ [١]) الآية. فأي خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك، وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر، والقيامة، وعلى الصراط، إلا عملك وفضل الله تعالى فكيف تتكل على من لا ينفعك، وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك، وموتك وحياتك

السابع: العجب بالمال. كما قال تعالى إخبارا عن صاحب الجنتين إذ قال (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا [٢]) ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] رجلا غنيا جلس بجنبه فقير، فانقبض عنه وجمع ثيابه. فقال عليه السلام «أَخَشِيتَ أَنْ يَعْدُوَ إِلَيْكَ فَقْرُهُ» وذلك للعجب بالغنى

وعلاجه أن يتفكر في آفات المال، وكثرة حقوقه، وعظم غوائله. وينظر إلى فضيلة الفقراء، وسبقهم إلى الجنة في القيامة، وإلى أن المال غاد ورائح ولا أصل له، وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام [٢] «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي حُلَّةٍ لَهُ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ إِذْ أَمَرَ اللهُ الْأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه. وقال أبو ذر: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣]، فدخل المسجد فقال لي «يَا أَبَا ذَرٍّ ارْفَعْ رَأْسَكَ» فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب جياد. ثم قال «ارْفَعْ رَأْسَكَ» فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلقة. فقال لي «يَا أَبَا ذَرٍّ هَذَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنْ قِرَابِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»

وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد، وكتاب ذم الدنيا، وكتاب ذم المال، يبين حقارة

---

(١) حديث رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس لجنبه فقير فانقبض منه ـ الحديث: رواه أحمد في الزهد

(٢) حديث بينا رجل في حلة قد أعجبته نفسه ـ الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة و قد تقدم

(٣) حديث أبي ذر كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لي يا أبا ذر ارفع رأسك فرفعت رأسي ـ الحديث: وفيه هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا ابن حبان في صحيحه

---

(١) عبس: ٣٤ (٢) الكهف: ٣٤

الأغنياء، وشرف الفقراء عند الله تعالى . فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بثروته؟ بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره فى القيام بحقوق المال ، فى أخذه من حله، ووضعه فى حقه . ومن لا يفعل ذلك فمصيره إلى الخزى والبوار ، فكيف يعجب بماله

الثامن : العجب بالرأى الخطأ . قال الله تعالى (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا[1]) وقال تعالى (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا[2])وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة ، وبذلك هلكت الأمم السالفة ، إذ افترقت فرقا ، فكل معجب برأيه ، وكل حزب بما لديهم فرحون. وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم . والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة، مع ظن كونه حقا

وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره ،لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطئه ،ولو عرفه لتركه . ولا يعالج الداء الذى لا يعرف . والجهل داء لا يعرف ، فتعسر مداواته جدا . لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ، ويزيله عنه ، إلا إذا كان معجبا برأيه وجهله ، فإنه لا يصغى إلى العارف ويتهمه ، فقد سلط الله عليه بلية تهلكه ، وهو يظنها نعمة. فكيف يمكن علاجه ، وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته فى اعتقاده . وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهما لرأيه أبدا ؛ لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب ، أو سنة ، أو دليل عقلى صحيح ، جامع لشروط الأدلة : ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ، ومكامن الغلط فيها، إلا بقريحة تامة ، وعقل ثاقب ، وجد وتشمر فى الطلب ، وممارسة الكتاب والسنة ، ومجالسة لأهل العلم ، طول العمر ، ومدارسة للعلوم ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط فى بعض الأمور . والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره فى العلم ، أن لا يخوض فى المذاهب، ولا يصغى إليها ، ولا يسمعها ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له ، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وأن رسوله صادق فيما أخبر به .

---

(١) حديث انه يغلب على آخر هذه الامة الاعجاب بالرأى :هو حديث أبى ثعلبة المتقدم فاذا رأيت شحا مطاعا وهو متبعا واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك وهو عند أبى داود والترمذى

---

(١) فاطر : ٨ (٢) الكهف ١٠٤

ويتبع سنة السلف ، ويؤمن بجملة ماجاء به الكتاب والسنة ، من غير بحث وتنقير ،وسؤال عن تفصيل . بل يقول آمنا وصدقنا . ويشتغل بالتقوى ، واجتناب المعاصى،وأداء الطاعات، والشفقة على المسلمين ، وسائر الأعمال . فإن خاض فى المذاهب والبدع ،والتعصب فى العقائد هلك من حيث لايشعر . هذا حق كل من عزم على أن يشتغل فى عمره بشىء غير العلم فأما الذي عزم على التجرد للعلم ، فأول مهمّ له معرفة الدليل وشروطه .وذلك مما يطول الأمر فيه.والوصول إلى اليقين والمعرفة فى أكثر المطالب شديد ، لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى ، وهو عزيز الوجود جدا ، فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال.

تم كتاب ذم الكبر والعجب ، والحمد لله وحده ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتاب ذمّ الغرور

كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بيده مقاليد الأمور ، وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور . مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور ، ومورد أعدائه ورطات الغرور . والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور . وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور ، صلاة تتوالى على ممر الدهور ، ومكر الساعات والشهور

أما بعد ، فمفتاح السعادة التيقظ والفطنة ، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة . فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة ، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية ، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة . فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ [1]) والمغترون قلوبهم (كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ، يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا . وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ [2]).

فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم ، فشرح صدورهم للإسلام والهدى . والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم ، فجعل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا ، وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان دليلا ، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا .

وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ، ومنبع المهلكات ، فلا بد من شرح مداخله

---

(١) النور : ٣٥ (٢) النور : ٤٠

ومجاريه ، وتفصيل مايكثر وقوع الغرور فيه ، ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه . فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد ، فأخذ منها حذره ، وبنى على الحزم والبصيرة أمره . ونحن نشرح أجناس مجارى الغرور، وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادىء الأمور الجميلة ظواهرها ، القبيحة سرائرها . ونشير إلى وجه اغترارهم بها ، وغفلتهم عنها ، فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ، ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغنى عن الاستقصا . وفرق المغترين كثيرة، ولكن يجمعهم أربعة أصناف :

الصنف الأول من العلماء . الصنف الثانى من العبّاد . الصنف الثالث من المتصوفة

الصنف الرابع من أرباب الأموال . والمغتر من كل صنف فرق كثيرة : وجهات غرورهم مختلفة . فمنهم من رأى المنكر معروفا. كالذى يتخذ المساجد ويزخرفها من المال الحرام ومنهم من لم يميز بين مايسعى فيه لنفسه وبين مايسعى فيه لله تعالى، كالواعظ الذى غرضه القبول والجاه ومنهم من يترك الأهم ويشتغل بغيره ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة . ومنهم من يترك اللباب ويشتغل بالقشر ، كالذى يكون همه فى الصلاة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف . إلى غير ذلك من مداخل لاتتضح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة

ولنبدأ أولا بذكر غرور العلماء ، ولكن بعد بيان ذم الغرور ، وبيان حقيقته وحدّه .

بيان

ذم الغرور وحقيقته وأمثلته

اعلم أن قوله تعالى (فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ [1]) وقوله تعالى (وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ [2]) الآية ، كاف فى ذم الغرور . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « حَبَّذَا نَوْمُ الْأَكْيَاسِ وَفِطْرُهُمْ كَيْفَ يَغْبِنُونَ سَهَرَ الْحَمْقَى وَاجْتِهَادَهُمْ وَلَمِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ صَاحِبِ تَقْوَى وَيَقِينٍ أَفْضَلُ

(كتاب ذم الغرور)

(١) حديث حبذا نوم الأكياس وفطرهم ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين من قول أبى الدرداء بنحوه وفيه انقطاع وفى بعض الروايات أبى الورد موضع أبى الدرداء ولم أجده مرفوعا

(١) لقمان: ٣٣ (٢) الحديد : ١٤

مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِنَ الْمُغْتَرِّينَ » وقال صلى الله عليه وسلم[1] « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ » وكل ماورد فى فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور . لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل ، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ماهو به ، والغرور هو جهل ، إلا أن كل جهل ليس بغرور . بل يستدعى الغرور مغرورا فيه مخصوصا ، ومغرورا به وهو الذى يغره . فمهما كان المجهول المعتقد شيئا يوافق الهوى ، وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلا ، سمى الجهل الحاصل به غرورا . فالغرور هو سكون النفس إلى مايوافق الهوى ، ويميل إليه الطبع ، عن شبهة وخدعة من الشيطان . فمن اعتقد أنه على خير ، إما فى العاجل أو فى الآجل ، عن شبهة فاسدة ، فهو مغرور . وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه . فأكثر الناس إذاً مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم ، واختلفت درجاتهم ، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض ، وأظهرها وأشدها غرور الكفار ، وغرور العصاة والفساق ، فنورد لها أمثلة لحقيقة الغرور

المثال الأول : غرور الكفار . فمنهم من غرته الحياة الدنيا ، ومنهم من غره بالله الغرور أما الذين غرتهم الحياة الدنيا ، فهم الذين قالوا . النقد خير من النسيئة ، والدنيا نقد ، والآخرة نسيئة ، فهى إذاً خير ، فلا بد من إيثارها . وقالوا . اليقين خير من الشك ، ولذات الدنيا يقين ، ولذات الآخرة شك ، فلا تترك اليقين بالشك . وهذه أقيسة فاسدة ، تشبه قياس إبليس حيث قال (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ[1]) وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[2]) . وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان ، وإما بالبرهان .

أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى فى قوله (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ[3]) وفى قوله عز وجل (وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ[4]) وقوله (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى[5])

---

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ـ الحديث : الترمذى وابن ماجه من حديث شداد بن أوس

---

(١) ص : ٧٦ (٢) البقرة : ٨٦ (٣) النحل : ٩٦ (٤) القصص : ٦٠ (٥) الأعلى : ١٧

وقوله (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ [١]) وقوله (فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا [٢]) وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] بذلك طوائف من الكفار ، فقلدوه وصدقوه وآمنوا به ، ولم يطالبوه بالبرهان . ومنهم من قال [٢] : نشدتك الله أبعثك الله رسولا ؟ فكان يقول نعم . فيصدق . وهذا إيمان العامة ، وهو يخرج من الغرور . وينزل هذا منزلة تصديق الصبي والده في أن حضور المكتب خير من حضور الملعب، مع أنه لا يدري وجه كونه خيرا

وأما المعرفة بالبيان والبرهان . فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذى نظمه فى قلبه الشيطان ، فإن كل مغرور فلغروره سبب . وذلك السبب هو دليل . وكل دليل فهو نوع قياس يقع فى النفس ، ويورث السكون إليه ، وإن كان صاحبه لا يشعر به، ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء . فالقياس الذى نظمه الشيطان فيه أصلان . أحدهما : أن الدنيا نقد، والآخرة نسيئة ، وهذا صحيح . والآخر : قوله إن النقد خير من النسيئة ، وهذا محل التلبيس . فليس الأمر كذلك. بل إن كان النقد مثل النسيئة فى المقدار والمقصود ، فهو خير وإن كان أقل منها فالنسيئة خير . فإن الكافر المغرور يبذل فى تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة ؛ ولا يقول النقد خير من النسيئة فلا أتركه . وإذا حذره الطبيب الفواكه ولذائذ الأطعمة ترك ذلك فى الحال ، خوفا من ألم المرض في المستقبل . فقد ترك النقد ورضي بالنسيئة . والتجار كلهم يركبون البحار ، ويتعبون فى الأسفار نقدا ؛ لأجل الراحة والربح نسيئة . فإن كان عشرة فى ثانى الحال، خيرا من واحد فى الحال، فانسب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة. فإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة ، وليس هو عشر عشير من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة

---

(١) حديث تصديق بعض الكفار بما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيمانهم من غير مطالبة بالبرهان هو مشهور فى السنن من ذلك قصة اسلام الانصار وبيعتهم وهى عند أحمد من حديث جابر وفيه حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرءان فينقلب إلى أهله فيسلمون باسلامه ـ الحديث : وهى عند أحمد باسناد جيد

(٢) حديث قول من قال له نشدتك الله أبعثك رسولا فيقول نعم فيصدق: متفق عليه من حديث أنس فى قصة ضمام بن ثعلبة وقوله للنبي صلى الله عليه وسلم آلله أرسلك للناس كلهم فقال اللهم نعم وفى آخره فقال الرجل آمنت بما جئت به وللطبرانى من حديث ابن عباس فى قصة ضمام قال نشدتك به أهو أرسلك بما أتتنا كتبك وأتتنا رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وان ندع اللات والعزى قال نعم ـ الحديث ؛

---

(١) آل عمران : ١٨٥ (٢) لقمان : ٣٣

فكأنه ترك واحدا ليأخذ ألف ألف . بل ليأخذ مالا نهاية له ولا حد . وإن نظر من حيث النوع ، رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة فإذاً قد غلط فى قوله النقد خير من النسيئة . فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور ، أطلق وأريد به خاص ، فغفل به المغرور عن خصوص معناه . فإن من قال النقد خير من النسيئة ، أراد به خيرا من نسيئة هى مثله ، وإن لم يصرح به . وعند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر ، وهو أن اليقين خير من الشك ، والآخرة شك . وهذا القياس أكثر فسادا من الأول . لأن كلا أصليه باطل . إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله . وإلا فالتاجر فى تعبه على يقين ، وفى ربحه على شك ، والمتفقه فى اجتهاده على يقين ، وفى إدراكه رتبة العلم على شك . والصياد فى تردده فى المقتنص على يقين ، وفى الظفر بالصيد على شك . وكذا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك لليقين بالشك . ولكن التاجر يقول . إن لم أتجر بقيت جائعا وعظم ضررى ، وإن اتجرت كان تعبى قليلا وربحى كثيرا . وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه ، وهو من الشفاء على شك ، ومن مرارة الدواء على يقين . ولكن يقول ضرر مرارة الدواء قليل بالإضافة إلى ما أخافه من المرض والموت . فكذلك من شك فى الآخرة ، فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول : أيام الصبر قلائل ، وهو منتهى العمر ، بالإضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة . فإن كان ماقيل فيه كذبا ، فما يفوتنى إلا التنعم أيام حياتى ، وقد كنت فى العدم من الأزل إلى الآن لا أتنعم . فأحسب أنى بقيت فى العدم . وإن كان ماقيل صدقا فأبقى فى النار أبد الآباد ، وهذا لا يطاق . ولهذا قال على كرم الله وجهه لبعض الملحدين : إن كان ماقلته حقا فقد تخلصت وتخلصنا . وإن كان ماقلناه حقا فقد تخلصنا وهلكت . وما قال هذا عن شك منه فى الآخرة ، ولكن كلم الملحد على قدر عقله ، وبين له أنه وإن لم يكن متيقنا فهو مغرور

وأما الأصل الثانى من كلامه ، وهو أن الآخرة شك ، فهو أيضا خطأ . بل ذلك يقين عند المؤمنين . وليقينه مدركان : أحدهما الإيمان والتصديق تقليدا للأنبياء والعلماء ، وذلك أيضا يزيل الغرور ، وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علته ، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلانى ، فإنه تطمئن نفس المريض إلى تصديقهم ، ولا يطالبهم بتصحيح

ذلك بالبراهين الطبية . بل يثق بقولهم ويعمل به . ولو بقي سوادي أو معتوه يكذبهم في ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عددا ، وأغزر منه فضلا ، وأعلم منه بالطب ، بل لا علم له بالطب ، فيعلم كذبهم بقولهم ، ولا يعتقد كذبه بقوله ، ولا يغتر في علمه بسببه . ولو اعتمد قوله ، وترك قول الأطباء ، كان معتوها مغرورا . فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة ، والمخبرين عنها ، والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها ، وجدهم خير خلق الله ، وأعلاهم رتبة في البصيرة ، والمعرفة ، والعقل وهم الأنبياء ، والأولياء ، والحكماء ، والعلماء ، واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم ، وشذ منهم آحاد من البطالين ، غلبت عليهم الشهوة ، ومالت نفوسهم إلى التمتع ، فعظم عليهم ترك الشهوات ، وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار ، فجحدوا الآخرة ، وكذبوا الأنبياء فكما أن قول الصبي وقول السوادي لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء ، فكذلك قول هذا الغبي الذي استرقته الشهوات ، لا يشكك في صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء . وهذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق ، وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة ، والغرور يزول به

وأما المدرك الثاني لمعرفة الآخرة ، فهو الوحي للأنبياء ، والإلهام للأولياء . ولا تظنن أن معرفة النبي عليه السلام لأمر الآخرة ولأمور الدين ، تقليد لجبريل عليه السلام بالسماع منه ، كما أن معرفتك تقليد للنبي صلى الله عليه وسلم ، حتى تكون معرفتك مثل معرفته ، وإنما يختلف المقلد فقط ، وهيهات . فإن التقليد ليس بمعرفة . بل هو اعتقاد صحيح . والأنبياء عارفون . ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هي عليها ، فشاهدوها بالبصيرة الباطنة ، كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر . فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد . وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح ، وأنه من أمر الله تعالى ، وليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الذي يقابل النهي ، لأن ذلك الأمر كلام ، والروح ليس بكلام وليس المراد بالأمر الشأن ، حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط ، لأن ذلك عام في جميع المخلوقات . بل العالم عالمان : عالم الأمر ، وعالم الخلق . ولله الخلق والأمر . فالأجساد ذوات الكمية والمقادير من عالم الخلق ، إذ الخلق عبارة عن التقدير في وضع اللسان . وكل موجود منزه عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر . وشرح ذلك سر الروح ، ولا رخصة

فى ذكره ، لاستضرار أكثر الخلق بسماعه كسر القدر الذى منع من إفشائه . فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه . وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه . وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر ربانى بطبعه وفطرته ، وأنه فى العالم الجسمانى غريب ، وأن هبوطه إليه لم يكن بمقتضى طبعه فى ذاته ، بل بأمر عارض غريب من ذاته . وذلك العارض الغريب ورد على آدم صلى الله عليه وسلم ، وعبر عنه بالمعصية : وهى التى حطته عن الجنة التى هى أليق به بمقتضى ذاته ، فإنها فى جوار الرب تعالى ؛ وأنه أمر ربانى ، وحنينه إلى جوار الرب تعالى له طبعى ذاتى ، إلا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته ، فينسى عند ذلك نفسه وربه ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه . إذ قيل له (وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللّٰهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [١]) أى الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة استحقاقهم . يقال فسقت الرطبة عن كمامها إذا خرجت عن معدنها الفطرى وهذه إشارة إلى أسرار يهتز لاستنشاق روائحها العارفون ، وتشمئز من سماع ألفاظها القاصرون فإنها تضربهم كما تضر رياح الورد بالجعل ، وتبهر أعينهم الضعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش . وانفتاح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية ، ويسمى صاحبه وليا وعارفا . وهى مبادى مقامات الأنبياء ، وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء

ولنرجع إلى الغرض المطلوب فالمقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك ، يدفع إما بيقين تقليدى ، وإما ببصيرة ومشاهدة من جهة الباطن . والمؤمنون بألسنتهم وبعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله تعالى ، وهجروا الأعمال الصالحة ، ولابسوا الشهوات والمعاصى ، فهم مشاركون للكفار فى هذا الغرور ، لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة . نعم أمرهم أخف لأن أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد ، فيخرجون من النار ولو بعد حين ، ولكنهم أيضا من المغرورين ، فإنهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ، ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها ، ومجرد الإيمان لا يكفى للفوز . قال تعالى (وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى [٢]) وقال تعالى (إِنَّ رَحْمَةَ اللّٰهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [٣]) ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) الحشر : ١٩ (٢) طه : ٨٢ (٣) الاعراف : ٥٦ .

[١] « الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ » وقال تعالى ـ (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ [١]) ـ فوعد المغفرة في جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعا ، لا بالإيمان وحده . فهؤلاء أيضا مغرورون ، أعني المطمئنين إلى الدنيا ، الفرحين بها . المترفين بنعيمها ، المحبين لها ، الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا ، دون الكارهين له خيفة لما بعده . فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا . ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين . فأما غرور الكفار بالله ، فمثاله قول بعضهم في أنفسهم وبألسنتهم إنه لو كان لله من معاد ، فنحن أحق به من غيرنا ، ونحن أوفر حظا فيه وأسعد حالا ، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا [٢]) وجملة أمرهما كما نقل في التفسير ، أن الكافر منهما بنى قصرا بألف دينار ، واشترى بستانا بألف دينار ، وخدما بألف دينار ، وتزوج امرأة على ألف دينار . وفي ذلك كله يعظه المؤمن ويقول : اشتريت قصرا يفنى ويخرب ، ألا اشتريت قصرا في الجنة لا يفنى ! واشتريت بستانا يخرب ويفنى ، ألا اشتريت بستانا في الجنة لا يفنى ! وخدما لا يفنون ولا يموتون ! وزوجة من الحور العين لا تموت ! وفي كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول : ما هناك شيء ، وما قيل من ذلك فهو أكاذيب ، وإن كان فليكونن لي في الجنة خير من هذا . وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وائل إذ يقول (لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا [٣]) فقال الله تعالى ردا عليه (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا كَلَّا [٤]) . وروى عن خباب بن الأرت أنه قال [٢] : كان لي على العاص بن وائل دين ، فجئت أتقاضاه ، فلم يقض لي . فقلت إني آخذه في الآخرة . فقال لي : إذا صرت إلى الآخرة فإن لي هناك مالا وولدا أقضيك منه . فأنزل الله تعالى قوله (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا [٥])

---

(١) حديث الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه : متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم

(٢) حديث خباب بن الأرت قال كان لي على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه ـ الحديث : في نزول قوله تعالى أفرأيت الذي كفر بآياتنا الآية البخاري : مسلم

---

[١] سورة العصر [٢] الكهف : ٣٦ [٣] مريم : ٧٧ [٤] مريم : ٧٨ [٥] مريم : ٧٧

وقال الله تعالى (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى [١])

وهذا كله من الغرور بالله ، وسببه قياس من أقيسة إبليس نعوذ بالله منه ، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم فى الدنيا ، فيقيسون عليها نعمة الآخرة . وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم ، فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى (وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ [٢]) فقال تعالى جوابا لقولهم (حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ [٣]) ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر ، فيزدرون بهم ويستحقرونهم فيقولون (أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا [٤]) ويقولون (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ [٥])

وترتيب القياس الذى نظمه فى قلوبهم ، أنهم يقولون قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا ، وكل محسن فهو محب ، وكل محب فإنه يحسن أيضا فى المستقبل ، كما قال الشاعر

لقد أحسن الله فيما مضى * كذلك يحسن فيما بقى

وإنما يقيس المستقبل على الماضى بواسطة الكرامة والحب ، إذ يقول : لولا أنى كريم عند الله ومحبوب ، لما أحسن إلىّ ، والتلبيس تحت ظنه أن كل محسن محب ، لا بل تحت ظنه أن إنعامه عليه فى الدنيا إحسان ، فقد اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عنده ، بدليل لا يدل على الكرامة ، بل عند ذوى البصائر يدل على الهوان . ومثاله أن يكون للرجل عبدان صغيران يبغض أحدهما ويحب الآخر ، فالذى يحبه يمنعه من اللعب ، ويلزمه المكتب ، ويحبسه فيه ليعلمه الأدب ، ويمنعه من الفواكه وملاذّ الأطعمة التى تضره ، ويسقيه الأدوية التى تنفعه . والذى يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد ، فيلعب ، ولا يدخل المكتب ، ويأكل كل ما يشتهى ، فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كريم ، لأنه مكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه ، فلم يمنعه ولم يحجر عليه . وذلك محض الغرور وهكذا نعيم الدنيا ولذاتها ، فإنها مهلكات ومبعدات من الله ، [١] فإن الله يحمى عبده من الدنيا وهو يحبه

---

(١) حديث ان الله يحمى عبده من الدنيا وهو يحبه ـ الحديث : الترمذى وحسنه والحاكم وصححه من حديث قتادة بن النعمان

---

(١) فصلت : ٥٠ (٢ ، ٣) المجادلة : ٨ (٤) الانعام : ٥٣ (٥) الاحقاف : ١١

كما يحمى أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه . هكذاورد فى الخبر عن سيد البشر

وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا : ذنب عجلت عقوبته . ورأوا ذلك علامة المقت والإهمال . وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا مرحبا بشعار الصالحين . والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من الله ، وإذا صرفت عنه ظن أنها هوان ، كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ [1]) فأجاب الله عن ذلك (كَلَّا [2]) أى ليس كما قال ، إنما هو ابتلاء ، نعوذ بالله من شر البلاء ، ونسأل الله التثبيت. فبين أن ذلك غرور . قال الحسن : كذبهما جميعا بقوله (كَلَّا [3]) يقول ليس هذا بإكرامى ولا هذا بهوانى. ولكن الكريم من أكرمته بطاعتى ، غنيا كان أو فقيرا، والمهان من أهنته بمعصيتى ، غنيا كان أو فقيرا .

وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان ، إما بالبصيرة أو بالتقليد أما البصيرة فبأن يعرف وجه كون الالتفات إلى شهوات الدنيا مبعدا عن الله ، ووجه كون التباعد عنها مقربا إلى الله ، ويدرك ذلك بالإلهام فى منازل العارفين والأولياء ، وشرحه من جملة علوم المكاشفة ، ولا يليق بعلم المعاملة . وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق ، فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ، ويصدق رسوله . وقد قال تعالى (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ [4]) وقال تعالى (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ [5]) وقال تعالى (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ [6]) وفى تفسير قوله تعالى (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ [7]) أنهم كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة . لنزيد غرورهم وقال تعالى (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا [8]) وقال تعالى (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ [9]) إلى غير ذلك مما ورد فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله . فمن آمن به تخلص من هذا الغرور ، فإن منشأ هذا الغرور

(١ ، ٢ ، ٣) الفجر : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ (٤) المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦ (٥ ، ٧) القلم : ٤٤ (٦) الأنعام : ٤٤
(٨) آل عمران : ١٧٨ (٩) ابراهيم : ٤٢

الجهل بالله وبصفاته ، فإن من عرفه لا يأمن مكره ، ولا يغتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة وينظر إلى فرعون ، وهامان ، وقارون ، وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم ، كيف أحسن الله إليهم ابتداء ، ثم دمرهم تدميرا . فقال تعالى (هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ [1]) الآية وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال (فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ [2]) وقال تعالى (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ [3]) وقال عز وجل (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ واللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [4]) وقال تعالى (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً [5]) فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل بإهمال السيد إياه ، وتمكينه من النعم ، على حب السيد ، بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكرا منه وكيدا ، مع أن السيد لم يحذره مكر نفسه . فبأن يجب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه أولى

فإذاً من أمن مكر الله فهو مغتر . ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك المنعم ، واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان ، ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى ، فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى مايوافقه ، وهو التصديق بدلالته على الكرامة ، وهذا هو حد الغرور

المثال الثاني : غرور العصاة من المؤمنين ، بقولهم إن الله كريم ، وإنا نرجو عفوه ، واتكالهم على ذلك ، وإهمالهم الأعمال ، وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء ، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين ، وأن نعمة الله واسعة ، ورحمته شاملة ، وكرمه عميم . وأين معاصي العباد في بحار رحمته ، وإنا موحدون ومؤمنون ، فنرجوه بوسيلة الإيمان . وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبتهم ، كاغترار العلوية بنسبهم ، ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف ، والتقوى ، والورع ، وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم ، إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين ، وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون . وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى . فقياس الشيطان للعلوية أن من أحب إنسانا أحب أولاده وأن الله قد أحب آباءكم فيحبكم ، فلا تحتاجون إلى الطاعة . وينسى المغرور أن نوحا عليه السلام

(1) مريم : ٩٨ (2) الاعراف : ٩٩ (3) النحل : ٥٥ (4) آل عمران : ٥٤ (5) الطارق : ١٥

أراد أن يستصحب ولده معه فى السفينة ، فلم يرد فكان من المغرقين فقال (رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي[1]) فقال تعالى (يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ[2]) وأن ابراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه . وأن نبينا صلى الله عليه وسلم[1] ، وعلى كل عبد مصطفى استأذن ربه فى أن يزور قبر أمه ويستغفر لها ، فأذن له فى الزيارة ولم يؤذن له فى الاستغفار ، فجلس يبكى على قبر أمه لرقته لها بسبب القرابة ، حتى أبكى من حوله فهذا أيضا اغترار بالله تعالى ، وهذا لأن الله تعالى يحب المطيع ويبغض العاصى . فكما أنه لايبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصى ، فكذلك لايحب الولد العاصى بحبه للأب المطيع ولو كان الحب يسرى من الأب إلى الولد لأوشك أن يسرى البغض أيضا . بل الحق أن لاتزر وازرة وزر أخرى . ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه ، كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ، ويروى بشرب أبيه ، ويصير عالما بتعلم أبيه ، ويصل إلى الكعبة ويراها بمشى أبيه فالتقوى فرض عين فلا يجزى فيه والد عن ولده شيئا . وكذا العكس . وعند الله جزاء التقوى يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه ، فيأذن فى الشفاعة له كما سبق فى كتاب الكبر والعجب

فإن قلت فأين الغلط فى قول العصاة والفجار : إن الله كريم ، وإنا نرجو رحمته ومغفرته وقد قال أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى خيرا ، فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر فى القلوب

فاعلم أن الشيطان لايغوى الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر ، مردود الباطن . ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب . ولكن النبى صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال[2] « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ » وهذا هو التمنى على الله تعالى : غيّر الشيطان اسمه فسماه رجاء ، حتى خدع به الجهال . وقد شرح الله الرجاء فقال (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ

---

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له فى الزيارة ولم يؤذن له فى الاستغفار ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة

(٢) حديث الكيس من دان نفسه : تقدم قريبا

(١ ، ٢) هود : ٤٥ ، ٤٦

اللهِ أُولٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ [١]) يعنى أن الرجاء بهم أليق . وهـذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال . قال الله تعالى (جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [٢]) وقال تعالى (وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [٣]) أفترى أن من استؤجر على إصلاح أوان ، وشرط له أجرة عليها ، وكان الشارط كريما يفي بالوعد مهما وعد ، ولا يخلف بل يزيد،فجاء الأجير وكسر الأوانى ، وأفسد جميعها ، ثم جلس ينتظر الأجر ، ويزعم أن المستأجر كريم أفتراه العقلاء فى انتظاره متمنيا مغرورا ، أو راجيا؟ وهذاللجهل بالفرق بين الرجاء والغرة قيل للحسن : قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل . فقال هيهات !هيهات ! تلك أمانيهم يترجحون فيها.من رجاشيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه . وقال مسلم بن يسار :لقدسجدت البارحةحتى سقطت ثنيتاى. فقال له رجل : إنالنرجو الله. فقال مسلم: هيهات! هيهات!من رجا شيئا طلبه ، ومن خاف شيئا هرب منه . وكما أن الذى يرجو فى الدنيا ولدا وهو بعد لم ينكح ، أو نكح ولم يجامع ، أو جامع ولم ينزل ، فهو معتوه . فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن ، أو آمن ولم يعمل صالحا ، أو عمل ولم يترك المعاصى ، فهو مغرور . فكما أنه إذا نكح ، ووطىء ، وأنزل ، بقى مترددا فى الولد ، يخاف ويرجو فضل الله فى خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس، فكذلك إذا آمن،وعمل الصالحات، وترك السيئات ، وبقى مترددا بين الخوف والرجاء ، يخاف أن لا يقبل منه ،وأن لايدوم عليه وأن يختم له بالسوء ، ويرجو من الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت ، حتى يموت على التوحيد ،ويحرص قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل إلى المعاصى فهو كيس ومن عدا هؤ لاء فهم المغرورون بالله .وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا . ولتعلمن نبأه بعد حين .وعندذلك يقولون كما أخبر الله عنهم (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ [٤])أى علمنا أنه كما لا يولد إلا بوقاع ونكاح ، ولا ينبت زرع إلا بحراثة وبث بذر فكذلك لا يحصل فى الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح ، فارجعنا نعمل صالحا ، فقد علمنا الآن صدقك فى قولك ، وأن ليس للانسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا

(١) البقرة : ٢١٨ (٢) الواقعة : ٢٤ (٣) آل عمران : ١٨٥ (٤) الملك : ٨

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ، قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ[١]) أى ألم نسمعكم سنة الله فى عباده، وأنه توفى كل نفس ما كسبت ، وأن كل نفس بما كسبت رهينة ، فما الذى غركم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم ؟ (قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ[٢])

فإن قلت : فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود ؟ فاعلم أنه محمود فى موضعين :

أحدهما : فى حق العاصى المنهمك إذا خطرت له التوبة ، فقال له الشيطان وأنى تقبل توبتك ؟ فيقنطه من رحمة الله تعالى ، فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ، ويتذكر أن الله يغفر الذنوب جميعا ، وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده ، وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب . قال الله تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ[٣]) أمرهم بالإنابة . وقال تعالى (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى[٤]) فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج ، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور . كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو فى السوق ، فخطر له أن يسعى إلى الجمعة ، فقال له الشيطان إنك لا تدرك الجمعة فأقم على موضعك ، فكذب الشيطان ومر يعدو ، وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج . وإن استمر على التجارة ، وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت ، أو لأجل غيره ، أو لسبب من الأسباب التى لا يعرفها ، فهو مغرور

الثانى : أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ، ويقتصر على الفرائض : فيرجى نفسه نعيم الله تعالى ، وما وعد به الصالحين ، حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة ، فيقبل على الفضائل ، ويتذكر قوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ[٥]) إلى قوله أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[٦])

فالرجاء الأول : يقمع القنوط المانع من التوبة ، والرجاء الثانى : يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمر . فكل توقع حث على توبة أو على تشمر فى العبادة فهو رجاء . وكل رجاء أوجب فتورا فى العبادة وركونا إلى البطالة فهو غرة . كما إذا خطر له أن يترك الذنب

(١ و ٢) الملك : ٩ ، ١٠ ، ١١ (٣) الزمر : ٥٣ ، ٥٤ (٤) طه : ٨٢ (٥ و ٦) المؤمنون

ويشتغل بالعمل ، فيقول له الشيطان مالك ولإيذاء نفسك وتعذيبها ، ولك رب كريم ؛ غفور رحيم ، فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة ، فهو غرة وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف ، فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ، ويقول .. إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب . وإنه مع أنه كريم ، خلد الكفار فى النار أبد الآباد ، مع أنه لم يضره كفرهم : بل سلط العذاب ، والمحن ، والأمراض ، والعلل . والفقر ، والجوع ، على جملة من عباده فى الدنيا ، وهو قادر على إزالتها . فمن هذه سنته فى عباده ، وقد خوفنى عقابه ، فكيف لا أخافه ! وكيف أغتر به . فالخوف والرجاء قائدان وسائقان ، يبعثان الناس على العمل . فما لا يبعث على العمل فهو تمن وغرور . ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا ، وسبب إعراضهم عن الله تعالى ، وإهمالهم السعى للآخرة ، فذلك غرور . فقد أخبر صلى الله عليه وسلم [1] وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة وقد كان ما وعد به صلى الله عليه وسلم . فقد كان الناس فى الأعصار الأول يواظبون على العبادات ، ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار فى طاعة الله ، يبالغون فى التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ، ويبكون على أنفسهم فى الخلوات . وأما الآن ، فترى الخلق آمنين ، مسرورين ، مطمئنين غير خائفين ، مع إكبابهم على المعاصى ، وانهما كهم فى الدنيا ، وإعراضهم عن الله تعالى ، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله ، راجون لعفوه ومغفرته ، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء ، والصحابة ، والسلف الصالحون . فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى ، وينال بالهوينى ، فعلام ذا كان بكاء أولئك ، وخوفهم ، وحزنهم ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور فى كتاب الخوف والرجاء . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] ، فيما رواه معقل ابن يسار « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَخْلَقُ فِيهِ الْقُرْءَانُ فِي

---

(١) حديث ان الغرور يغلب على آخر هذه الامة : تقدم فى آخر ذم الكبر والعجب وهو حديث أبى ثعلبة فى اعجاب كل ذى رأى برأيه —

(٢) حديث معقل بن يسار يأتى على الناس زمان يخلق فيه القرءان فى قلوب الرجال ـ الحديث : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة ولم أره من حديث معقل

قُلُوبِ الرِّجَالِ كَمَا تَخْلَقُ الثِّيَابُ عَلَى الأَبْدَانِ أَمْرُهُمْ كُلُّهُ يَكُونُ طَمَعاً لَا خَوْفَ مَعَهُ إِنْ أَحْسَنَ أَحَدُهُمْ قَالَ يُتَقَبَّلُ مِنِّي وَإِنْ أَسَاءَ قَالَ يُغْفَرُ لِي » فأخبر أنهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرءان وما فيه . وبمثله أخبر عن النصارى إذ قال تعالى (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا [1]) ومعناه أنهم ورثوا الكتاب أى هم علماء ، ويأخذون عرض هذا الأدنى أى شهواتهم من الدنيا ، حراما كان أو حلالا . وقد قال تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ [2]) (ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ [3]) والقرءان من أوله إلى آخره تحذير وتخويف لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ، ويعظم خوفه إن كان مؤمنا بما فيه . وترى الناس يهذونه هذّا يخرجون الحروف من مخارجها ، ويتناظرون على خفضها ، ورفعها ، ونصبها وكأنهم يقرءون شعرا من أشعار العرب ، لا يهمهم الإلتفات إلى معانيه ، والعمل بما فيه وهل فى العالم غرور يزيد على هذا . فهذه أمثلة الغرور بالله ، وبيان الفرق بين الرجاء والغرور

ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص ، إلا أن معاصيهم أكثر ، وهم يتوقعون المغفرة ، ويظنون أنهم ترجح كفة حسناتهم ، مع أن ما فى كفة السيئات أكثر وهذا غاية الجهل . فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ، ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه . ولعل ما تصدق به من أموال المسلمين ، وهو يتكل عليه ويظن أن أكل ألف درهم حرام ، يقاومه التصدق بعشرة من الحرام أو الحلال وما هو إلا كمن وضع عشرة دراهم فى كفة ميزان ، وفى الكفة الأخرى ألفا ، وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة . وذلك غاية جهله . نعم : ومنهم من يظن ان طاعاته أكثر من معاصيه ، لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه ، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها ، كالذى يستغفر الله بلسانه ، أو يسبح الله فى اليوم مائة مرة ، ثم يغتاب المسلمين ، ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد . ويكون نظره إلى عدد سبحته أنه استغفر الله مائة مرة ، وغفل عن هذيانه طول نهاره ، الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه

---

(١) الأعراف : ٦٩ (٢) الرحمن : ٤٦ (٣) ابراهيم : ١٤

مائة مرة أو ألف مرة ، وقد كتبه الكرام الكاتبون ، وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [1]) فهذا أبداً يتأمل فى فضائل التسبيحات والتهليلات ، ولا يلتفت إلى ماورد من عقوبة المغتابين ، والكذابين ، والنمامين ، والمنافقين يظهرون من الكلام مالا يضمرونه ، إلى غير ذلك من آفات اللسان . وذلك محض الغرور ولعمرى لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذى زاد على تسبيحه ، لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته ، وما نطق به فى فتراته كان يعده ويحسبه ، ويوازنه بتسبيحاته ، حتى لا يفضل عليه أجرة نسخه . فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا على قيراط يفوته فى الأجرة على النسخ ، ولا يحتاط خوفا من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه . ماهذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها . فقد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين ، وإن صدقنا به كنا من الحمقى المغرورين ، فما هذه أعمال من يصدق بما جاء به القرءان ، وإنا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران فسبحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان ، وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يخشى ويتقى ، ولا يغتر به اتكالا على أباطيل المنى وتعاليل الشيطان والهوى ، والله أعلم

بيان

أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف

الصنف الأول : أهل العلم والمغترون منهم فرق . ففرقة أحكموا العلوم الشرعية والعقلية ، وتعمقوا فيها ، واشتغلوا بها ، وأهملوا تفقد الجوارح ، وحفظها عن المعاصى ، وإلزامها الطاعات ، واغتروا بعلمهم ، وظنوا أنهم عند الله بمكان ، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم ، بل يقبل فى الخلق شفاعتهم ، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله . وهم مغرورون . فإنهم لو نظروا بعين البصيرة ، علموا أن العلم علمان علم معاملة ، وعلم مكاشفة ، وهو العلم بالله وبصفاته ، المسمى بالعادة علم المعرفة : فأما العلم

---

(1) ق : ١٨

بالمعاملة ، كمعرفة الحلال والحرام ، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة ، وكيفية علاجها والفرار منها ، فهى علوم لاتراد إلا للعمل ، ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة . وكل علم يراد للعمل فلاقيمة له دون العمل : فمثال هذا كمريض به علة لايزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة ، لايعرفها إلا حذاق الأطباء ، فيسعى فى طلب الطبيب، بعد أن هاجر عن وطنه ، حتى عثر على طبيب حاذق ، فعلمه الدواء ، وفصل له الأخلاط وأنواعها ، ومقاديرها ، ومعادنها التى منها تجتلب ،وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيف خلطه ، وعجنه ، فتعلم ذلك ، وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ، ورجع إلى بيته وهو يكررها ويعلمها المرضى، ولم يشتغل بشربها واستعمالها . أفترى أن ذلك يغنى عنه من مرضه شيئا ؟ هيهات ! هيهات ! لو كتب منه ألف نسخة ، وعلمه ألف مريض حتى شفى جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة ، لم يغنه ذلك من مرضه شيئا ، إلا أن يزن الذهب ، ويشترى الدواء، ويخلطه كما تعلم ، ويشربه ، ويصبر على مرارته ، ويكون شربه فى وقته، وبعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه . وإذا فعل جميع ذلك ، فهو على خطر من شفائه ،فكيف إذا لم يشربه أصلا ؟ فمهما ظن أن ذلك يكفيه ويشفيه ، فقد ظهر غروره

وهكذا الفقيه الذى أحكم علم الطاعات ولم يعملها ، وأحكم علم المعاصى ولم يجتنبها ، وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها ، وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها ، فهو مغرور . إذ قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [1]) ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس

وعند هذا يقول له الشيطان : لايغرنك هذا المثال ، فإن العلم بالدواء لايزيل المرض . وإنما مطلبك القرب من الله وثوابه ، والعلم يجلب الثواب . ويتلو عليه الأخبار الواردة فى فضل العلم . فإن كان المسكين معتوها مغرورا، وافق ذلك مراده وهواه، فاطمأن إليه وأهمل العمل . وإن كان كيسا ، فيقول للشيطان : أتذكرنى فضائل العلم ،وتنسينى ماورد فى العالم الفاجر الذى لايعمل بعلمه ؟ كقوله تعالى (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ [2]) وكقوله تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا [3]) فأى خزى

(١) الشمس : ٩ (٢) الأعراف : ١٧٧ (٣) الجمعة : ٥

أعظم من التمثيل بالكلب والحمار ، وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] «مَنِ ازْدَادَ عِلْماً وَلَمْ يَزْدَدْ هُدًى لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا» وقال أيضا [2] «يُلْقَى الْعَالِمُ فِى النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا فِى النَّارِ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِى الرَّحَى » وكقوله عليه الصلاة والسلام [3] « شرُّ النَّاسِ الْعُلَمَاءُ السُّوءُ » وقول أبى الدرداء : ويل للذى لايعلم مرة ، ولو شاء الله لعلمه . وويل للذى يعلم ولا يعمل سبع مرات . أى أن العلم حجة عليه ، إذ يقال له . ماذا عملت فيما علمت ؟ وكيف قضيت شكر الله ؟ وقال صلى الله عليه وسلم [4] « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِعِلْمِهِ » . فهذا وأمثاله مما أوردناه فى كتاب العلم ، فى باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى . إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر . وما ورد فى فضل العلم يوافقه . فيميل الشيطان قلبه إلى مايهواه ، وذلك عين الغرور . فإنه إن نظر بالبصيرة ، فمثاله ماذكرناه . وإن نظر بعين الإيمان ، فالذى أخبره بفضيلة العلم هو الذى أخبره بذم العلماء السوء . وأن حالهم عند الله أشد من حال الجهال ، فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور .

وأما الذى يدعى علوم المكاشفة ، كالعلم بالله ، وبصفاته ، وأسمائه ، وهو مع ذلك يهمل العمل ، ويضيع أمر الله وحدوده ، فغروره أشد . ومثاله مثال من أراد خدمة ملك ، فعرف الملك ، وعرف أخلاقه ، وأوصافه ، ولونه ، وشكله ، وطوله ، وعرضه ، وعادته ومجلسه ، ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه ، وما يغضب عليه وما يرضى به ، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يغضب به وعليه ، وعاطل عن جميع ما يحبه من زى ، وهيئة ، وكلام ، وحركة ، وسكون ، فورد على الملك وهو يريد التقرب منه ، والاختصاص به ، متلطخا بجميع ما يكرهه الملك ، عاطلا عن جميع ما يحبه ، متوسلا إليه بمعرفته له ولنسبه ، واسمه ، وبلده ، وصورته ، وشكله ، وعادته فى سياسة غلمانه ، ومعاملة رعيته . فهذا مغرور جدا . إذ لو ترك جميع ما عرفه ، واشتغل بمعرفته فقط ، ومعرفة ما يكرهه ويحبه ،

---

(١) حديث من ازداد علما ولم يزدد هدى ـ الحديث : تقدم فى العلم

(٢) حديث يلقى العالم فى النار فتندلق أقتابه ـ الحديث : تقدم غير مرة

(٣) حديث شر الناس علماء السوء : تقدم فى العلم

(٤) حديث أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه : تقدم فيه

لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قربه والاختصاص به . بل تقصيره فى التقوى ، واتباعه للشهوات ، يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامى دون المعانى . إذ لو عرف الله حق معرفته ، لخشيه واتقاه . فلا يتصور أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : خفنى كما تخاف السبع الضارى . نعم من يعرف من الأسد لونه ، وشكله ، واسمه ، قد لا يخافه ، وكأنه ما عرف الأسد . فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالى ، ويعلم أنه مسخر فى قدرة من لو أهلك مثله آلافا مؤلفة ، وأبد عليهم العذاب أبد الآباد ، لم يؤثر ذلك فيه أثرا ، ولم تأخذه عليه رقة ، ولا اعتراه عليه جزع . ولذلك قال تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ [1]) وفاتحة الزبور : رأس الحكمة خشية الله . وقال ابن مسعود : كفى بخشية الله علما ، وكفى بالاغترار بالله جهلا . واستفتى الحسن عن مسألة فأجاب ، فقيل له . إن فقهاءنا لا يقولون ذلك . فقال : وهل رأيت فقيها قط ؟ الفقيه القائم ليله ، الصائم نهاره ، الزاهد فى الدنيا . وقال مرة . الفقيه لا يدارى ولا يمارى ، ينشر حكمة الله ، فإن قبلت منه حمد الله ، وإن ردت عليه حمد الله . فإذاً الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه ، وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه ، وهو العالم . ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين . وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين

وفرقة أخرى أحكموا العلم والعمل ، فواظبوا على الطاعات الظاهرة ، وتركوا المعاصى إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة عند الله ، من الكبر ، والحسد ، والرياء ، وطلب الرياسة والعلاء ، وإرادة السوء للأقران والنظراء ، وطلب الشهرة فى البلاد والعباد وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم ، فهو مكب عليها ، غير متحرز عنها . ولا يلتفت إلى قوله صلى الله عليه وسلم [1] « أَدْنَى الرِّيَاءِ شِرْكٌ » وإلى قوله عليه السلام [2] « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » وإلى قوله عليه الصلاة

---

(١) حديث أدنى الرياء شرك : تقدم فى ذم الجاه والرياء

(٢) حديث لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر : تقدم غير مرة

---

(١) فاطر : ٢٨

والسلام [١] « الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » وإلى قوله عليه الصلاة والسلام [٢] « حُبُّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » إلى غير ذلك من الأخبار التي أوردناها في جميع ربع المهلكات في الأخلاق المذمومة. فهؤلاء زينوا ظواهرهم، وأهملوا بواطنهم، ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم [٣] « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب. والقلب هو الأصل، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم.

ومثال هؤلاء كبئر الحش، ظاهرها جص، وباطنها نتن: أو كقبور الموتى، ظاهرها مزين، وباطنها جيفة. أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه، فاستنار ظاهره، وباطنه مظلم. أو كرجل قصد الملك ضيافته إلى داره، فجصص باب داره، وترك المزابل في صدر داره. ولا يخفى أن ذلك غرور. بل أقرب مثال إليه رجل زرع زرعا فنبت، ونبت معه حشيش يفسده. فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله. فأخذ يجز رؤسه وأطرافه، فلا تزال تقوى أصوله فتنبت، لأن مغارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب فمن لا يطهر القلب منها لا تتم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة. بل هو كمريض ظهر به الجرب، وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء، فالطلاء ليزيل ما على ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه، فقنع بالطلاء وترك الدواء، وبقي يتناول مايزيد في المادة، فلايزال يطلي الظاهر والجرب دائم به، يتفجر من المادة التي في الباطن

وفرقة أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم. فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم. ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر، والرياسة، وطلب العلو، والشرف، قالوا ماهذا كبر، وإنما هو طلب عز الدين، وإظهار شرف العلم، ونصرة دين الله، وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين.

---

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات ـ الحديث: تقدم في العلم وغيره.

(٢) حديث حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب ـ الحديث: تقدم

(٣) حديث إن الله لا ينظر إلى صوركم ـ الحديث: تقدم

وإنى لو لبست الدون من الثياب ، وجلست فى الدون من المجالس ، اشمت بى أعداء الدين ، وفرحوا بذلك ، وكان ذلى ذلا على الإسلام . ونسى المغرور أن عدوّه الذى حذّره منه مولاه هو الشيطان ، وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به ، وينسى أن النبي صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين ، وبماذا أرغم الكافرين . ونسى ماروى عن الصحابة من التواضع ، والتبذل ، والقناعة بالفقر والمسكنة ، حتى عوتب عمر رضى الله عنه فى بذاذة زيه عند قدومه إلى الشام فقال : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلا نطلب العز فى غيره . ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب ، والديبقى ، والإبريسم المحرم ، والخيول ، والمراكب ، ويزعم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين . وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد فى أقرانه أو فيمن رد عليه شيئا من كلامه ، لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ، ولكن قال إنما هذا غضب للحق ، ورد على المبطل فى عدوانه وظلمه ، ولم يظن بنفسه الحسد . حتى يعتقد أنه لو طعن فى غيره من أهل العلم ، أو منع غيره من رياسة وزوحم فيها ، هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن . فيكون غضبه لله ، أم لا يغضب مهما طعن فى عالم آخر ومنع ، بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه ، وحسده لأقرانه ، من خبث باطنه ؟ وهكذا يرائى بأعماله وعلومه ، وإذا خطر له خاطر الرياء قال هيهات ، إنما غرضى من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بى ليهتدوا إلى دين الله تعالى ، فيتخلصوا من عقاب الله تعالى . ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره ، كما يفرح باقتدائهم به . فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان ، كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم ، فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر . وربما يذكر هذا له ، فلا يخليه الشيطان أيضا ويقول . إنما ذلك لأنهم إذا اهتدوا بى كان الأجر لى ، والثواب لى . فإنما فرحى بثواب الله ، لا بقبول الخلق قولى . هذا ما يظنه بنفسه ، والله مطلع من ضميره على أنه لو أخبره نبى بأن ثوابه فى الخمول وإخفاء العلم ، أكثر من ثوابه فى الإظهار ، وحبس مع ذلك فى سجن ، وقيد بالسلاسل ، لاحتال فى هدم السجن وحل السلاسل ، حتى يرجع إلى موضعه الذى به تظهر رياسته ، من تدريس أو وعظ أو غيره . وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ، ويثنى عليه ، ويتواضع له ، وإذا خطر له أن التواضع للسلاطين الظلمة حرام ، قال له الشيطان :

هيهات، إنما ذلك عند الطمع في مالهم. فأما أنت ففرضك أن تشفع للمسلمين، وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك. والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان، فصار يشفعه في كل مسلم، حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين، ثقل ذلك عليه ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالطعن فيه، والكذب عليه لفعل

وكذلك قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم، وإذا خطر له أنه حرام، قال له الشيطان: هذا مال لا مالك له، وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين، أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك؟ فيغتر بهذا التلبيس في ثلاثة أمور

أحدها: في أنه مال لا مالك له، فإنه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد، والذين أخذ منهم أحياء، وأولادهم وورثتهم أحياء. وغاية الأمر وقوع الخلط في أموالهم. ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخلطها، فلا خلاف في أنه مال حرام. ولا يقال هو مال لا مالك له، ويجب أن يقسم بين العشرة، ويرد إلى كل واحد عشرة، وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر

الثاني: في قوله. إنك من مصالح المسلمين، وبك قوام الدين، ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين، ورغبوا في طلب الدنيا، والإقبال على الرياسة، والإعراض عن الآخرة بسببه، أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوها، وأقبلوا على الله. فهو على التحقيق دجال الدين، وقوام مذهب الشياطين لا إمام الدين إذ الإمام هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الدنيا، والإقبال على الله، كالأنبياء عليهم السلام، والصحابة، وعلماء السلف. والدجال هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الله، والإقبال على الدنيا. فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته. وهو يزعم أنه قوام الدين. ومثله كما قال المسيح عليه السلام للعالم السوء. إنه كصخرة وقعت في فم الوادي، فلا هي تشرب الماء، ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع. وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر، وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير

وفرقة أخرى. أحكموا العلم، وطهروا الجوارح، وزينوها بالطاعات، واجتنبوا ظواهر المعاصي، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب، من الرياء، والحسد، والحقد،

والكبر ، وطلب العلو ، وجاهدوا أنفسهم فى التبرى منها ، وقلعوا من القلوب منابتها الجلية القوية ، ولكنهم بعد مغرورون ، إذ بقيت فى زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس ، مادك وغمض مدركه ، فلم يفطنوا لها وأهملوها . وإنما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش ، فدار عليه ، وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه ، إلا أنه لم يفتش على مالم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض ، وظن أن الكل قد ظهر وبرز ، وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف ، فانبسطت تحت التراب ، فأهملها وهو يظن أنه قد قلعها ، فإذا هو بها فى غفلته وقد نبتت وقويت ، وأفسدت أصول الزرع من حيث لايدرى . فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ، ويذهل عن المراقبة للخفايا، والتفقد للدفائن فتراه يسهر ليله ونهاره فى جمع العلوم وترتيبها ، وتحسين ألفاظها ، وجمع التصانيف فيها وهو يرى أن باعثه الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته ، ولعل باعثه الخفى هو طلب الذكر وانتشار الصيت فى الأطراف ، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق ، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء ، والمدح بالزهد والورع والعلم ، والتقديم له فى المهمات ، وإيثاره فى الأغراض ، والاجتماع حوله للاستفادة ، والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد ، والتمتع بتحريك الرءوس إلى كلامه ، والبكاء عليه ، والتعجب منه ، والفرح بكثرة الأصحاب ، والأتباع ، والمستفيدين ، والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم ، والورع ، وظاهر الزهد ، والتمكن به من إطلاق لسان الطعن فى الكافة المقبلين على الدنيا ، لا عن تفجع بعصيبة الدين، ولكن عن إدلال بالتمييز، واعتداد بالتخصيص

ولعل هذا المسكين المغرور ، حياته فى الباطن بما انتظم له من أمر ، وإمارة ، وعز ، وانقياد ، وتوقير ، وحسن ثناء ، فلو تغيرت عليه القلوب، واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله ، فعساه يتشوش عليه قلبه ، وتختلط أوراده ووظائفه ، وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه ، وربما يحتاج إلى أن يكذب فى تغطية عيبه ، وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع ، وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره . وينبو قلبه عمن عرف حد فضله وورعه ، وإن كان ذلك على وفق حاله . وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض، وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه فى الفضل والورع . وإنما ذلك لأنه أطوع له ، وأتبع لمراده ، وأكثر

ثناء عليه ، وأشد إصغاء إليه ، وأحرص على خدمته . ولعلهم يستفيدون منه ، ويرغبون فى العلم ، وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه ، وقيامه بحق علمه ، فيحمد الله تعالى على مايسّر على لسانه من منافع خلقه ، ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ، ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه ، وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب فى إيثاره الخمول ، والعزلة ، وإخفاء العلم لم يرغب فيه ، لفقده فى العزلة ، ولاختفاء لذة القبول وعزة الرياسة

ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان : من زعم من بنى آدم أنه بعلمه امتنع منى ؛ فبجهله وقع فى حبائلى . وعساه يصنف ويجتهد فيه ، ظانا أنه يجمع علم الله لينتفع به ، وإنما يريد به استطارة اسمه بحسن التصنيف . فلو ادعى مدع تصنيفه ، ومحا عنه اسمه ، ونسبه إلى نفسه ، ثقل عليه ذلك ، مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف ، والله يعلم بأنه هو المصنف لامن ادعاه . ولعله فى تصنيفه لايخلو من الثناء على نفسه إما صريحا بالدعاوى الطويلة العريضة ، وإما ضمنا بالطعن فى غيره ليستبين من طعنه فى غيره أنه أفضل ممن طعن فيه ، وأعظم منه علما . ولقد كان فى غنية عن الطعن فيه ولعله يحكى من الكلام المزيف مايزيد تزييفه ، فيعزيه إلى قائله ، وما يستحسنه فلعله لايعزيه إليه ليظن أنه من كلامه ، فينقله بعينه كالسارق له ، أو يغيره أدنى تغيير ، كالذى يسرق قميصا فيتخذه قباء حتى لايعرف أنه مسروق . ولعله يجتهد فى تزيين ألفاظه ، وتسجيعه وتحسين نظمه ، كيلا ينسب إلى الركاكة ، ويرى أن غرضه ترويج الحكمة وتحسينها وتزيينها ، ليكون أقرب إلى نفع الناس ، وعساه غافلا عما روى أن بعض الحكماء وضع ثلثمائة مصحف فى الحكمة ، فأوحى الله إلى نبى زمانه قل له قد ملأت الأرض نفاقا ، وإنى لاأقبل من نفاقك شيئا

ولعل جماعة من هذا الصنف من المغترين إذا اجتمعوا ، ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه ، فلو افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه ، نظر كل واحد إلى كثرة من يتبعه ، وأنه أكثر تبعا أو غيره ، فيفرح إن كان أتباعه أكثر ، وإن علم أن غيره أحق بكثرة الأتباع منه . ثم إذا تفرقوا واشتغلوا بالإفادة تغايروا وتحاسدوا

ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره ، ثقل على قلبه ، ووجد فى نفسه نفرة منه ، فبعد ذلك لايهتز باطنه لإكرامه ، ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر

من قبل ، ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى ، مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة ، ولعل التحيز منه إلى فئة أخرى كان أنفع له فى دينه، لآفة من الآفات كانت تلحقه فى هذه الفئة، وسلامته عنها فى تلك الفئة ، ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه

ولعل واحدا منهم إذا تحركت فيه مبادى الحسد لم يقدر على إظهاره ، فيتملل بالطعن فى دينه وفى ورعه ليحمل غضبه على ذلك ويقول : إنما غضبت لدين الله لا لنفسى. ومهما ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له ، وإن أثنى عليه ربما ساءه وكرهه. وربما قطب وجهه إذا ذكرت عيوبه ، يظهر أنه كاره لغيبة المسلمين ، وسر قلبه راض به ، ومريد له ، والله مطلع عليه فى ذلك

فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له إلا الأكياس ، ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ، ويسوءه ذلك ويكرهه ، ويحرص على إصلاحه . فإذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ومن سرته حسنته. وساءته سيئته ، فهو مرجو الحال ، وأمره أقرب من المغرور المزكى لنفسه ، الممتن على الله بعمله وعلمه ، الظان أنه من خيار خلقه ، فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال . هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ، ولكن قصروا فى العمل بالعلم . ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم وتركوا المهم وهم به مغترون . إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم ، وإما لاقتصارهم عليه

فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى فى الحكومات والخصومات ، وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد ، وخصصوا اسم الفقه بها ، وسموه الفقه وعلم المذهب ، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة ، فلم يتفقدوا الجوارح ، ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة ، ولا البطن عن الحرام ، ولا الرِّجْلَ عن المشى إلى السلاطين ، وكذا سائر الجوارح . ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر ، والحسد ، والرياء وسائر المهلكات فهؤلاء مغرورون من وجهين : أحدهما من حيث العمل ، والآخر من حيث العلم

أما العمل فقد ذكرنا وجه الغرور فيه ، وأن مثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء ، واشتغل بتكراره وتعليمه. لا بل مثالهم مثال من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك ، ومحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله ، فاشتغل بتعلم دواء

الاستحاضة ، وبتكرار ذلك ليلا ونهارا ، مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحاض ، ولكن يقول . ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألني عن ذلك . وذلك غاية الغرور. فكذلك المتفقه المسكين ، قد يسلط عليه حب الدنيا ، واتباع الشهوات ، والحسد ، والكبر ، والرياء ، وسائر المهلكات الباطنة ، وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلافى ، فيلقى الله وهو عليه غضبان ، فترك ذلك كله وأشتغل بعلم السلم ، والإجارة ، والظهار ، واللعان ، والجراحات ، والديات ، والدعاوى ، والبينات ، وبكتاب الحيض ، وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط فى عمره لنفسه ، وإذا احتاج غيره كان فى المفتين كثرة ، فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه ، والرياسة ، والمال ، وقد دهاه الشيطان وما يشعر ، إذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه ، وليس يدرى أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية : وهذا لو كانت نيته صحيحة كما قال ، وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى . فإنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه فى جوارحه وقلبه، فهذا غروره من حيث العمل

وأما غروره من حيث العلم ، فحيث اقتصر على علم الفتاوى ، وظن أنه علم الدين ، وترك علم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وربما طعن . فى المحدثين ، وقال إنهم نقلة أخبار ، وحملة أسفار لا يفقهون ، وترك أيضا علم تهذيب الأخلاق، وترك الفقه عن الله تعالى بإدراك جلاله وعظمته ، وهو العلم الذى يورث الخوف ، والهيبة، والخشوع، ويحمل على التقوى . فتراه آمنا من الله ، مغترا به ، متكلا على أنه لا بد وأن يرحمه ، فإنه قوام دينه وإنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام . فقد ترك العلوم التى هى أهم ، وهو غافل مغرور . وسبب غروره ما سمع فى الشرع من تعظيم الفقه ، ولم يدر أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله ، ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ، ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى ، إذ قال تعالى (فَلَوْلَا نفر مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ [1]) والذى يحصل به الإنذار غير هذا العلم . فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات ، وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات

(1) التوبة : ١٢٢

والمال فى طريق الله آلة ، والبدن مركب. وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق، وقطع عقبات القلب التى هي الصفات المذمومة ، فهى الحجاب بين العبد وبين الله تعالى . وإذا مات ملوثا بتلك الصفات كان محجوبا عن الله . فمثاله فى الاقتصار على علم الفقه ، مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ، ولا شك فى أنه لو لم يكن لتعطل الحج ، ولكن المقتصر عليه ليس من الحج فى شيء ، ولا بسبيله . وقد ذكرنا شرح ذلك فى كتاب العلم . ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات ، ولم يهمه إلا تعلم طريق المجادلة ، والإلزام ، وإفحام الخصوم ، ودفع الحق ، لأجل الغلبة والمباهاة ، فهو طول الليل والنهار فى التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب ، والتفقد لعيوب الأقران والتلقف لأنواع التسبيبات المؤذية ، وهؤلاء هم سباع الإنس ،طبعهم الإيذاء، وهمهم السفه ولا يقصدون العلم إلا لضرورة مايلزمهم لمباهاة الأقران ، فكل علم لايحتاجون إليه فى المباهاة كعلم القلب ، وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى ، بمحو الصفات المذمومة ،وتبديلها بالمحمودة ، فإنهم يستحقرونه ،ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ .وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة التى تجرى بين المتصارعين فى الجدل . وهؤلاء قد جمعوا ماجمعه الذين من قبلهم فى علم الفتاوى ، لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضا ؛ بل جميع دقائق الجدل فى الفقه بدعة لم يعرفها السلف . وأما أدلة الأحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفهم معانيهما . وأما حيل الجدل من الكسر ، والقلب ، وفساد الوضع والتركيب والتعدية ، فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام ، وإقامة سوق الجدل بها . فغرور هؤلاء أشد كثيرا وأقبح من غرور من قبلهم

وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة فى الأهواء ، والرد على المخالفين ، وتتبع مناقضاتهم ، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة ، واشتغلوا بتعلم الطرق فى مناظرة أولئك وإفحامهم ، وافترقوا فى ذلك فرقا كثيرة ، واعتقدوا أنه لايكون لعبد عمل إلا بإيمان ولا يصح إيمان إلا بأن يتعلم جدلهم ، وما سموه أدلة عقائدهم ، وظنوا أنه لا أحد أعرف

بالله وبصفاته منهم ، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ، ولم يتعلم علمهم . ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها . ثم هم فرقتان : ضالة ومحقة ،فالضالة هى التى تدعو إلى غير السنة ، والمحقة هى التى تدعو إلى السنة ، والغرور شامل لجميعهم . أما الضالة فلغفلتها عن ضلالها ، وظنها بنفسها النجاة . وهم فرق كثيرة ، يكفر بعضهم بعضا . وإنما أتيت من حيث إنها لم تتهم رأيها ، ولم تحكم أولا شروط الأدلة ومنهاجها ، فرأى أحدهم الشبهة دليلا ، والدليل شبهة

وأما الفرقة المحقة ، فإنما اغترارها من حيث إنها ظنت بالجدل أنه أهم الأمور ، وأفضل القربات فى دين الله ، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه مالم يفحص ويبحث ، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن ، أو ليس كامل الإيمان، ولا مقرب عند الله . فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها فى تعلم الجدل ، والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم ، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم ، حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة ، وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل ،ولكنه لالتذاذه بالغلبة ، والإفحام ، ولذة الرياسة ، وعز الإنتماء إلى الذب عن دين الله تعالى ، عميت بصيرته فلم يلتفت إلى القرن الأول . فإن النبى صلى الله عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق ، وأنهم قد أدركوا كثيرا من أهل البدع والهوى ، فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضا للخصومات والمجادلات ،وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم . بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة ، وتوسموا مخايل قبول ، فذكروا بقدر الحاجة مايدل الضال على ضلالته وإذا رأوا مصرا على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه ، وأبغضوه فى الله ، ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر . بل قالوا إن الحق هو الدعوة إلى السنة ، ومن السنة ترك الجدل فى الدعوة إلى السنة . إذ روى أبو إمامة الباهلى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [1] « مَاضَلَّ قَوْمٌ قَطُّ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ » [2] وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون ، فغضب عليهم حتى كأنه فقىء فى وجهه حب

(١) حديث ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه الأأوتوا الجدل: تقدم فى العلم وفى آفات اللسان

(٢) حديث خرج يوما على أصحابه وهم يجادلون ويختصمون فغضب حتى كأنه فقىء فى وجهه حب الرمان الحديث : تقدم

الرمان من الغضب ، فقال « أَلِهَذَا بُعِثْتُمْ أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ انْظُرُوا إِلَى مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا وَمَا نُهِيتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » فقد زجرهم عن ذلك ، وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال . ثم إنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث إلى كافة أهل الملل ، فلم يقعد معهم فى مجلس مجادلة لإلزام ، وإفحام ، وتحقيق حجة ودفع سؤال ، وإيراد إلزام . فما جادلهم إلا بتلاوة القرءان المنزل عليهم . ولم يزد فى المجادلة عليه لان ذلك يشوش القلب ، ويستخرج منها الإشكالات والشبه ثم لايقدر على محوها من قلوبهم . وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الأقيسة ، وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والإلزام . ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يغتروا بهذا ، وقالوا لو نجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم ، ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم ، وليس علينا فى المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود ، والنصارى ، وأهل الملل ، وماضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم ، فمالنا نضيع العمر ولا نصرفه إلى ماينفعنا فى يوم فقرنا وفاقتنا ؟ ولم نخوض فيما لانأمن على أنفسنا الخطأ فى تفاصيله ؟ ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته بجداله. بل يزيده التعصب والخصومة تشددا فى بدعته .فاشتغالى بمخاصمة نفسى ومجادلتها ، ومجاهدتها لتترك الدنيا للآخرة أولى . هذا لو كنت لم أنه عن الجدل والخصومة ، فكيف وقد نهيت عنه! وكيف أدعو إلى السنة بترك السنة ! فالأولى أن أتفقد نفسى ، وأنظر من صفاتها مايبغضه الله تعالى وما يحبه ، لأتنزه عما يبغضه وأتمسك بما يحبه

وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ والتذكير . وأعلاهم رتبة من يتكلم فى أخلاق النفس وصفات القلب ، من الخوف ، والرجاء ، والصبر ، والشكر ، والتوكل ، والزهد ، واليقين والإخلاص ، والصدق ونظائره ، وهم مغرورون ، يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ، ودعوا الخلق إليها ، فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات ، وهم منفكون عنها عند الله ، إلا عن قدر يسير لاينفك عنه عوام المسلمين . وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب ، ويظنون أنهم ماتبحروا فى علم المحبة إلا وهم محبون لله، وما قدروا على تحقيق دقائق الاخلاص إلا وهم مخلصون ، وما وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون . ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب ، والبعد ، وعلم السلوك

إلى الله ، وكيفية قطع المنازل فى طريق الله . فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى، ويرى أنه من الراجين وهو من المغترين المضيعين ، ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين ، ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من المتكلين على العز ، والجاه ،والمال ؛ والأسباب ، ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين .بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص فى الوصف ، ويصف الرياء ويذكره.وهو يرائى بذكره ، ليعتقد فيه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء ،ويصف الزهد فى الدنيا لشدة حرصه على الدنيا وقوة رغبته فيها .فهو يظهر الدعاء إلى الله وهو منه فار ، ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن ، ويذكر بالله تعالى وهو له ناس ، ويقرب إلى الله وهو منه متباعد ، ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص ، ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف ، ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصا ،لو منع عن مجلسه الذى يدعو الناس فيه إلى الله لضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق .ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه ، وصلحوا على يديه ، لمات غما وحسدا . ولو أثنى أحد من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه . فهؤلاء أعظم الناس غرة ، وأبعدهم عن التنبه والرجوع إلى السداد ، لأن المرغب فى الأخلاق المحمودة ، والمنفر عن المذمومة ،هو العلم بغوائلها وفوائدها ،.وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه ، وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به ، فبعد ذلك بماذا يعالج ،وكيف سبيل تخويفه؟وإنما المخوف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف

نعم .إن ظن نفسه أنه موصوف بهذه الصفات المحمودة ،يمكن أن يدل على طريق الامتحان والتجربة ، وهو أن يدعى مثلا حب الله ، فما الذى تركه من محاب نفسه لأجله ؟ ويدعى الخوف ، فما الذى امتنع منه بالخوف ؟ ويدعى الزهد ، فما الذى تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى ؟ ويدعى الأنس بالله ، فمتى طابت له الخلوة ؟ ومتى استوحش من مشاهدة الخلق لا بل يرى قلبه يمتلىء بالحلاوة إذا أحدق به المريدون . وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى، فهل رأيت محبا يستوحش من محبوبه ، ويستروح منه إلى غيره ؟

فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ، ويطالبونها بالحقيقة ، ولا يقنعون منها

بالتزويق ، بل بموثق من الله غليظ . والمغترون يحسنون بأنفسهم الظنون ، وإذا كشف الغطاء عنهم فى الآخرة يفتضحون ، بل يطرحون فى النار فتندلق أقتابهم ،فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى ، كما ورد به الخبر، لأنهم يأمرون بالخير ولا يأتونه، وينهون عن الشر ويأتونه

وإنما وقع الغرور لهؤلاء من حيث إنهم يصادفون فى قلوبهم شيئا ضعيفا من أصول هذه المعانى ، وهو حب الله ، والخوف منه ، والرضا بفعله ، ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية فى هذه المعانى ، فظنوا أنهم ماقدروا على وصف ذلك ، وما رزقهم الله علمه ، وما نفع الناس بكلامهم فيها ،إلا لاتصافهم بها . وذهب عليهم أن القبول للكلام ، والكلام للمعرفة ، وجريان اللسان والمعرفة للعلم ، وأن كل ذلك غير الاتصاف بالصفة . فلم يفارق آحاد المسلمين فى الاتصاف بصفة الحب والخوف ، بل فى القدرة على الوصف . بل ربما زاد أمنه ، وقل خوفه ، وظهر إلى الخلق ميله ، وضعف فى قلبه حب الله تعالى . وإنما مثاله مثال مريض يصف المرض ، ويصف دواءه بفصاحته ويصف الصحة والشفاء ،وغيره من المرضى لايقدر على وصف الصحة والشفاء ، وأسبابه ودرجاته وأصنافه ، فهو لايفارقهم فى صفة المرض والاتصاف به ، وإنما يفارقهم فى الوصف والعلم بالطب فظنه عند علمه بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجهل . فكذلك العلم بالخوف ، والحب ، والتوكل ، والزهد ، وسائر هذه الصفات ، غير الاتصاف بحقائقها . ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور . فهذه حالة الوعاظ الذين لاعيب فى كلامهم ، بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرءان والأخبار ، ووعظ الحسن البصرى وأمثاله رحمة الله عليهم

وفرقة أخرى منهم عدلوا عن المنهاج الواجب فى الوعظ ، وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة ، إلا من عصمه الله على الندور فى بعض أطراف البلاد إن كان ، ولسنا نعرفه ،فاشتغلوا بالطامات والشطح ، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل ، طلباً للإغراب

وطائفة شغفوا بطيارات النكت ، وتسجيع الألفاظ وتلفيقها ، فأكثر همهم بالإسجاع ، والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن تكثر فى مجالسهم الزعقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة . فهؤلاء شياطين الإنس ، ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل . فإن الأولين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم . وأما هؤلاء

فإنهم يصدون عن سبيل الله ، ويجرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء ، فيزيدهم كلامهم جراءة على المعاصي ، ورغبة في الدنيا ، لاسيا إذا كان الواعظ متزينا بالثياب ، والخيل ، والمراكب ، فإنه تشهد هيئته من فرقه إلى قدمه بشدة حرصه على الدنيا ، فما يفسده هذا المغرور أكثر مما يصلحه، بل لا يصلح أصلا، ويضل خلقا كثيرا . ولا يخفى وجه كونه مغرورا

وفرقة أخرى منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا ، فهم يحفظون الكلمات على وجهها ، ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها . فبعضهم يفعل ذلك على المنابر ، وبعضهم في المحاريب ، وبعضهم في الأسواق مع الجلساء . وكل منهم يظن أنه إذا تميز بهذا القدر عن السوقة والجندية ،إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم ، فقد أفلح ونال الغرض وصار مغفورا له ، وأمن عقاب الله ، من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام ، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه . وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم .

وفرقة أخرى . استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث ، أعنى في سماعه ، وجمع الروايات الكثيرة منه، وطلب الأسانيد الغريبة العالية. فهمة أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول أنا أروى عن فلان، ولقد رأيت فلانا ،ومعي من الأسناد ما ليس مع غيرى وغرورهم من وجوه

منها أنهم كحملة الأسفار ، فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنة ، فعلمهم قاصر وليس معهم إلا النقل ، ويظنون أن ذلك يكفيهم . ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها لا يعملون بها ، وقد يفهمون بعضها أيضا ولا يعملون به

ومنها أنهم يتركون العلم الذى هو فرض عين ، وهو معرفة علاج القلب ، ويشتغلون بتكثير الأسانيد ، وطلب العالى منها ، ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك

ومنها وهو الذى أكب عليه أهل الزمان ، أنهم أيضا لا يقيمون بشرط السماع ، فإن السماع بمجرده وإن لم تكن له فائدة ، ولكنه مهم في نفسه للوصول إلى إثبات الحديث ، إذ التفهم بعد الإثبات ، والعمل بعد التفهم . فالأول السماع ، ثم التفهم ، ثم الحفظ، ثم العمل ، ثم النشر . وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ، ثم تركوا حقيقة السماع ، فترى الصبي يحضر في مجلس الشيخ ، والحديث يقرأ ، والشيخ ينام والصبي يلعب ، ثم يكتب اسم الصبي في السماع ، فإذا كبر تصدى ليسمع منه . والبالغ الذى يحضر ربما يغفل ولا يسمع ،

ولا يصغى، ولا يضبط، وربما يشتغل بحديث أو نسخ . والشيخ الذى يقرأ عليه لو صحف وغيّر مايقرأ عليه لم يشعر به ، ولم يعرفه وكل ذلك جهل وغرور إذ الأصل فى الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيحفظه كما سمعه ، ويرويه كما حفظه. فتكون الرواية عن الحفظ ، والحفظ عن السماع ، فإن عجزت عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعته من الصحابة أو التابعين ، وصار سماعك عن الراوى كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أن تصغى لتسمع . فتحفظ وتروى كما حفظت ، وتحفظ كما سمعت بحيث لاتغير منه حرفا . ولو غير غيرك منه حرفا وأخطأ علمت خطأه

ولحفظك طريقان : أحدهما أن تحفظ بالقلب ، وتستديمه بالذكر والتكرار ، كما تحفظ ماجرى على سمعك فى مجارى الأحوال . والثانى أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه ، حتى لاتصل إليه يد من يغيره ، ويكون حفظك للكتاب معك وفى خزانتك فإنه لو امتدت إليه يد غيرك ربما غيره . فإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره . فيكون محفوظا بقلبك أو بكتابك ، فيكون كتابك مذكرا لما سمعته ، وتأمن فيه من التغيير والتحريف . فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب ، وجرى على سمعك صوت غفل ، وفارقت المجلس، ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ ، وجوزت أن يكون مافيه مغيرا ، أو يفارق حرف منه للنسخة التي سمعتها لم يجز لك أن تقول سمعت هذا الكتاب . فإنك لاتدرى لعلك لم تسمع مافيه ، بل سمعت شيئا يخالف مافيه ولو فى كلمة . فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك ، ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها ، فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك ؟ وقد قال الله تعالى (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ[1]) وقول الشيوخ كلهم فى هذا الزمان: إنا سمعنا مافى هذا الكتاب، إذا لم يوجد الشرط الذى ذكرناه، فهو كذب صريح . وأقل شروط السماع أن يجرى الجميع على السمع، مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير . ولو جاز أن يكتب سماع الصبي، والغافل، والنائم، والذى ينسخ . لجاز أن يكتب سماع المجنون ، والصبي فى المهد . ثم إذا بلغ الصبي ، وأفاق المجنون ، يسمع عليه . ولا خلاف فى عدم جوازه . ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين فى البطن فإن كان لا يكتب سماع الصبي فى المهد ، لأنه لا يفهم ولا يحفظ ، فالصبي الذى يلعب ،

(١) الاسراء : ٣٦

والغافل، والمشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم ولا يحفظ . وإن استجرأ جاهل فقال يكتب سماع الصبي في المهد ، فليكتب سماع الجنين في البطن ؛ فإن فرق بينهما بأن الجنين لايسمع الصوت ، وهذا يسمع الصوت ، فما ينفع هذا وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت؟ فليقتصر إذ صار شيخا على أن يقول : سمعت بعد بلوغي أني في صباي حضرت مجلسا يروى فيه حديث، كان يقرع سمعي صوته ، ولاأدرى ماهو . فلا خلاف في أن الرواية كذلك لاتصح . وما زاد عليه فهو كذب صريح . ولو جاز إثبات سماع التركى الذى لايفهم العربية لأنه سمع صوتا غفلا ، لجاز إثبات سماع صبي في المهد ، وذلك غاية الجهل . ومن أين يؤخذ هذا ؟ وهل للسماع مستند إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا » وكيف يؤدى كما سمع من لايدرى ماسمع؟

فهذا أفحش أنواع الغرور . وقد بلى بهذا أهل الزمان . ولو احتاط أهل الزمان لم يجدوا شيوخا إلا الذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة . إلا أن للمحدثين في ذلك جاها وقبولا ، فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك ، فيقل من يجتمع لذلك في حلقهم ، فينقص جاههم ، وتقل أيضا أحاديثهم التي قد سمعوها بهذا الشرط ، بل ربما عدموا ذلك وافتضحوا فاصطلحوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه دمدمة ، وإن كان لايدرى مايجرى . وصحة السماع لانعرف من قول المحدثين ، لأنه ليس من علمهم ، بل من علم علماء الأصول بالفقه وماذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه . فهذا غرور هؤلاء . ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضا مغرورين في اقتصارهم على النقل ، وفي إفناء أعمارهم في جمع الروايات والأسانيد وإعراضهم عن مهمات الدين ، ومعرفة معانى الأخبار . بل الذى يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة ، ربما يكفيه الحديث الواحد عمره ، كما روى عن بعض الشيوخ أنه حضر

---

(١) حديث نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها ـ الحديث : أصحاب السنن وابن حبان من حديث زيد بن ثابت والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود قال الترمذي حديث حسن صحيح وابن ماجه فقط من حديث جبير بن مطعم وأنس

مجلس السماع ، فكان أول حديث روى قوله عليه الصلاة والسلام [1] « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالَا يَعْنِيهِ » فقام وقال : يكفينى هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره . فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الغرور .

وفرقه أخرى اشتغلوا بعلم النحو ، واللغة ، والشعر ، وغريب اللغة ، واغتروا به ، وزعموا أنهم قد غفر لهم ، وأنهم من علماء الأمة . إذ قوام الدين بالكتاب والسنة ، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو . فأفنى هؤلاء أعمارهم فى دقائق النحو ، وفى صناعة الشعر ، وفى غريب اللغة . ومثالهم كمن يفنى جميع العمر فى تعلم الخط ، وتصحيح الحروف وتحسينها ، ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة ، فلابد من تعلمها وتصحيحها . ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط ، بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان ، والباقى زيادة على الكفاية . وكذلك الأديب لو عقل لعرف أن لغة العرب كلغة الترك ، والمضيع عمره فى معرفة لغة العرب كالمضيع له فى معرفة لغة الترك والهند . وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها ، فيكفى من اللغة علم الغريبين فى الأحايث والكتاب ، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب . فأما التعمق فيه إلى درجات لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه . ثم لو اقتصر عليه ، وأعرض عن معرفة معانى الشريعة والعمل بها ، فهذا أيضا مغرور . بل مثاله مثال من ضيع عمره فى تصحيح مخارج الحروف فى القرءان ، واقتصر عليه ، وهو غرور ، إذ المقصود من الحروف المعانى ، وإنما الحروف ظروف وأدوات . ومن احتاج إلى أن يشرب السكنجبين ليزول ما به من الصفراء ، وضيع أوقاته فى تحسين القدح الذى يشرب فيه السكنجبين ، فهو من الجهال المغرورين . فكذلك غرور أهل النحو ، واللغة ، والأدب ، والقراآت ، والتدقيق فى مخارج الحروف ، منهما تعمقوا فيها ، وتجردوا لها ، وعرجوا عليها أكثر مما يحتاج إليه فى تعلم العلوم التى هى فرض عين . فاللب الأقصى هو العمل . والذى فوقه هو معرفة العمل ، وهو كالقشر للعمل ، وكاللب بالإضافة إلى مافوقه وما فوقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية . وهو قشر بطريق

---

(١) حديث من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه الترمذى : وقال غريب وابن ماجه من حديث أبى هريرة وهو عند مالك من رواية على بن الحسين مرسلا وقد تقدم

الإضافة إلى المعرفة ، ولب بالإضافة إلى مافوقه . وما فوقه هو العلم باللغة والنحو . وفوق ذلك وهو القشر الأعلى، العلم بمخارج الحروف. والقانعون بهذه الدرجات كلهم مغترون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل ، فلم يعرج عليها إلا بقدر حاجته ، فتجاوز إلى ماوراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل ، فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه ، ورجى عمره فى حمل النفس عليه ، وتصحيح الأعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات ، فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع ، وسائر العلوم خدم له ، ووسائل إليه ، وقشور له ، ومنازل بالإضافة إليه وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب ، سواء كان فى المنزل القريب أو فى المنزل البعيد

وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع، اغتر بها أربابها . فأما علم الطب، والحساب والصناعات ، وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع ، فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث إنها علوم فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع . لأن العلوم الشرعية مشتركة فى أنها محمودة ، كما يشارك القشر اللب فى كونه محمودا . ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى ، والثانى محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى : فمن اتخذ القشر مقصودا ، وعرج عليه ، فقد اغتر به . وفرقة أخرى :عظم غرورهم فى فن الفقه، فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه فى مجلس القضاء ، فوضعوا الحيل فى دفع الحقوق ،وأساؤا تأويل الألفاظ المبهمة ، واغتروا بالظواهر وأخطؤا فيها . وهذا من قبيل الخطأ فى الفتوى والغرور فيه . والخطأ فى الفتاوى مما يكثر ، ولكن هذا نوع عم الكافة إلا الأكياس منهم ، فنشير إلى أمثلة . فمن ذلك فتواهم بأن المرأة متى أبرأت من الصداق برىء الزوج بينه و بين الله تعالى . وذلك خطأ . بل الزوج قد يسىء إلى الزوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق ، فتضطر إلى طلب الخلاص ، فتبرىء الزوج لتتخلص منه ، فهو إبراء لاعلى طيبة نفس . وقدقال تعالى (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا [1])وطيبة النفس غير طيبة القلب . فقد يريد الإنسان بقلبه مالاتطيب به نفسه . فإنه يريد الحجامة بقلبه ، ولكن تكرهها نفسه . وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لاعن ضرورة تقابله ، حتى إذا رددت بين ضررين اختارت أهونهما . فهذه مصادرة على التحقيق بإكراه

(١) النساء : ٤

الباطن . نعم : القاضي في الدنيا لايطلع على القلوب والأغراض ، فينظر إلى الإبراء الظاهر وأنها لم تكره بسبب ظاهر . والإكراه الباطن ليس يطلع الخلق عليه ولكن مهما تصدى القاضي الأكبر في صعيد القيامة للقضاء ، لم يكن هذا محسوبا ولا مفيدا في تحصيل الإبراء

ولذلك لايحل أن يؤخذ مال إنسان إلا بطيب نفس منه . فلو طلب من الإنسان مالا على ملأ من الناس ، فاستحيا من الناس أن لايعطيه ، وكان يود أن يكون سؤاله في خلوة حتى لايعطيه ، ولكن خاف ألم مذمة الناس ، وخاف ألم تسليم المال ، وردد نفسه بينهما فاختار أهون الألمين وهو ألم التسليم فسلمه ، فلا فرق بين هذا وبين المصادرة . إذ معنى المصادرة إيلام البدن بالصوت ، حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال ، فيختار أهون الألمين . والسؤال في مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط . ولافرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى ، فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر . وإنما حاكم الدنيا هو الذي يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت ، لأنه لايمكنه الوقوف على مافي القلب

وكذلك من يعطى اتقاء لشر لسانه ، أو لشر سعايته ، فهو حرام عليه

وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام . ألاترى ماجاء في قصة داود عليه السلام حيث قال بعد أن غفر له : يارب ، كيف لي بخصمي فأمر بالاستحلال منه ، وكان ميتا ، فأمر بندائه في صخرة بيت المقدس ، فنادى ياأوريا ، فأجابه لبيك يانبي الله ، أخرجتني من الجنة ، فماذا تريد ؟ فقال إني أسأت إليك في أمر فهبه لي . قال قد فعلت ذلك يانبي الله . فانصرف وقد ركن إلى ذلك ، فقال له جبريل عليه السلام : هل ذكرت له مافعلت ؟ قال لا قال فارجع فبين له . فرجع فناداه فقال : لبيك يانبي الله ، فقال إني أذنبت إليك ذنبا ، قال ألم أهبه لك ؟ قال ألا تسألني ماذلك الذنب ؟ قال ماهو يانبي الله ؟ قال كذا وكذا ، وذكر شأن المرأة . فانقطع الجواب . فقال ياأوريا ، ألا تجيبني ؟ قال يانبي الله ماهكذا يفعل الأنبياء حتى أقف معك بين يدي الله . فاستقبل داود البكاء والصراخ من الرأس ، حتى وعده الله أن يستوهبه منه في الآخرة . فهذا ينبهك أن الهبة من غير طيبة قلب لاتفيد ، وأن طيبة القلب لاتحصل إلا بالمعرفة . فكذلك طيبة القلب لاتكون في الإبراء والهبة وغيرهما ، إلا إذا خلي الإنسان واختياره ، حتى تنبعث الدواعي من ذات نفسه ، لأن تضطر بواعثه

إلى الحركة بالحيل والإلزام . ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة فى آخر الحول من زوجته واتهابه مالها ، لإسقاط الزكاة . فالفقيه يقول سقطت الزكاة . فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساعى سقطت عنه ، فقد صدق . فإن مطمح نظرهم ظاهر الملك وقد زال . وإن ظن أنه يسلم فى القيامة، ويكون كمن لم يملك المال ، أو كمن باع لحاجته إلى المبيع لا على هذا القصد، فما أعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة ! فإن سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل ، فإن البخل مهلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ » وإنما صار شحه مطاعا بما فعله، وقبله لم يكن مطاعا ، فقد تم هلاكه بما يظن أن فيه خلاصه ، فإن الله مطلع على قلبه ، وحبه المال، وحرصه عليه ؛ وأنه بلغ من حرصه على المال أن استنبط الحيل ، حتى يسد على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور . ومن ذلك إباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر الحاجة . والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأمانى والفضول والشهوات، وبين الحاجات . بل كل ما لا تتم رعونتهم إلا به يرونه حاجة ، وهو محض الغرور . بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها فى العبادة ، وسلوك طريق الآخرة فكل ما تناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته. وما عدا ذلك، فهو فضوله وشهوته. ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء فى أمثال هذا لملأنا فيه مجلدات. والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب فإن ذلك يطول

الصنف الثانى : أرباب العبادة والعمل . والمغرورون منهم فرق كثيرة . فمنهم من غروره فى الصلاة، ومنهم من غروره فى تلاوة القرءان ، ومنهم فى الحج، ومنهم فى الغزو، ومنهم فى الزهد وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خاليا عن غرور إلا الأكياس وقليل ماهم

فنهم فرقة : أهملوا الفرائض ، واشتغلوا بالفضائل والنوافل ، وربما تعمقوا فى الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف ، كالذى تغلب عليه الوسوسة فى الوضوء فيبالغ فيه ، ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته فى فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة فى النجاسة، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة ، وربما أكل الحرام المحض . ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام ، لكان أشبه بسيرة الصحابة : إذ توضأ عمر رضى الله عنه عاء فى جرة نصرانية ، مع ظهور احتمال النجاسة . وكان مع هذا يدع

(١) حديث ثلاث مهلكات ـ الحديث : تقدم غير مرة.

أبوابا من الحلال ، مخافة من الوقوع فى الحرام . ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف فى صب الماء ، وذلك منهى عنه [1] وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها وإن لم يخرجها أيضا عن وقتها فهو مغرور ، لما فاته من فضيلة أوّل الوقت . وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه فى الماء . وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذى هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه ، إلا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطريق سنّى ، ولا يقدر على صد العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة ، فيبعدهم عن الله بمثل ذلك

وفرقة أخرى : غلب عليها الوسوسة فى نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل ، يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ، ويخرج الصلاة عن الوقت . وإن تم تكبيره فيكون فى قلبه بعد تردد فى صحة نيته ، وقد يوسوسون فى التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الإحتياط فيه . يفعلون ذلك فى أول الصلاة ، ثم يغفلون فى جميع الصلاة ، فلا يحضرون قلوبهم ، ويغترون بذلك ، ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم فى تصحيح النية فى أوّل الصلاة ، وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط ، فهم على خير عند ربهم

وفرقة أخرى: تغلب عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها ، فلا يزال يحتاط فى التشديدات ، والفرق بين الضاد والظاء ، وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته ، لايهمه غيره ، ولا يتفكر فيما سواه ، ذاهلا عن معنى القرءان والاتعاظ به ، وصرف الفهم إلى أسراره وهذا من أقبح أنواع الغرور . فإنه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرءان من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم فى الكلام ، ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان ، وأمر أن يؤديها على وجهها ، فأخذ يؤدى الرسالة ويتأنق فى مخارج الحروف ، ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى ، وهو فى ذلك غافل عن مقصود الرسالة ، ومراعاة حرمة المجلس ، فما أحراه بأن تقام عليه السياسة ، ويرد إلى دار المجانين ، ويحكم عليه بفقد العقل . وفرقة أخرى : اغتروا بقراءة القرءان فيهذونه هذّا ، وربما يختمونه فى اليوم والليلة مرة ، ولسان أحدهم يجرى به ، وقلبه يتردد فى أودية الأمانى إذ لا يتفكر فى معانى القرءان لينزجر بزواجره ، ويتعظ بمواعظه ، ويقف عند أوامره

---

(١) حديث النهى عن الاسراف فى الوضوء : الترمذى وضعفه وابن ماجه من حديث أبى بن كعب ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان ـ الحديث : وتقدم فى عجائب القلب

ونواهيه ، ويعتبر بمواضع الإعتبار فيه ، إلى غير ذلك مما ذكرناه فى كتاب تلاوة القرءان من مقاصد التلاوة . فهو مغرور ، يظن أن المقصود من إنزال القرءان الهمهمة به مع الغفلة عنه . ومثاله مثال عبد كتب إليه مولاه ومالكه كتابا ، وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهى ، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ولكن إقتصر على حفظه ، فهو مستمر على خلاف ماأمره به مولاه ، إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة . فهو مستحق للعقوبة . ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه ، فهو مغرور

نعم: تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى، بل لحفظه، وحفظه يراد لمعناه، ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به، ويغتر باستلذاذه، ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه ، وإنما هى لذته فى صوته . ولو ردد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به ، ذلك الإلتذاذ . فهو مغرور ، إذا لم يتفقد قلبه ، فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه ، أو بصوته . وفرقة أخرى . اغتروا بالصوم ، وربما صاموا الدهر ، أو صاموا الأيام الشريفة ، وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة. وخواطرهم عن الرياء، وبطونهم عن الحرام عند الإفطار، وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير، فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور

وفرقة أخرى: اغتروا بالحج ، فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون، واسترضاء الوالدين ، وطلب الزاد الحلال . وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ، ويضيعون فى الطريق الصلاة والفرائض ، ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن، ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم ، ولا يحذرون فى الطريق من الرفث والخصام . وربما جمع بعضهم الحرام وأنفقه على الرفقاء فى الطريق ، وهو يطلب به السمعة والرياء ، فيعصى الله تعالى فى كسب الحرام أولا ، وفى إنفاقه بالرياء ثانيا . فلا هو أخذه من حله ، ولا هو وضعه فى حقه. ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق، وذميم الصفات ، لم يقدم تطهيره على حضوره ، وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه ، فهو مغرور

وفرقة أخرى أخذت فى طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ينكر على الناس ، ويأمرهم بالخير ، وينسى نفسه . وإذا أمرهم بالخير عنف ، وطلب الرياسة والعزة .

وإذا باشر منكرا ورد عليه غضب وقال : أنا المحتسب ، فكيف تنكر على ! وقد يجمع الناس إلى مسجده ، ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه ، وإنما غرضه الرياء والرياسة ، ولو قام بتعهد المسجد غيره لحرد عليه . بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ، ولو جاء غيره وأذن فى وقت غيبته قامت عليه القيامة ، وقال لم آخذ حقى ، وزوحمت على مرتبتى . وكذلك قد يتقلد إمامة مسجد ، ويظن أنه على خير ، وإنما غرضه أن يقال إنه إمام المسجد ، فلو تقدم غيره وإن كان أورع وأعلم منه ثقل عليه .

وفرقة أخرى: جاوروا بمكة أو المدينة ، واغتروا بمكة ، ولم يراقبوا قلوبهم ، ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم ، فقلوبهم معلقة ببلادهم ، ملتفتة إلى قول من يعرفه إن فلانا مجاور بذلك وتراه يتحدث ويقول : قد جاورت بمكة كذا كذا سنة . وإذا سمع أن ذلك قبيح ، ترك صريح التحدى ، وأحب أن يعرفه الناس بذلك . ثم إنه قد يجاور ، ويمد عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس ، وإذا جمع من ذلك شيئا شح به وأمسكه ، ولم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير ، فيظهر فيه الرياء ، والبخل ، والطمع ، وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة . ولكن حب المحمدة ، وأن يقال إنه من المجاورين ، ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل . فهو أيضا مغرور . وما من عمل من الأعمال ، وعبادة من العبادات ، إلا وفيها آفات . فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها ، فهو مغرور . ولا يعرف شرح ذلك إلا من جملة كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف مداخل الغرور فى الصلاة من كتاب الصلاة ، وفى الحج من كتاب الحج ، والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التى رتبناها فيها وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ماسبق فى الكتب . وفرقة أخرى : زهدت فى المال ، وقنعت من اللباس والطعام بالدون ، ومن المسكن بالمساجد ، وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد . وهو مع ذلك راغب فى الرياسة والجاه ، إما بالعلم أو بالوعظ ، أو بمجرد الزهد ، فقد ترك أهون الأمرين ، وباء بأعظم المهلكين . فإن الجاه أعظم من المال ، ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب . فهذا مغرور ، إذ ظن أنه من الزهاد فى الدنيا ، وهو لم يفهم معنى الدنيا ، ولم يدر أن منتهى لذاتها الرياسة ، وأن الراغب فيها لابد وأن يكون منافقا ، وحسودا ، ومتكبرا ، ومرائيا ومتصفا بجميع خبائث الأخلاق . نعم : وقد يترك

الرياسة ، ويؤثر الخلوة والعزلة ، وهو مع ذلك مغرور ، إذ يتطاول بذلك على الأغنياء ، ويخشن معهم الكلام ، وينظر إليهم بعين الاستحقار ، ، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ، ويعجب بعمله ، ويتصف بجملة من خبائث القلوب وهو لايدرى . وربما يعطى المال فلايأخذه ، خيفة من أن يقال بطل زهده . ولو قيل له إنه حلال نخذه فى الظاهر ورده فى الخفية ، لم تسمح به نفسه ، خوفا من ذم الناس . فهو راغب فى حمد الناس ، وهو من ألذ أبواب الدنيا ، ويرى نفسه أنه زاهد فى الدنيا ، وهو مغرور . ومع ذلك فربما لايخلو من توقير الأغنياء ، وتقديمهم على الفقراء ، والميل إلى المريدين له ، والمثنين عليه ، والنفرة عن المائلين إلى غيره من الزهاد . وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان ، نعوذ بالله منه

وفى العباد من يشدّد على نفسه فى أعمال الجوارح ، حتى ربما يصلى فى اليوم والليلة مثلا ألف ركعة ، ويختم القرءان ، وهو فى جميع ذلك لايخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء ، والكبر ، والعجب ، وسائر المهلكات ، فلا يدرى أن ذلك مهلك وإن علم ذلك فلايظن بنفسه ذلك ، وإنظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر ، وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته ، وهيهات . وذرة من ذى تقوى ، وخلق واحد من أخلاق الأكياس ، أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح . ثم لايخلو هذا المغرور مع سوء خلقه مع الناس ؛ وخشونته ، وتلوث باطنه ، عن الرياء وحب الثناء . فإذا قيل له أنت من أوتاد الأرض ، وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور ، بذلك ، وصدق به ، وزاده ذلك غرورا ، وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله ، ولا يدرى أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه

وفرقة أخرى : حرصت على النوافل ، ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ، ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى ، وبصلاة الليل ، وأمثال هذه النوافل ، ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة بها فى أول الوقت وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه [1] « مَا تَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَىَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ » وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور . بل قد يتعين على الإنسان فرضان ، أحدهما يفوت والآخر لايفوت ،

---

(١) حديث ماتقرب المتقربون الى بمثل أداء ماافترضت عليهم : البخارى من حديث أبى هريرة بلفظ ماتقرب الى عبدى

أو فضلان ، أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته . فإن لم يحفظ الترتيب فيه،كان مغرورا ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى . فإن المعصية ظاهرة ، والطاعة ظاهرة . وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض كلها على النوافل،وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفايات ، وتقديم فرض كفاية لاقائم به على ماقام به غيره ، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على مادونه ، وتقديم مايفوت على مالا يفوت . وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد ، إذ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] فقيل له:من أبر يارسول الله؟ قال « أمَّكَ » قال ثم من ؟ قال «أمَّكَ» قال ثم من؟قال « أمَّكَ » قال ثم من ؟ قال « أبَاكَ » قال ثم من ؟ قال « أدْنَاكَ فَأدْنَاكَ » فينبغى أن يبدأ فى الصلة بالأقرب. فإن استويا فبالأحوج ، فإن استويا فبالأتقى والأورع

وكذلك من لايفى ماله بنفقة الوالدين والحج ، فربما يحج وهو مغرور . بل ينبغى أن يقدم حقهما على الحج . وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه

وكذلك إذا كان على العبد ميعاد، ودخل وقت الجمعة ، فالجمعة تفوت ، والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية، وإن كان هو طاعة فى نفسه : وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة ، فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك ، فالنجاسة محذورة ، وإيذاؤهما محذور ، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة

وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لاتنحصر . ومن ترك الترتيب فى جميع ذلك فهو مغرور . وهذا غرور فى غاية الغموض ، لأن المغرور فيه فى طاعة ،إلا أنه لايفطن لصيرورة الطاعة معصية ، حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها

ومن جملته الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه ،في حق من بقى عليه شغل من الطاعات والمعاصى الظاهرة والباطنة ، المتعلقة بالجوارح ، والمتعلقة بالقلب ، لأن مقصود الفقه معرفة مايحتاج إليه غيره فى حوائجه ، فمعرفة مايحتاج هو إليه فى قلبه أولى به . إلا أن حب الرياسة

---

(١) حديث من أبر قال أمك ــ الحديث : الترمذى والحاكم وصححه من حديث زيد بن حكيم عن أبيه عن جده وقد تقدم فى آداب الصحبة

والجاه ، ولذة المباهاة وقهر الأقران والتقدم عليهم ، يعمى عليه ، حتى يغـتر به مع نفسه ، ويظن أنه مشغول بهمّ دينه

الصنف الثالث :المتصوفة . وما أغلب الغرور عليهم ! والمغترون منهم فرق كثيرة

ففرقة منهم وهم متصوفة أهل الزمان إلاّ من عصمه الله ، اغتروا بالزى والهيئة والمنطق فساعدوا الصادقين من الصوفية فى زيهم وهيئتهم ، وفى ألفاظهم ، وفى آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم ، وفى أحوالهم الظاهرة فى السماع ، والرقص ، والطهاره ، والصلاة ، والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس ، وإدخاله فى الجيب كالمتفكر ، وفى تنفس الصعداء ، وفى خفض الصوت فى الحديث إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات ، فلما تكلفوا هذه الأمور ، وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط فى المجاهـدة ، والرياضة ، ومراقبة القلب ، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية ، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف . ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم فى الصوفية . كيف ولم يحوموا قط حولها ، ولم يسوموا أنفسهم شيئا منها ، بل يتكالبون على الحرام ، والشبهات وأموال السلاطين ، ويتنافسون فى الرغيف والفلس ، والحبة ، ويتحاسدون على النقـير والقطمير ، ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه فى شيء من غرضه ، وهؤلاء غرورهم ظاهر . ومثالهم مثال امرأة عجوز ، سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين ثبتت أسماؤهم فى الديوان ، ويقطع لـكل واحد منهم قطر من أقطار المملـكة ، فتاقت نفسها إلى أن يقطع لها مملـكة ، فلبست درعا ، ووضعت على رأسها مغفرا ، وتعلمت من رجز الأبطال أبياتا وتعودت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها ، وتعلمت كيفية تبخترهم فى الميدان وكيف تحريكهم الأيدى ، وتلقفت جميع شمائلهم فى الزى ، والمنطق ، والحركات ، والسكنات ثم توجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها فى ديوان الشجعان . فلما وصلت إلى المعسكر أنفذت إلى ديوان العرض ، وأمر بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر ما تحته ، وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ، ليعرف قدر عنائها فى الشجاعة . فلما جردت عن المغفر والدرع ، فإذا هى عجوزة ضعيفة زمنة ، لا تطيق حمل الدرع والمغفر ، فقيل لهـا : أجئت للاستهزاء بالملك ، وللاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم ؟ خذوها فألقوها قدام الفيل لسخفها . فألقيت

إلى الفيل . فهكذا يكون حال المدعين للتصوف فى القيامة ، إذا كشف عنهم الغطاء ، وعرضوا على القاضى الأكبر ، الذى لا ينظر إلى الزى والمرقع ، بل إلى سر القلب

وفرقة أخرى زادت على هؤلاء فى الغرور ، إذ شق عليها الاقتداء بهم فى بذاذة الثياب ، والرضا بالدون ، فأرادت أن تتظاهر بالتصوف ، ولم تجد بدا من التزين بزيهم ، فتركوا الحرير والإبريسم ، وطلبوا المرقعات النفيسة ، والفوط الرقيقة ، والسجادات المصبغة ، ولبسوا من الثياب ماهو أرفع قيمة من الحرير والإبريسم ، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوف بمجرد لون الثوب وكونه مرقعا ، ونسى أنهم إنما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة لإزالة الوسخ ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم مخرقة فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد . فأما تقطيع الفوط الرقيقه قطعة قطعة ، وخياطة المرقعات منها ، فمن أين يشبه مااعتادوه ؟ فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين ، فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة ويطلبون رغد العيش ؛ ويأكلون أموال السلاطين ، ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلا عن الباطنة ، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير . وشر هؤلاء مما يتعدى إلى الخلق ، إذ يهلك من يقتدى بهم ، ومن لا يقتدى بهم تفسد عقيدته فى أهل التصوف كافة ، ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه ، فيطول اللسان فى الصادقين منهم ، وكل ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم

وفرقة أخرى ادعت علم المعرفة ، ومشاهدة الحق ، ومجاوزة المقامات والأحوال ؛ والملازمة فى عين الشهود ، والوصول إلى القرب ، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامى والألفاظ ، لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ، ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء ، والمفسرين ، والمحدثين ، وأصناف العلماء بعين الإزراء فضلا عن العوام ، حتى أن الفلاح ليترك فلاحته ، والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياما معدودة ، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة ، فيرددها كأنه يتكلم عن الوحى ، ويخبر عن سر الأسرار ، ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء ، فيقول فى العباد إنهم أجراء متعبون ويقول فى العلماء إنهم بالحديث عن الله محجوبون ، ويدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق ، وأنه من المقربين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى

الجاهلين ، لم يحكم قط علما ، ولم يهذب خلقا ، ولم يرتب عملا ، ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه

وفرقة أخرى وقعت فى الإباحة ، وطووا بساط الشرع ، ورفضوا الأحكام ، وسووا بين الحلال والحرام . فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملى ، فلم أتعب نفسى ؟ وبعضهم يقول قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا ، وذلك محال ، فقد كلفوا مالا يمكن ، وإنما يغتر به من لم يجرب ، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما ، بل إنما كلفوا قلع مادتهما ، بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع . وبعضهم يقول : الأعمال بالجوارح لاوزن لها ، وإنما النظر إلى القلوب ، وقلوبنا والهة بحب الله ، وواصلة إلى معرفة الله ، وإنما نخوض فى الدنيا بأبداننا ، وقلوبنا عاكفة فى الحضرة الربوبية ، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب . ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام ، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية ، وأن الشهوات لاتصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها ، ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم السلام ، إذ كانت تصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة ، حتى كانوا يبكون عليها وينوحون سنين متوالية . وأصناف غرور أهل الاباحة من المتشبهين بالصوفية لاتحصى . وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ، ومن غير اقتداء بشيخ متقن فى الدين والعلم صالح للاقتداء به ، وإحصاء أصنافهم يطول . وفرقة أخرى جاوزت حد هؤلاء ، واجتنبت الأعمال ، وطلبت الحلال ، واشتغلت بتفقد القلب ، وصار أحدهم يدعى المقامات من الزهد والتوكل ، والرضا ، والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات ، وشروطها وعلاماتها ، وآفاتها . فنهم من يدعى الوجد والحب لله تعالى ، ويزعم أنه واله بالله ، ولعله قد تخيل فى الله خيالات هى بدعة أو كفر ، فيدعى حب الله قبل معرفته ، ثم إنه لايخلو عن مقارفة مايكره الله عز وجل ، وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله ، وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى ، وليس يدرى أن كل ذلك يناقض الحب

وبعضهم ربما يميل إلى القناعة والتوكل ، فيخوض البوادى من غير زاد ليصحح دعوى

التوكل ، وليس يدرى أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة ،وقد كانوا أعرف بالتوكل منه ، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد ، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد . وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب، واثق به . وما من مقام من المقامات المنجيات إلا وفيه غرور ، وقد اغتر به قوم . وقد ذكرنا مداخل الآفات فى ربع المنجيات من الكتاب ، فلا يمكن إعادتها

وفرقة أخرى ضيقت على نفسها فى أمر القوت، حتى طلبت منه الحلال الخالص ،وأهملوا تفقد القلب والجوارح فى غير هذه الخصلة الواحدة . ومنهم من أهمل الحلال فى مطعمه، وملبسه، ومسكنه ، وأخذ يتعمق فى غير ذلك ، وليس يدرى المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبده بطلب الحلال فقط، ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال ، بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصى . فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه وينجيه فهو مغرور

وفرقة أخرى ادعوا حسن الخلق ، والتواضع ، والسماحة ، فتصدوا لخدمة الصوفيه ، فجمعوا قوما وتكلفوا بخدمتهم، واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال .وإنما غرضهم التكبر، وهم يظهرون الخدمة والتواضع .وغرضهم الارتفاع ،وهم يظهرون أن غرضهم الإرفاق وغرضهم الاستتباع ، وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية . ثم إنهم يجمعون من الحرام والشبهات، وينفقون عليهم ،لتكثر أتباعهم ، وينتشر بالخدمة اسمهم . وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم وبعضهم يأخذها لينفق فى طريق الحج على الصوفية،ويزعم أن غرضه البر والإنفاق. وباعث جميعهم الرياء والسمعة . وآية ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهرا وباطنا، ورضاهم بأخذ الحرام والإنفاق منه . ومثال من ينفق الحرام فى طريق الحج لإرادة الخير، كمن يعمر مساجد الله فيطينها بالعذرة ، ويزعم أن قصده العمارة

وفرقة أخرى اشتغلوا بالمجاهدة ، وتهذيب الأخلاق ، وتطهير النفس من عيوبها ، وصاروا يتعمقون فيها ، فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرفة ،فهم فى جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس ، واستنباط دقيق الكلام فى آفاتها فيقولون هذا فى النفس عيب ، والغفلة عن كونه عيبا عيب ، والإلتفات إلى كونه عيبا عيب ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الأوقات فى تلفيقها . ومن جعل طول عمره فى التفتيش

عن عيوب وتحرير علم علاجها ، كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج ، فذلك لا يغنيه . وفرقة أخرى جاوزوا هذه الرتبة . وابتدءوا سلوك الطريق ، وانفتح لهم أبواب المعرفة ، فكلما تشمموا من مبادى المعرفة رائحة تعجبوا منها ، وفرحوا بها ، وأعجبتهم غرابتها ، فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها ، والتفكر فيها وفى كيفية انفتاح بابها عليهم ، وانسداده على غيرهم ، وكل ذلك غرور ، لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية . فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها ، قصرت خطاه ، وحرم الوصول إلى المقصد وكان مثاله مثال من قصد ملكا ، فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار ، لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها ، فوقف ينظر إليها ويتعجب حتى فاته الوقت الذى يمكن فيه لقاء الملك

وفرقة أخرى جاوزوا هؤلاء ، ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار فى الطريق ، ولا إلى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ، ولم يعرجوا على الفرح بها ، والالتفات إليها ، جادين فى السير حتى قاربوا ، فوصلوا إلى حد القربة إلى الله تعالى ، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله ، فوقفوا وغلطوا ، فإن لله تعالى سبعين حجابا من نور ، لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب فى الطريق إلا ويظن أنه قد وصل . وإليه الإشارة بقول ابراهيم عليه السلام ، إذ قال الله تعالى إخبارا عنه (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي [1]) وليس المعنى به هذه الأجسام المضيئة ، فإنه كان يراها فى الصغر ، ويعلم أنها ليست آلهة ، وهى كثيرة وليست واحدا . والجهال يعلمون أن الكوكب ليس بإله . فمثل ابراهيم عليه السلام لا يغره الكوكب الذى لا يغر السوادية . ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التى هى من حجب الله عز وجل ، وهى على طريق السالكين . ولا يتصور الوصول إلى الله تعالى إلا بالوصول إلى هذه الحجب ، وهى حجب من نور بعضها أكبر من بعض ، وأصغر النيرات الكوكب ، فاستعير له لفظه ، وأعظمها الشمس ، وبينهما رتبة القمر . فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات ، حيث قال تعالى (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [2]) يصل إلى نور بعد نور ، ويتخيل إليه فى أول ما كان يلقاه أنه قد وصل ، ثم كان يكشف له أن وراءه أمرا ، فيترقى إليه ويقول قد وصلت ، فيكشف له ما وراءه

---

(١) الأنعام : ٧٦ (٢) الأنعام : ٧٥ .

حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذى لاوصول إلا بعده ، فقال هذا أكبر . فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوى فى حضيض النقص ، والانحطاط عن ذروة الكمال قال لاأحب الآفلين ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض

وسالك هذه الطريق قد يغتر فى الوقوف على بعض هذه الحجب ، وقد يغتر بالحجاب الأول وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه . فإنه أيضا أمر ربانى ، وهو نور من أنوار الله تعالى ، أعنى سر القلب الذى تتجلى فيه حقيقة الحق كله ، حتى أنه ليتسع لجملة العالم ويحيط به ، وتنجلى فيه صورة الكل . وعند ذلك يشرق نوره إشراقا عظيما ، إذ يظهر فيه الوجود كله على ماهو عليه ، وهو فى أول الأمر محجوب بمشكاة هى كالساتر له ، فإذا تجلى نوره ، وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ، وربما التفت صاحب القلب إلى القلب ، فيرى من جماله الفائق مايدهشه ، وربما يسبق لسانه فى هذه الدهشة فيقول : أنا الحق . فإن لم يتضح له ماوراء ذلك اغتر به ، ووقف عليه وهلك ، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ، ولم يصل بعد إلى القمر فضلا عن الشمس . فهو مغرور . وهذا محل الالتباس . إذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه ، كما يلتبس لون مايتراءى فى المرآة بالمرآة فيظن أنه لون المرآة ، وكما يلتبس مافى الزجاج بالزجاج ، كما قيل

رق الزجاج ورقت الخمر … فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح … وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح ، فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه ؛ فغلطوا فيه ، كمن يرى كوكبا فى مرآة أو فى ماء ، فيظن أن الكوكب فى المرآة أو فى الماء ، فيمد يده إليه ليأخذه وهو مغرور

وأنواع الغرور فى طريق السلوك إلى الله تعالى لاتحصى فى مجلدات ، ولاتستقصى إلا بعد شرح جميع علوم المكاشفة ، وذلك ممالارخصة فى ذكره . ولعل القدر الذى ذكرناه أيضا كان الأولى تركه ، إذ السالك لهذا الطريق لايحتاج إلى أن يسمعه من غيره ، والذى لم يسلكه لاينتفع بسماعه ، بل ربما يستضر به ، إذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع مالا يفهم . ولكن فيه فائدة وهو إخراجه من الغرور الذى هو فيه . بل ربما يصدق بأن الأمر أعظم مما يظنه ومما يتخيله

بذهنه المختصر ،وخياله القاصر، وجدله المزخرف ،ويصدق أيضا بما يحكى له من المكاشفات التى أخبر عنها أولياء الله. ومن عظم غروره ربما أصر مكذبا بما يسمعه الآن، كما يكذب بما سمعه من قبل

الصنف الرابع أرباب الأموال . والمغترون منهم فرق

ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد ،والمدارس،والرباطات،والقناطر،ومايظهر للناس كافة ، ويكتبون أساميهم بالآجر عليها ، ليتخلد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم . وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك ، وقد اغتروا فيه من وجهين :

أحدهما :أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم ، والنهب ،والرشا ، والجهات المحظورة ، فهم قد تعرضوا لسخط الله فى كسبها ، وتعرضوا لسخطه فى إنفاقها ، وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها . فإذاً قد عصوا الله بكسبها ، فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله ، وردها إلى ملاكها ، إما بأعيانها وإما برد بدلها عند العجز . فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها إلى الورثة ، فإن لم يبق للمظلوم وارث ، فالواجب صرفها إلى أهم المصالح ،وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين ، وهم لا يفعلون ذلك ، خيفة من أن يظهر ذلك للناس . فيبنون الأبنية بالآجر ، وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء ، وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها ، لا لبقاء الخير

والوجه الثانى : أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير فى الإنفاق على الأبنية ، ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا ولا يكتب اسمه على الموضع الذى أنفق عليه ، لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه ، والله مطلع عليه ، كتب اسمه أو لم يكتب . ولولا أنه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتقر إلى ذلك

وفرقة أخرى ربما اكتسبت المال من الحلال ، وأنفقت على المساجد . وهى أيضا مغرورة من وجهين . أحدهما : الرياء وطلب الثناء ، فإنه ربما يكون فى جواره أو بلده فقراء ، وصرف المال إليهم أهم ، وأفضل،وأولى،من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها وإنما يخف عليهم الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس

والثانى أنه يصرف إلى [1] زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش ، التى هى منهى عنها ،

---

(١) حديث النهى عن زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش : البخارى من قول عمر بن الخطاب أكن الناس ولا تحمر ولا تصفر

وشاغلة قلوب المصلين، ومختطفة أبصارهم ، والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب ، وذلك يفسد قلوب المصلين، ويحبط ثوابهم بذلك ، ووبال ذلك كله يرجع إليه ، وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات ،ويعد ذلك وسيلة إلى الله تعالى ، وهو مع ذلك قد تعرض لسخط الله تعالى،وهو يظن أنه مطيع له،وممتثل لأمره،وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد ، وربما شوقهم به إلى زخارف الدنيا ،فيشتهون مثل ذلك فى بيوتهم ، ويشتغلون بطلبه ووبال ذلك كله فى رقبته ، إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى .

قال مالك بن دينار : أتى رجلان مسجدا فوقف أحدهما على الباب وقال: مثلى لا يدخل بيت الله . فكتبه الملكان عند الله صديقا . فهكذا ينبغى أن تعظم المساجد . وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منة على الله تعالى . وقال الحواريون للمسيح عليه السلام : أنظر إلى هذا المسجد ماأحسنه ! فقال أمتى أمتى ، بحق أقول لكم ، لايترك الله من هذا المسجد حجرا قائما على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله . إن الله لا يعبأ بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التى تعجبكم شيئا . وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة ، بها يعمر الله الأرض ، وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك

وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « إِذَا زَخْرَفْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ وَحَلَّيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ فَالدَّمَارُ عَلَيْكُمْ » وقال الحسن : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) لما أراد أن يبنى مسجد المدينة ، أتاه جبريل عليه السلام ، فقال له ابنه سبعة أذرع طولا فى السماء ، لا تزخرفه ولا تنقشه . فغرور هذا من حيث إنه رأى المنكر معروفا واتكل عليه

وفرقة أخرى ينفقون الأموال فى الصدقات على الفقراء والمساكين، ويطلبون به المحافل الجامعة ، ومن الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف ، ويكرهون التصدق فى السر

---

(٢) حديث اذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم: ابن المبارك فى الزهد وأبو بكر بن أبى داود فى كتاب المصاحف موقوفا على أبى الدرداء

(٣) حديث الحسن مرسلا لما أراد أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل فقال ابنه سبعة أذرع طولا فى السماء ولا تزخرفه ولا تنقشه : لم أجده

ويرون إخفاء الفقير لما يأخذه منهم جناية عليهم وكفرانا . وربما يحرصون على إنفاق المال في الحج ، فيحجون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا جيرانهم جياعا . ولذلك قال ابن مسعود : في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب ، يهون عليهم السفر ، ويبسط لهم في الرزق ، ويرجعون محرومين مسلوبين ، يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار ، وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه

وقال أبو نصر التمار : إن رجلا جاء يودع بشر بن الحارث ، وقال قد عزمت على الحج ، فتأمرني بشيء ؟ فقال له كم أعددت للنفقة ؟ فقال ألفي درهم . قال بشر : فأي شيء تبتغي بحجك ، تزهدا ، أو اشتياقا إلى البيت ، أو ابتغاء مرضاة الله ؟ قال ابتغاء مرضاة الله . قال فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك ، وتنفق ألفي درهم ، وتكون على يقين من مرضات الله تعالى ، أتفعل ذلك ؟ قال نعم . قال اذهب فأعطها عشرة أنفس . مدين يقضي دينه ، وفقير يرم شعثه ، ومعيل يغني عياله ، ومربي يتيم يفرحه . وإن قوي قلبك تعطيها واحدا فافعل فإن إدخالك السرور على قلب المسلم ، وإغاثة اللهفان ، وكشف الضر ، وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام . قم فأخرجها كما أمرناك ، وإلا فقل لنا ما في قلبك . فقال يا أبا نصر ، سفري أقوى في قلبي . فتبسم بشر رحمه الله وأقبل عليه وقال له . المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات ، اقتضت النفس أن تقضي به وطرا ، فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين

وفرقة أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها ، يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة ، كصيام النهار ، وقيام الليل وختم القرآن ، وهم مغرورون . لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم ، فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال . فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها . ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية ، وقد أشرف على الهلاك ، وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجبين ! ولذلك قيل لبشر : إن فلانا الغني كثير الصوم والصلاة . فقال : المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره . وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ، ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء .

وفرقة أخرى غلبهم البخل ، فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط . ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الردىء ، الذى يرغبون عنه ، ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد فى حاجاتهم ، أو من يحتاجون إليه فى المستقبل للاستسخار فى خدمة ، أو من لهم فيه على الجملة غرض . أو يسلمون ذلك إلى من يعينه واحد من الأكابر ممن يستظهر بحشمه ، لينال بذلك عنده منزلة ، فيقوم بحاجاته . وكل ذلك مفسدات للنية ، ومحبطات للعمل ، وصاحبه مغرور ، ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر ، إذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره . فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الأموال أيضا لا يحصى . وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور

وفرقة أخرى من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء ، اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم ، واتخذوا ذلك عادة ، ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجرا ، وهم مغرورون . لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا فى الخير . فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه . والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل . فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها . وما يراد لغيره فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له . وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس ، وفضل البكاء ، وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكى ولا عزم ، وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول : ياسلام سلم ، أو نعوذ بالله ، أو سبحان الله ، ويظن أنه قد أتى بالخير كله ، وهو مغرور . وإنما مثاله مثال المريض الذى يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجرى ، أو الجائع الذى يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف ، وذلك لا يغنى عنه من مرضه وجوعه شيئا . فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغنى من الله شيئا . فكل وعظ لم يغير منك صفة تغيرا يغير أفعالك ، حتى تقبل على الله تعالى إقبالا قويا أو ضعيفا وتعرض عن الدنيا ، فذلك الوعظ زيادة حجة عليك . فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا

فإن قلت : فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ، ولا يمكن الاحتراز منه ، وهذا يوجب اليأس ، إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات

فأقول الإنسان إذا فترت همته فى شيء أظهر اليأس منه ، واستعظم الأمر ، واستوعر الطريق . وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الحيل ، واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق

فى الوصول إلى الغرض ، حتى أن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق فى جو السماء مع بعده منه استنزله وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه. وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه . وإذا أراد أن يقتنص الوحوش المطلقة فى البرارى والصحارى اقتنصها . وإذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها . وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعى ويعبث بها أخذها ، واستخرج الدرياق من أجوافها . وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنقش من ورق التوت اتخذه . وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخرج بدقيق الهندسة ذلك، وهو مستقر على الأرض . وكل ذلك باستنباط الحيل، وإعداد الآلات . فسخر الفرس للركوب ، والكلب للصيد ، وسخر البازى لاقتناص الطيور ، وهيأ الشبكة لاصطياد السمك ، إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمى . كل ذلك لأن همه أمر دنياه ، وذلك معين له على دنياه . فلو أهمه أمر آخرته ، فليس عليه إلا شغل واحد . وهو تقويم قلبه . فعجز عن تقويم قلبه وتخادل وقال هذا محال ، ومن الذى يقدر عليه وليس وذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا الهم الواحد، بل هو كما يقال

لو صح منك الهوى أرشدت للحيل

فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ، ومن اتبعهم بإحسان، فلا يعجز عنه أيضا من صدقت إرادته، وقويت همته، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق فى استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها

فإن قلت : قد قربتَ الأمر فيه ، مع أنك أكثرت فى ذكر مداخل الغرور ، فبم ينجو العبد من الغرور؟ . فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور : بالعقل ، والعلم ، والمعرفة . فهذه ثلاثة أمور لابد منها . أما العقل ، فأعنى به الفطرة الغريزية ، والنور الأصلى الذى به يدرك الإنسان حقائق الأشياء . فالفطنة والكيس فطرة ، والحمق والبلادة فطرة . والبليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور . فصفاء العقل، وذكاء الفهم، لابد منه فى أصل الفطرة فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلها العقل والكياسة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « تَبَارَكَ اللهُ الَّذِى قَسَمَ الْعَقْلَ بَيْنَ عِبَادِهِ

---

(١) حديث تبارك الذى قسم العقل بين عباده ـ الحديث : الترمذى الحكيم فى نوادر الاصول من رواية طاوس مرسلا وفى أوله قصة واسناده ضعيف ورواه بنحوه من حديث أبى حميد وهو ضعيف أيضا

أشتاتا إنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَسْتَوِى عَمَلُهُمَا وَ بِرُّهُمَا وَصَوْمُهُمَا وَصَلَاتُهُمَا وَلَكِنَّهُمَا يَتَفَاوَتَانِ فِي الْعَقْلِ كَالذَّرَّةِ فِي جَنْبِ أُحُدٍ وَمَا قَسَمَ اللَّهُ لِخَلْقِهِ حَظًّا هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْعَقْلِ وَالْيَقِينِ »

وعن أبى الدرداء ، أنه قيل يارسول الله [1] أرأيت الرجل يصوم النهار ، ويقوم الليل ويحج ، ويعتمر ، ويتصدق ، ويغزو فى سبيل الله ، ويعود المريض ، ويشيع الجنائز ، ويعين الضعيف ، ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا يُجْزَى عَلَى قَدْرِ عَقْلِهِ » وقال أنس : أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خيرا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « كَيْفَ عَقْلُهُ ؟ » قالوا يارسول الله نقول من عبادته وفضله وخلقه. فقال « كَيْفَ عَقْلُهُ فَإِنَّ الْأَحْمَقَ يُصِيبُ بِحُمْقِهِ أَعْظَمَ مِنْ فُجُورِ الْفَاجِرِ وَإِنَّمَا يُقَرَّبُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ »

وقال أبو الدرداء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله ، فإذا قالوا حسن ، قال « أَرْجُوهُ » وإن قالوا غير ذلك قال « لَنْ يَبْلُغَ » وذكر له شدة عبادة رجل فقال « كَيْفَ عَقْلُهُ » ؟ قالوا ليس بشيء . قال « لَنْ يَبْلُغَ صَاحِبُكُمْ حَيْثُ تَظُنُّونَ » فالذكاء صحيح ، وغريزة العقل نعمة من الله تعالى فى أصل الفطرة ، . فإن فاتت ببلادة وحماقة فلا تدرك لها

الثانى المعرفة : وأعنى بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور : يعرف نفسه ، ويعرف ربه ، ويعرف الدنيا ، ويعرف الآخرة . فيعرف نفسه بالعبودية والذل ، وبكونه غريبا فى هذا العالم ، وأجنبيا من هذه الشهوات البهيمية ، وإنما الموافق له طبعا هو معرفة الله تعالى ، والنظر إلى وجهه فقط ، فلا يتصور أن يعرف هذا مالم يعرف نفسه ، ولم يعرف ربه فليستعن على هذا بما ذكرناه فى كتاب المحبة ، وفى كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب التفكر ، وكتاب الشكر ،

---

(١) حديث أبى الدرداء أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ــ الحديث : وفيه انما يجزى على قدر عقله الخطيب فى التاريخ وفى أسماء من روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه ولم أره من حديث أبى الدرداء

(٢) حديث أنس أثنى على رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال كيف عقله ــ الحديث : داود بن المحبر فى كتاب العقل وهو ضعيف وتقدم فى العلم

(٣) حديث أبى الدرداء كان اذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله ــ الحديث : الترمذى الحكيم فى النوادر وابن عدى ومن طريقه البيهقى فى الشعب وضعفه

إذ فيها إشارات إلى وصف النفس ، وإلى وصف جلال الله . ويحصل به التنبه على الجملة، وكمال المعرفة وراءه، فإن هذا من علوم المكاشفة، ولم نطنب فى هذا الكتاب إلا فى علوم المعاملة

وأما معرفة الدنيا والآخرة ، فيستعين عليها بما ذكرناه فى كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ، ليتبين له أن لا نسبة للدنيا إلى الآخرة . فإذا عرف نفسه وربه ، وعرف الدنيا والآخرة ، ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله ، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها . ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى ، وينفعه فى الآخرة . وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه ، صحت نيته فى الأمور كلها . فإن أكل مثلا ، أو اشتغل بقضاء الحاجة، كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة ، وصحت نيته ، واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض ، والنزوع إلى الدنيا ، والجاه ، والمال ، فإن ذلك هو المفسد للنية . وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة ، وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى: فلا يمكنه الخلاص من الغرور .

فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه ، الصادرة عن كمال عقله ، فيحتاج إلى المعنى الثالث :وهو العلم، أعنى العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله، والعلم بما يقربه من الله وما يبعده عنه ، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله . وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها ، وآفاتها فيتقيها ، ومن ربع العادات أسرار المعايش وما هو مضطر إليه فيأخذه بأدب الشرع ، وما هو مستغن عنه فيعرض عنه . ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة فى طريق الله، فإن المانع من الله الصفات المذمومة فى الخلق ، فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه . ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التى لابد وأن توضع خلفا عن المذمومة بعد محوها . فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التى أشرنا إليها من الغرور .وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ، ويسقط حب الدنيا منه ، حتى تقوى به الإرادة ، وتصح به النية . ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التى ذكرناها

فإن قلت : فإذا فعل جميع ذلك ، فما الذى يخاف عليه ؟ فأقول يخاف عليه أن يخدعه الشيطان ، ويدعوه إلى نصح الخلق ، ونشر العلم ، ودعوة الناس إلى ما عرفه من دين الله .

فإن المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه ، وراقب القلب حتى صفاه من جميع المكدرات ، واستوى على الصراط المستقيم ، وصغرت الدنيا فى عينه فتركها ، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم ، ولم يبق إلا هم واحد ، وهو الله تعالى ، والتلذذ بذكره ومناجاته ، والشوق إلى لقائه ، وقد عجز الشيطان عن إغوائه ، إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه ، فيأتيه من جهة الدين ، ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله ، والشفقة على دينهم ، والنصح لهم ، والدعاء إلى الله . فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم حيارى فى أمرهم ، سكارى فى دينهم ، صما عميا ، قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وفقدوا الطبيب ، وأشرفوا على العطب ، فغلب على قلبه الرحمة لهم ، وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالهم ، ويرشدهم إلى سعادتهم ، وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ، ومؤنة ، ولزوم غرامة ، فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه . وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره ، لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا يتحرك ، ولا يتصرف ، لشدة ضربان الألم ، فوجد له دواء عفوا صفوا من غير ثمن ، ولا تعب ، ولا مرارة فى تناوله فاستعمله فبرىء وصح ، فطاب نومه بالليل بعد طول سهره ، وهدأ بالنهار بعد شدة القلق ، وطاب عيشه بعد نهاية الكدر ، وأصاب لذة العافية بعد طول السقام ، ثم نظر إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك العلة بعينها ، وقد طال سهرهم ، واشتد قلقهم ، وارتفع إلى السماء أنينهم ، فتذكر أن دواءهم هو الذى يعرفه ، ويقدر على شفائهم بأسهل ما يكون ، وفى أرجى زمان ، فأخذته الرحمة والرأفة ، ولم يجد فسحة من نفسه فى التراخى عن الاشتغال بعلاجهم

فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق ، وشفى من أمراض القلوب ، شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم ، وأعضل داؤهم ، وقرب هلاكهم وإشفاؤهم ، وسهل عليه دواؤهم فانبعث من ذات نفسه عزم جازم فى الاشتغال بنصحهم ، وحرضه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالا للفتنة . فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالا للفتنة ، فدعاه إلى الرياسة دعاء خفيا أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد فلم يزل ذلك الدبيب فى قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق ، بتحسين الألفاظ ، والنغمات ، والحركات ، والتصنع فى الزى والهيئة فأقبل الناس إليه يعظمونه ويبجلونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك ، إذ رأوه شافيا

لأدوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع ، فصار أحب إليهم من آبائهم، وأمهاتهم وأقاربهم ، فآثروه بأبدانهم وأموالهم ، وصاروا له خولا كالعبيد والخدم ، فخدموه وقدموه في المحافل ، وحكموه على الملوك والسلاطين . فعند ذلك انتشر الطبع ، وارتاحت النفس ، وذاقت لذة يالها من لذة ، أصابت من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة ، فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها ، فعند ذلك وجد الشيطان فرصة ، وامتدت إلى قلبه يده ، فهو يستعمله في كل مايحفظ عليه تلك اللذة

وأمارة انتشار الطبع ، وركون النفس إلى الشيطان ، أنه لو أخطأ فرُدّ عليه بين يدى الخلق غضب . فإذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب ، بادر الشيطان فخيل إليه أن ذلك غضب لله ، لأنه إذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله . فوقع في الغرور . فربما أخرجه ذلك إلى الوقيعة فيمن رد عليه ، فوقع في الغيبة المحظورة بعد تركه الحلال المتسع ، ووقع في الكبر الذى هو تمرد عن قبول الحق والشكر عليه ، بعد أن كان يحذر من طوارق الخطرات . وكذلك إذا سبقه الضحك ، أو فتر عن بعض الأوراد، جزعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله ، فأتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء ، وربما زاد في الأعمال والأوراد لأجل ذلك ، والشيطان يخيل إليه إنك إنما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله، فيتركون الطريق بتركه ، وإنما ذلك خدعة وغرور . بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرياسة ولذلك لاتجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه ، بل ربما يحب ذلك ويستبشر به، ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله ، وزاد أثر كلامه، في القبول على كلامه ، شق ذلك عليه . ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرياسة ، لكان يغتنم ذلك . إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقعوا في بئر ، وتغطى رأس البئر بحجر كبير ، فعجزوا عن الرقى من البئر بسببه ، فرق قلبه لإخوانه. فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر ، فشق عليه ، فجاءه من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه ، أو كفاه ذلك ونحاه بنفسه ، فيعظم بذلك فرحه لا محالة ، إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر . فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسلمين من النار ، فإذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه . أرأيت لو اهتدوا جميعهم من أنفسهم ، أكان ينبغى أنه يثقل ذلك عليه

إن كان غرضه هدايتهم؟ فإذا اهتدوا بغيره فلم يثقل عليه؟ ومهما وجد ذلك فى نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كبائر القلوب، وفواحش الجوارح، وأهلكه، فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى، ومن اعوجاج النفس بعد الاستواء.

فإن قلت: فتى يصح له أن يشتغل بنصح الناس

فأقول: إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى، وكان يود لو وجد من يعينه، أو لو اهتدوا بأنفسهم، وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم؛ فاستوى عنده حمدهم وذمهم، فلم يبال بذمهم إذا كان الله يحمده، ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقترن به حمد الله تعالى، ونظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البهائم. أما إلى السادات فمن حيث إنه لا يتكبر عليهم، ويرى كلهم خيرا منه لجهله بالخاتمة. وأما إلى البهائم، فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة فى قلوبهم، فإنه لا يبالى كيف تراه البهائم فلا يتزين لها ولا يتصنع. بل راعى الماشية إنما غرضه رعاية الماشية، ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه. فالم يرسائر الناس كالماشية التى لا يلتفت إلى نظرها، ولا يبالى بها، لا يسلم من الاشتغال بإصلاحهم. نعم ربما: يصلحهم ولكن يفسد نفسه بإصلاحهم فيكون كالسراج يضيء لغيره ويحترق فى نفسه

فإن قلت: فلو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة لخلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب

فأقول: قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ » ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم، وبطلت المعايش، وهلكت القلوب والأبدان جميعا. إلا أنه صلى الله عليه وسلم علم أن حب الدنيا مهلك، وأن ذكر كونه مهلكا لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين، لا الأقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم، فلم يترك النصح، وذكر ما فى حب الدنيا من الخطر، ولم يترك ذكره خوفا من أن يترك نفسه بالشهوات المهلكة التى سلطها الله على عباده، ليسوقهم بها إلى جهنم، تصديقا لقوله تعالى (وَلَـٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ[2]) فكذلك لا تزال ألسنة الوعاظ مطلقة

---

(١) حديث حب الدنيا رأس كل خطيئة: البيهق فى الشعب من حديث الحسن مرسلا وقد تقدم فى كتاب ذم الدنيا

---

(١) السجدة: ١٣

لحب الرياسة ، ولا يدعونها بقول من يقول إن الوعظ لحب الرياسة حرام . كما لا يدع الخلق الشرب ، والزنا ، والسرقة ، والرياء ، والظلم ، وسائر المعاصي ، بقول الله تعالى ورسوله إن ذلك حرام . فانظر لنفسك . وكن فارغ القلب من حديث الناس ، فإن الله تعالى يصلح خلقا كثيرا بإفساد شخص واحد وأشخاص ، ولولا دفع الله الناس ، بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، وإن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم . فإنما يخشى أن يفسد طريق الاتعاظ فأما أن تخرس ألسنة الوعاظ ، ووراءهم باعث الرياسة وحب الدنيا ، فلا يكون ذلك أبدا

فإن قلت : فإن علم المريد هذه المكيدة من الشيطان ، فاشتغل بنفسه وترك النصح ؛ او نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه ، فما الذي يخاف عليه ؟ وما الذي بقي بين يديه من الأخطار وحبائل الأغترار ؟ . فاعلم أنه بقي عليه أعظمه ، وهو أن الشيطان يقول له : قد أعجزتني ، وأفلت مني بذكائك وكمال عقلك ، وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت عليك : فما أصبرك ، وما أعظم عند الله قدرك ومحلك ، إذ قواك على قهري ، ومكنك من التفطن لجميع مداخل غروري . فيصغي إليه ويصدقه ، ويعجب بنفسه في فراره من الغرور كله ، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور ، وهو المهلك الأكبر ، فالعجب أعظم من كل ذنب . ولذلك قال الشيطان . يا ابن آدم ، إذا ظننت أنك بعلمك تخلصت مني ، فبجهلك قد وقعت في حبائلي

فإن قلت : فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أن ذلك من الله تعالى لا منه ؛ وأن مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله ومعونته ، ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل ، فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى ، فما الذي يخاف عليه بعد نفي العجب

فأقول : يخاف عليه الغرور بفضل الله ، والثقة بكرمه ، والأمن من مكره ، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل ، ولا يخاف من الفترة والانقلاب ، فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط ، دون أن يقارنه الخوف من مكره . ومن أمن مكر الله فهو خاسر جدا

بل سبيله أن يكون مشاهدا جملة ذلك من فضل الله ، ثم خائفا على نفسه أن يكون قد سدت عليه صفة من صفات قلبه ، من حب دنيا ، ورياء ، وسوء خلق ، والتفات إلى عز

وهو غافل عنه . ويكون خائفا أن يسلب حاله فى كل طرفة عين ، غير آمن من مكر الله ، ولا غافل عن خطر الخاتمة . وهذا خطر لامحيص عنه ، وخوف لانجاة منه إلا بعد مجاوزة الصراط . ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء فى وقت النزع ، وكان قد بقى له نفس ، فقال : أفلت منى يافلان ، فقال لا بعد . ولذلك قيل . الناس كلهم هلكى إلا العالمون . والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم

فإذاً المغرور هالك ، والمخلص الفار من الغرور على خطر . فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبدا ، فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الخاتمة ، فإن الأمور بخواتيمها

تم كتاب ذم الغرور ، وبه تم ربع المهلكات

ويتلوه فى أول ربع المنجيات كتاب التوبة ، والحمد لله أولا وآخرا ، وصلى الله على من لا نبى بعده ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

كتاب التوبة

كتاب التوبة

وهو الأول من ربع المنجيات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بتحميده يستفتح كل كتاب ، وبذكره يصدر كل خطاب ، وبحمده يتنعم أهل النعيم فى دار الثواب ، وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب ، وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ونتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب . ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب . ونصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه ، صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب ، وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب

أما بعد . فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول إقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين . وما أجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو أن أذنب الآدمى واجترم فهى سنشنة يعرفها من أخزم ، ومن أشبه أباه فما ظلم . ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر عمر بعد أن هدم ، فليكن النزوع إليه فى كلا طرفى النفى والإثبات ، والوجود والعدم . ولقد قرع آدم سن الندم ، وتندم على ماسبق منه وتقدم . فمن اتخذه قدوة فى الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم . بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلافى سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين . فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان ، والمتجرد للشر شيطان ، والمتلافى للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان

فقد ازدوج فى طينة الإنسان شائبتان ،واصطحب فيه سجيتان. وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك ، أو إلى آدم ، أو إلى الشيطان . فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان. والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان

فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان ، فإن الشر معجون مع الخير فى طينة آدم عجنا محكما ، لايخلصه إلا إحدى النارين ، نار الندم أو نار جهنم . فالإحراق بالنار ضرورى فى تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان ، وإليك الآن اختيار أهون النارين ، والمبادرة إلى أخف الشرين ، قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار ، إما إلى الجنة وإما إلى النار

وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع ، وجب تقديمها فى صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها ، وشروطها ، وسببها ، وعلامتها ، وثمرتها ، والآفات المانعة منها ،والأدوية الميسرة لها . ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان .

الركن الأول : فى نفس التوبة ، وبيان حدها ،وحقيقتها ، وأنها واجبة على الفور ،وعلى جميع الأشخاص ، وفى جميع الأحوال ، وأنها إذا صحت كانت مقبولة

الركن الثانى : فيما عنه التوبة ، وهو الذنوب ، وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر ،وما يتعلق بالعباد ، ومايتعلق بحق الله تعالى، وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات ، وبيان الأسباب التى بها تعظم الصغائر

الركن الثالث : فى بيان شروط التوبة ودوامها ، وكيفية تدارك مامضى من المظالم ، وكيفية تكفير الذنوب ، وبيان أقسام التائبين فى دوام التوبة

الركن الرابع : فى السبب الباعث على التوبة، وكيفية العلاج فى حل عقدة الإصرار من المذنبين

ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل

الركن الأول فى نفس التوبة

بيان

حقيقة التوبة وحدها

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : علم ، وحال ، وفعل فالعلم الأول ، والحال الثانى ، والفعل الثالث . والأول موجب للثانى ، والثاني موجب للثالث إيجابا اقتضاه اطراد سنة الله فى الملك والملكوت

أما العلم :فهو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب . فإذا عرف ذلك معرفة محققة ، بيقين غالب على قلبه ، ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب . فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم . فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت ، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندما . فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى ، انبعث من هذا الألم فى القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال ، وبالماضى ، وبالاستقبال . أما تعلقه بالحال،فبالترك للذنب الذى كان ملابسا. وأما بالاستقبال ، فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر . وأما بالماضى،فبتلافى مافات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر فالعلم هو الأول ، وهو مطلع هذه الخيرات، وأعنى بهذا العلم الإيمان واليقين. فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق ، وانتفاء الشك عنه ، واستيلائه على القلب ، فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم ، فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوبا عن محبوبه ، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان فى ظلمة،فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب ، أو انحسار حجاب ، فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك ، فتشتعل نيران الحب فى قلبه ، وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك

فالعلم والندم ، والقصد المتعلق بالترك فى الحال والاستقبال ، والتلافى للماضى ، ثلاثة معان مرتبة فى الحصول، فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا مايطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ، ويجعل العلم كالسابق والمقدمة ، والترك كالثمرة والتابع المتأخر. وبهذا الاعتبار

قال عليه الصلاة والسلام [1] « النَّدَمُ تَوْبَةٌ » إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه . فيكون الندم محفوفا بطرفيه ، أعنى ثمرته ومثمره . وبهذا الاعتبار قيل فى حد التوبة أنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطا . فإن هذا يعرض لمجرد الألم . ولذلك قيل هو نار فى القلب تلتهب ، وصدع فى الكبد لا ينشعب . وباعتبار معنى الترك قيل فى حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء . وقال سهل بن عبد الله التسترى : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة . ولا يتم ذلك إلا بالخلوة ، والصمت ، وأكل الحلال . وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة

والأقاويل فى حدود التوبة لا تنحصر . وإذا فهمت هذه المعانى الثلاثة، وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل فى حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها . وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة

بيان

وجوب التوبة وفضلها

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار [2] والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته ، وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذى بين يديه فى ظلمات الجهل ، مستغنيا عن قائد يقوده فى كل خطوة . فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد فى خطوه ، وإما بصير يهدى إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه . وكذلك الناس فى طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام . فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد فى خطوه ، فيفتقر إلى أن يسمع فى كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله ، وربما يعوزه ذلك فيتحير . فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر ، وخطاه قاصرة . ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام ، فهو على نور من ربه ، فيتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصة ، وقطع عقبات متعبة . ويشرق فى قلبه نور القرءان ونور الإيمان . وهو لشدة نور باطنه

---

(١) حديث الندم توبة : ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح اسناده من حديث ابن مسعود ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين

(٢) حديث الأخبار الدالة على وجوب التوبة : مسلم من حديث الأغر المزنى يا أيها الناس توبوا الى الله ـ الحديث : ولابن ماجه من حديث جابر يا أيها الناس توبوا الى ربكم قبل أن تموتوا ـ الحديث : وسنده ضعيف

يحتزىء بأدنى بيان ، فكأنه يكاد زيته يضىء ولو لم تمسه نار · فإذا مسته نار فهو نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج إلى نص منقول فى كل واقعة

فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة ، فينظر أولا بنور البصيرة إلى التوبة ماهى ، ثم إلى الوجوب مامعناه ، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة ، فلا يشك فى ثبوته لها وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ماهو واجب فى الوصول إلى سعادة الأبد ، والنجاة من هلاك الأبد ، فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشىء وتركه ؛ لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى . وقول القائل صار واجبا بالإيجاب حديث محض. فإن مالا غرض لنا آجلا وعاجلا فى فعله وتركه ، فلا معنى لاشتغالنا به أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه. فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد ، وعلم أن لاسعادة فى دار البقاء إلا فى لقاء الله تعالى ، وأن كل محجوب عنه يشقى لامحالة ، محول بينه وبين مايشتهى ، محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات ، والأنس بهذا العالم الفانى ، والإكباب على حب مالابد من فراقه قطعا ، وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم ، والإقبال بالكلية على الله طلبا للأنس به بدوام ذكره ، وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته ، وعلم أن الذنوب التى هى إعراض عن الله، واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته ، سبب كونه محجوبا مبعدا عن الله تعالى . فلا يشك فى أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب . وإنما يتم الانصراف بالعلم ، والندم ، والعزم فإنه مالم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ، ولم يتوجع بسبب سلوكه فى طريق البعد . وما لم يتوجع فلا يرجع . ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك فى أن المعانى الثلاثة ضرورية فى الوصول إلى المحبوب . وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ، ففى التقليد والاتباع له مجال رحب ، يتوصل به إلى النجاة من الهلاك ، فليلاحظ فيه قول الله ، وقول رسوله ، وقول السلف الصالحين . فقد قال الله تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [1]) وهذا أمر على العموم . وقال الله تعالى

(1) النور : ٣١

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا[(١)]) الآية، ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب مأخوذ من النصح. ويدل على فضل التوبة قوله تعالى (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ[(٢)]) . وقال عليه السلام[(١)] «التَّائِبُ حَبِيبُ اللهِ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَاذَنْبَ لَهُ» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٢)] «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مُهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ فَطَلَبَهَا حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَاشَاءَ اللهُ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ عَلَيْهَا زَادُهُ وَشَرَابُهُ فَاللهُ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ» وفي بعض الألفاظ قال من شدة فرحه، إذ أراد شكر الله، أنا ربك وأنت عبدى.

ويروى عن الحسن قال: لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام، هنأته الملائكة، وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام. فقالا يا آدم، قرت عينك بتوبة الله عليك. فقال آدم عليه السلام: ياجبريل، فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى؟ فأوحى الله إليه ياآدم، ورثت ذريتك التعب والنصب، وورثتهم التوبة. فمن دعانى منهم لبيته كما لبيتك، ومن سألنى المغفرة لم أبخل عليه، لأنى قريب مجيب ياآدم، وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين، ودعاؤهم مستجاب. والأخبار والآثار فى ذلك لاتحصى، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها، إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصى مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل

---

(١) حديث التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لاذنب له: ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشطر الثانى دون الأول وأما الشطر الأول فروى ابن أبى الدنيا فى التوبة وأبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف ان الله يحب الشاب التائب ولعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وأبو يعلى بسند ضعيف من حديث على ان الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب

(٢) حديث لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزول فى أرض فلاة دوية مهلكة ـ الحديث: متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس زاد مسلم فى حديث أنس ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح ورواه مسلم بدون هذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبى هريرة مختصرا

---

(١) التحريم: ٨ (٢) التحريم ٨

فى وجوب الإيمان، ولكن قد تدهش الغفلة عنه فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة : ولا خلاف فى وجوبها

ومن معانيها ترك المعاصى فى الحال ، والعزم على تركها فى الاستقبال ، وتدارك ماسبق من التقصير فى سابق الأحوال، وذلك لايشك فى وجوبه وأما التندم على ماسبق ، والتحزن عليه ، فواجب . وهو روح التوبة ، وبه تمام التلافى . فكيف لايكون واجبا ! بل هو نوع ألم يحصل لامحالة ، عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع فى سخط الله

فإن قلت : تألم القلب أمر ضرورى لايدخل تحت الاختيار ، فكيف يوصف بالوجوب؟

فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب . وله سبيل إلى تحصيل سببه . وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب ، لابمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه فى نفسه ، فإن ذلك محال . بل العلم ، والندم ، والفعل ، والإرادة ، والقدرة ، والقادر ، الكل من خلق الله وفعله (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ [1]) هذا هو الحق عند ذوى البصائر . وما سوى هذا ضلال

فإن قلت: أفليس للعبد اختيار فى الفعل والترك؟ قلنا نعم : وذلك لايناقض قولنا إن الكل من خلق الله تعالى . بل الاختيار أيضا من خلق الله . والعبد مضطر فى الاختيار الذى له . فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة ، وخلق الطعام اللذيذ ، وخلق الشهوة للطعام فى المعدة، وخلق العلم فى القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة ، وخلق الخواطر المتعارضة فى أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة ، وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا، ثم خلق العلم بأنه لامانع ، ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على التناول . فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة ، وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ، ولابد من حصوله عند تمام أسبابه . فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالى إياها ، تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة . إذ بعد تمام الإرادة والقدرة، يكون حصول الفعل ضروريا، فتحصل الحركة ، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة ، وهما أيضا من خلق الله . وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة ، والعلم بعدم الموانع ، وهما أيضا من خلق الله تعالى . ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة

---

(1) الصافات : ٩٦

مالم يخلق فيها صفة تسمى قدرة ، ومالم يخلق فيها حياة ، وما لم يخلق إرادة مجزومة . ولا يخلق الإرادة المجزومة مالم يخلق شهوة وميلا فى النفس ولا ينبعث هذا الميل انبعاثا تاما مالم يخلق علما بأنه موافق للنفس ، إما فى الحال أو فى المآل . ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم . فالعلم والميل الطبيعى أبدا يستتبع الإرادة الجازمة ، والقدرة والإرادة أبدا تستردف الحركة ، وهكذا الترتيب فى كل فعل . والكل من اختراع الله تعالى . ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض . فلذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض ، كما لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم ، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ، ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم . فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة ، لا أن الحياة تتولد من الجسم . ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم ، لا أن العلم يتولد من الحياة . ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم إلا إذا كان حيا ، ويكون خلق العلم شرطا لجزم الإرادة ، لا أن العلم يولد الإرادة . ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم . ولا يدخل فى الوجود إلا ممكن ، وللإمكان ترتيب لا يقبل التغيير ، لأن تغييره محال . فمهما وجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف ، فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهى والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد . ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب ، كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب . والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة ، وهى مرتبة فى قضاء الله تعالى الذى هو واحد كلمح البصر ترتيبا كليا لا يتغير . وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها . وعنه العبارة بقوله تعالى (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ [1]) وعن القضاء الكلى الأزلى العبارة بقوله تعالى (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ [2]) وأما العباد فإنهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر . ومن جملة القدر خلق حركة فى يد الكاتب ، بعد خلق صفة مخصوصة فى يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوى جازم فى نفسه يسمى القصد ، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة

فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير ، سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا أيها الرجل ، قد تحركت ، ورميت ، وكتبت . و نودى من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت

(١) القمر : ٤٩ (٢) القمر : ٥٠

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ رَمَى [١]) وما قتلت إذ قتلت ، ولـكن (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ [٢]) وعند هذا تتحير عقول القاعدين فى بحبوحة عالم الشهادة ، فمن قائل إنه جبر محض ، ومن قائل إنه اختراع صرف ، ومن متوسط مائل إلى أنه كسب . ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملـكوت ، لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه ، وأن القصور شامل لجميعهم ، فلم يدرك واحد منهم كنه هـذا الأمر ، ولم يحط علمه بجوانبه . وتمام علمه ينال بإشراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول . وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل فى حيز الارتضاء . ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ، ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الأسباب ، انكشف له سر القدر وعلم علما يقينا أن لا خالق إلا الله ، ولا مبدع سواه

فإن قلت : قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر ، والاختراع ، والـكسب ، أنه صادق من وجه ، وهو مع صدقه قاصر ، وهذا تناقض ، فـكيف يمكن فهم ذلك ؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال ؟

فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيـب يسمى الفيل ، وما كانوا قط شاهدوا صورته ، ولا سمعوا اسمه . فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفتـه باللمس الذى نقدر عليه . فطلبوه ، فلما وصلوا إليه لمسوه . فوقع يد بعض العميان على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ، ووقع يد بعضهـم على أذنه . فقالوا قد عرفناه . فلمـا انصرفوا سألهم بقية العميان ، فاختلف أجوبتهم . فقال الذى لمس الرجل : إن الفيل ما هو إلا مثل اسطوانة خشنة الظاهر ، إلا أنه ألين منها . وقال الذى لمس الناب : ليس كما يقول ، بل هو صلب لا لين فيه ، وأملس لا خشونة فيه ، وليس فى غلظ الأسطوانة أصلا ، بل هو مثل عمود : وقال الذى لمس الأذن : لعمرى هو لين وفيه خشونة . فصدق أحدهما فيه . ولـكن قال . ما هو مثل عمود ، ولا هو مثل اسطوانة ، وإنما هو مثل جلد عريض غليظ . فـكل واحد من هؤلاء صدق من وجه ، إذ أخبر كل واحد عما أصـــابه من معرفة الفيل ،

(١) الانفال : ١٧ (٢) التوبة : ١٤

ولم يخرج واحد فى خبره عن وصف الفيل. ولكنهم بجملتهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به ، فإنه مثال أكثر ما اختلفت الناس فيه ، وإن كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها ، وليس ذلك من غرضنا، فلنرجع إلى ما كنا بصدده

وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة ، العلم ،والندم ، والترك ، وأن الندم داخل فى الوجوب ، لكونه واقعا فى جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد ، وإرادته ، وقدرته المتخللة بينها ، وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله

بيان

أن وجوب التوبة على الفور

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه . إذ معرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الإيمان ، وهو واجب على الفور . والمتفصى عن وجوبه هو الذى عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه . فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التى لا تتعلق بعمل ، بل هى من علوم المعاملة . وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التفصى عن عهدته مالم يصر باعثا عليه . فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان . وهو المراد بقوله عليه السلام[١] « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » وما أراد به نفى الإيمان الذى يرجع إلى علوم المكاشفة، كالعلم بالله، ووحدانيته ، وصفاته ، وكتبه ؛ ورسله ، فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصى . وإنما أراد به نفى الإيمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى . موجبا للمقت. كما إذا قال الطبيب : هذا سم فلا تتناوله فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن ، لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب، وكونه طبيبا وغير مصدق به ، بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك . فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلا . فالعاصى بالضرورة ناقص الإيمان . وليس الإيمان بابا واحدا ، بل هو نيف وسبعون بابا ، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . ومثاله قول القائل .

---

(١) حديث لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن : متفق عليه من حديث أبى هريرة .

ليس الإنسان موجودا واحدا ، بل هو نيف وسبعون موجودا ، أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الأذى عن البشرة، بأن يكون مقصوص الشارب، مقلوم الأظفار ، نقى البشرة عن الخبث ، حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها، المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها

وهذا مثال مطابق : فالإيمان كالإنسان ، وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح ، والذى ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوء العينين ، فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة ، لا أصل الروح . وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت ، فتزايله الروح الضعيفة ، المنفردة ، التى تخلف عنها الأعضاء التى تمدها وتقويها ، فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان ، وهو مقصر فى الأعمال ، قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة ، المحركة للإيمان فى مقدمة قدوم ملك الموت وورده . فكل إيمان لم يثبت فى اليقين أصله ، ولم تنتشر فى الأعمال فروعه ، لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت، وخيف عليه سوء الخاتمة، لا ما يسقى بالطاعات على توالى الأيام والساعات ، حتى رسخ وثبت . وقول العاصى للمطيع إنى مؤمن كما أنك مؤمن ، كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر أنا شجرة وأنت شجرة . وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت : ستعرفين اغترارك بشمول الإسم إذا عصفت رياح الخريف ، فعند ذلك تنقطع أصولك ، وتتناثر أوراقك ، وينكشف غرورك بالمشاركة فى اسم الشجرة، مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار

وسوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة . وإنما انقطع نياط العارفين خوفا من دواعى الموت ومقدماته الهائلة ، التى لا يثبت عليها إلا الأقلون . فالعاصى إذا كان لا يخاف الخلود فى النار بسبب معصيته ، كالصحيح المنهمك فى الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته . وإن الموت غالبا لا يقع فجأة ، فيقال له . الصحيح يخاف المرض ، ثم إذا مرض خاف الموت . وكذلك العاصى يخاف سوء الخاتمة ، ثم إذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود فى النار فالمعاصى للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان ، فلا تزال تجتمع فى الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها ، إلى أن يفسد المزاج، فيمرض دفعة، ثم يموت دفعة . فكذلك المعاصى

فإذاً كان الخائف من الهلاك فى هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم ، وما يضره من المأكولات فى كل حال وعلى الفور ، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك . وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ، ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة ، على سبيل الفور والمبادرة ، تلافيا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية ، فمتناول سموم الدين وهى الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ، مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر ، فإن المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية ، التى فيها النعيم المقيم ، والملك العظيم ، وفى فواتها نار الجحيم ، والعذاب المقيم الذى تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدته ، إذ ليس لمدته آخر ألبتة . فالبدار البدار إلى التوبة ، قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملا يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ، ولا ينفع بعده الإحتماء ، فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين ، ووعظ الواعظين ، وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين ، ويدخل تحت عموم قوله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [1]) ولا يغرنك لفظ الإيمان فتقول . المراد بالآية الكافر ، إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون بابا ، وأن الزانى لا يزنى حين يزنى وهو مؤمن . فالمحجوب عن الإيمان الذى هو شعب وفروع سيحجب فى الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل . كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التى هي حروف وفروع ، سيساق إلى الموت المعدم للروح التى هي أصل ، فلا بقاء للأصل دون الفرع ، ولا وجود للفرع دون الأصل ، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا فى شيء واحد ، وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعى وجود الأصل ، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع . فبقاء الأصل بالفرع ، ووجود الفرع بالأصل ، فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل ، فلا يستغنى أحدهما عن الآخر . وإن كان أحدهما فى رتبة الأصل والآخر فى رتبة التابع . وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها

---

(1) يس : ٨ ، ٩ ، ١٠

فإن هى لم تعمل عملها الذى تراد له ،قامت مؤيدة للحجة على صاحبها ،ولذلك يزاد فى عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر ،كما أوردنا من الأخبار فى كتاب العلم

بيان

أن وجوب التوبة عام فى الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد البتة

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا ، إذ قال تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [١]) فعمم الخطاب . ونور البصيرة أيضا يرشد إليه ، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله ، المقرب إلى الشيطان . ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة ، والغضب ، وسائر الصفات المذمومة التى هى وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان ، إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة الأربعين . وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ ، ومباديه تظهر بعد سبع سنين ، والشهوات جنود الشيطان ، والعقول جنود الملائكة ، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة ، إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان ، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار ، والنور والظلمة . ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة . وإذا كانت الشهوات تكمل فى الصبا والشباب قبل كمال العقل ، فقد سبق جند الشيطان ، واستولى على المكان ، ووقع للقلب به أنس ، وألف لامحالة مقتضيات الشهوات بالعادة . وغلب ذلك عليه ، ويعسر عليه النزوع عنه . ثم يلوح العقل الذى هو حزب الله وجنده ،ومنقذ أوليائه من أيدى أعدائه شيئا فشيئا على التدريج ، فإن لم يقو ولم يكمل ، سلمت مملكة القلب للشيطان ، وأنجز اللعين موعده حيث قال (لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً [٢]) وإن كمل العقل وقوى ، كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ، ومفارقة العادات ، ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات . ولا معنى للتوبة إلا هذا، وهو الرجوع عن طريق،دليله الشهوة،وخفيره الشيطان ، إلى طريق الله تعالى . وليس فى الوجود آدمى إلا وشهوته سابقة على عقله،وغريزته التى هى عدة الشيطان متقدمة على غريزته التى هى عدة الملائكة ، فكان الرجوع عما سبق

(١) النور : ٣١ (٢) الاسراء : ٦٢

إليه على مساعدة الشهوات ضروريا فى حق كل إنسان ، نبيا كان أو غبيا ، فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام . وقد قيل .

فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند

بل هو حكم أزلى مكتوب على جنس الإنس ، لايمكن فرض خلافه مالم تتبدل السنة الإلهية التى لامطمع فى تبديلها . فإذاً كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره . فإذا بلغ مسلما تبعا لأبويه ، غافلا عن حقيقة إسلامه ، فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام ، فإنه لايغنى عنه إسلام أبويه شيئا مالم يسلم بنفسه ، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف ، بالرجوع إلى قالب حدود الله فى المنع والإطلاق ، والانفكاك ، والاسترسال ، وهو من أشق أبواب التوبة ، وفيه هلك الأكثرون ، إذ عجزوا عنه . وكل هذا رجوع وتوبة .

فدل أن التوبة فرض عين فى حق كل شخص ، لايتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر ، كما لم يستغن آدم . فخلقة الولد لاتتسع لمالم يتسع له خلقة الوالد أصلا

وأما بيان وجوبها على الدوام ، وفى كل حال ، فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه . إذ لم يخلو عنه الأنبياء ، كما ورد فى القرءان والأخبار من خطايا الأنبياء ، وتوبتهم ، وبكائهم على خطاياهم . فإن خلا فى بعض الأحوال عن معصية الجوارح ، فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب . فإن خلا فى بعض الأحوال عن الهم ، فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله . فإن خلا عنه ، فلا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله ، وصفاته ، وأفعاله . وكل ذلك نقص ، وله أسباب ، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده ، والمراد بالتوبة الرجوع . ولا يتصور الخلو فى حق الآدمى عن هذا النقص ، وإنما يتفاوتون فى المقادير . فأما الأصل فلابد منه . ولهذا قال عليه السلام [1] « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً »

(١) حديث انه ليغان على قلبي فأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة : مسلم من حديث الأغر المزنى الا أنه قال فى اليوم مائة مرة وكذا عند أبى داود وللبخارى من حديث أبى هريرة انى لأستغفر الله فى اليوم أكثر من سبعين مرة وفى رواية البيهقى فى الشعب سبعين لم يقل أكثر وتقدم فى الأذكار والدعوات

الحديث،ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال(لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ [١])
وإذا كان هذا حاله ، فكيف حال غيره ؟

فإن قلت: لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص ، وأن الكمال في الخلو عنه ، وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص ، وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال ، وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع ، والرجوع توبة ، ولكن هذه فضائل لا فرائض ،وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال،والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة، إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع . فما المراد بقولك التوبة واجبة في كل حال ؟

فاعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدإ خلقته من اتباع الشهوات أصلا . وليس معنى التوبة تركها فقط ، بل تمام التوبة بتدارك ما مضى . وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه ، كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة . فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار رينا ، كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثا،كما قال تعالى (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [٢]) فإذا تراكم الرين صار طبعا ، فيطبع على قلبه ، كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه ، غاص في جرم الحديد وأفسده،وصار لا يقبل الصقل بعده ، وصار كالمطبوع من الخبث . ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل ، بل لابد من محو تلك الأرياك التي انطبعت في القلب . كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل ، مالم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأرياك . وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات ،فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات . فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة . وإليه الإشارة بقوله عليه السلام [١] « أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا »

فإذا لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه،بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات.هذا في قلب حصل أولا صفاؤه وجلاؤه،ثم أظلم بأسباب عارضة.

---

(١) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها :الترمذي من حديث أبي ذر بزيادة في أوله وآخره وقال حسن صحيح وقد تقدم في رياضة النفس

---

(١) الفتح : ٢ (٢) التطفيف : ١٤

فأما التصقيل الأول ففيه يطول الصقل ، إذ ليس شغل الصقل فى إزالة الصدإ عن المرآة كشغله فى عمل أصل المرآة . فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلا . وكل ذلك يرجع إلى التوبة

فأما قولك: إن هذا لا يسمى واجبا ، بل هو فضل وطلب كمال ، فاعلم أن الواجب له معنيان أحدهما: ما يدخل فى فتوى الشرع ، ويشترك فيه كافة الخلق ، وهو القدر الذى لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم ، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ، ورفضوا الدنيا بالكلية . ثم يؤدى ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية ، فإنه مهما فسدت المعايش لم يتفرغ أحد للتقوى بل شغل الحياكة ، والحراثة ، والخبز ، يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه ، فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار

والواجب الثانى :هو الذى لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين ، والمقام المحمود بين الصديقين . والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة فى الوصول إليه . كما يقال الطهارة واجبة فى صلاة التطوع ، أى لمن يريدها ، فإنه لا يتوصل إليها إلا بها . فأما من رضى بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع ، فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها . كما يقال العين ، والأذن ، واليد ، والرجل ، شرط فى وجود الإنسان . يعنى أنه شرط لمن يريد أن يكون إنسانا كاملا ينتفع بإنسانيته ، ويتوصل بها إلى درجات العلا فى الدنيا . فأما من قنع بأصل الحياة ، ورضى أن يكون كلحم على وضم ، وكخرقة مطروحة ، فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ، ويد ، ورجل . فأصل الواجبات الداخلة فى فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة . وأصل النجاة كأصل الحياة ، وما وراء أصل النجاة من السعادات التى بها تنتهى الحياة ، يجرى مجرى الأعضاء والآلات التى بها تتهيأ الحياة ، وفيه سعى الأنبياء ، والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل ، وعليه كان حرصهم ، وحواليه كان تطوافهم ، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية ، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجرا فى منامه ، فجاء إليه الشيطان وقال : أما كنت تركت الدنيا للآخرة ؟ فقال نعم وما الذى حدث ؟ فقال توسدك لهذا الحجر تنعم فى الدنيا ، فلم لا تضع رأسك على الأرض ؟ فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ، ووضع رأسه على الأرض . وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم . أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجبا فى فتاوى العامة ؟

أفترى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم [١] ، لما شغله الثوب الذى كان عليه علم فى صلاته حتى نزعه ، [٢] وشغله شراك نعله الذى جدده حتى أعاد الشراك الخلق ، لم يعلم أن ذلك ليس واجبا فى شرعه الذى شرعه لكافة عباده ؟ فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه ؟ وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثرا فى قلبه أثرا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذى قد وعد به ؟

أفترى أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللبن ، وعلم أنه على غير وجهه، أدخل أصبعه فى حلقه ليخرجه ، حتى كاد يخرج معه روحه ، ما علم من الفقه هذا القدر ، وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ، ولا يجب فى فتوى الفقه إخراجه فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه ؟ وهل كان ذلك إلا لسر وقر فى صدره ، عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر ؛ وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون ؟

فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله ، وبطريق الله ؛ وبمكر الله ، وبمكامن الغرور بالله . وإياك مرة واحدة أن تغرك الحياة الدنيا ، وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور . فهذه أسرار من استنشق مبادى روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك فى طريق الله تعالى ، فى كل نفس من أنفاسه ، ولو عمر عمر نوح ، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة . ولقد صدق أبو سليمان الدارانى حيث قال : لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على تفويت ما مضى منه فى غير الطاعة ، لكان خليقا أن يحزنه ذلك إلى الممات . فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله ! وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة ؛ وضاعت منه بغير فائدة ، بكى عليها لا محالة . وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه ، كان بكاؤه منها أشد . وكل ساعة من العمر ، بل كل نفس جوهرة نفيسة ، لا خلف لها ، ولا بدل منها ، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد ، وتنقذك من شقاوة الأبد . وأى جوهر أنفس من هذا ؟ فإذا ضيعتها فى الغفلة ، فقد خسرت خسرانا مبينا . وإن صرفتها إلى معصية، فقد هلكت هلاكا فاحشا . فإن كنت لا تبكى على هذه المصيبة ، فذلك لجهلك . ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة ،

---

(١) حديث نزعه صلى الله عليه وسلم الذى كان عليه فى الصلاة : تقدم فى الصلاة أيضا

(٢) حديث نزعه الشراك الجديد واعادة الشراك الخلق : تقدم فى الصلاة أيضا

لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة . فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته ، والناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا . فعنـد ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ، ولكل مصاب مصيبته . وقد رفع الناس عن التدارك

قال بعض العارفين : إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد ، أعلمه أنه قد بقى من عمرك ساعة ، وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين . فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها ؛ على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ، ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه ، فلا يجد إليه سبيلا . وهو أول ما يظهر من معانى قوله تعالى (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ [1]) وإليه الإشارة بقوله تعالى (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا [2]) فقيل الأجل القريب الذى يطلبه : معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد : يا ملك الموت ، أخرنى يوما أعتذر فيه إلى ربى وأتوب ، وأتزود صالحا لنفسى فيقول : فنيت الأيام فلا يوم . فيقول : فأخرنى ساعة . فيقول : فنيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة ، فيتغرغر بروحه ، وتتردد أنفاسه فى شر أسفه ، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك ، وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فيضطرب أصل إيمانه فى صدمات تلك الأحوال . فإذا زهقت نفسه ، فإن كان سبقت له من الله الحسنى ، خرجت روحه على التوحيد ، فذلك حسن الخاتمة . وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله ، خرجت روحه على الشك والاضطراب ، وذلك سوء الخاتمة . ولمثل هذا يقال (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ [3]) وقوله (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ [4]) ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ، ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » ولذلك قال لقمان لابنه : يا بنى لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأتى بغتة . ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف ، كان بين خطرين عظيمين . أحدهما : أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى ، حتى يصير رينا وطبعا ،

---

(1) سبا : ٥٤ (2) المنافقون : ١٠ ، ١١ (3) النساء : ١٨ (4) النساء : ١٧

فلا يقبل المحو ، الثانى :أن يعاجله المرض أو الموت ، فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو . ولذلك ورد فى الخبر[١] « إنَّ أَكْثَرَ صِيَاحِ أَهْلِ النَّارِ مِنَ التَّسْوِيفِ » فما هلك من هلك إلا بالتسويف . فيكون تسويده القلب نقدا ، وجلاؤه بالطاعة نسيئة ، إلى أن يختطفه الموت فيأتى الله بقلب غير سليم . ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم . فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده ، والعمر أمانة الله عنده . وكذا سائر أسباب الطاعة . فمن خان فى الأمانة ولم يتدارك خيانته ، فأمره مخطر . قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام. أحدهما : إذا خرج من بطن أمه يقول له : عبدى ، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا ، واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة ، وانظر إلىّ كيف تلقانى . والثانى :عند خروج روحه يقول : عبدى ، ماذا صنعت فى أمانتى عندك؟ هل حفظتها حتى تلقانى على العهد ، فألقاك على الوفاء ؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب ؟ وإليه الإشارة بقوله تعالى (أَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ[١]) وبقوله تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ[٢])

بيان

أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهى مقبولة لا محالة

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول ، لم تشك فى أن كل توبة صحيحة فهى مقبولة. فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرءان ، علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله، ومتنعم فى الآخرة فى جوار الله تعالى ، ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى وعلموا أن القلب خلق سليما فى الأصل ، وكل مولود يولد على الفطرة ، وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها . وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة ، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، وأنه لا طاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار ، بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون .

---

(١) حديث إن أكثر صياح أهل النار من التسويف : لم أجد له أصلا

[١] البقرة : ٤٠ [٢] المؤمنون : ٨

وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه . فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون فى جواره . وكما أن استعمال الثوب فى الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب ، وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة . فاستعمال القلب فى الشهوات يوسخ القلب ، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ، ويطهره ، ويزكيه . وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول ، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول . فإنما عليك التزكية والتطهير · وأما القبول فبذول قد سبق به القضاء الأزلي الذى لا مرد له . وهو المسمى فلاحا فى قوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [1])

ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر ، أن القلب يتأثر بالمعاصى والطاعات تأثرا متضادا ، يستعار لأحدهما لفظ الظلمة ، كما يستعار للجهل ، ويستعار للآخر لفظ النور ، كما يستعار للعلم ، وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا ، لا يتصور الجمع بينهما . فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره ، ولم يعلق به إلا أسماؤه ، وقلبه فى غطاء كثيف عن حقيقة الدين ، بل عن حقيقة نفسه ، وصفات نفسه . ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل . وأعنى به قلبه . إذ بقلبه يعرف غير قلبه . فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه!

فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل ، كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول ، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول · إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه فى تجاويف الثوب وخلله ، فلا يقوى الصابون على قلعه . فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب . فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب . نعم : قد يقول باللسان تبت ، فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب ، وذلك لا ينظف الثوب أصلا ، مالم يغير صفة الثوب باستعمال مايضاد الوصف المتمكن به . فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد ، بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا ، المعرضين عن الله بالكلية . فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر فى قبول التوبة . ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات ، والأخبار ، والآثار . فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به . وقد قال تعالى (وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ [2]) وقال تعالى (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ [3]) إلى غير ذلك من الآيات

---

(١) الشمس : ٩ (٢) الشورى : ٢٥ (٣) غافر : ٣

وقال صلى الله عليه وسلم « لَلّٰهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ » الحديث والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة . وقال صلى الله عليه وسلم [1] «إِنَّ اللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالتَّوْبَةِ لِمُسِيءِ اللَّيْلِ إِلَى النَّهَارِ وَلِمُسِيءِ النَّهَارِ إِلَى اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» وبسط اليد كناية عن طلب التوبة . والطالب وراء القابل ، فرب قابل ليس بطالب ، ولا طالب إلا وهو قابل . وقال صلى الله عليه وسلم [2] « لَوْ عَمِلْتُمُ الْخَطَايَا حَتَّى تَبْلُغَ السَّمَاءَ ثُمَّ نَدِمْتُمْ لَتَابَ اللّٰهُ عَلَيْكُمْ » وقال أيضا [3] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ » فقيل كيف ذلك يارسول الله ؟ قال « يَكُونُ نَصْبَ عَيْنِهِ تَائِباً مِنْهُ فَارًّا حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ » وقال صلى الله عليه وسلم [4] « كَفَّارَةُ الذَّنْبِ النَّدَامَةُ » وقال صلى الله عليه وسلم «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ »

ويروى [5] أن حبشيا قال يارسول الله ، إنى كنت أعمل الفواحش ، فهل لى من توبة؟ قال نَعَم . فولّى ثم رجع فقال : يارسول الله ، أكان يرانى وأنا أعملها ؟ قال نَعَم . فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه . ويروى [6] أن الله عز وجل لما لعن ابليس ، سأله النظرة

---

(١) حديث ان الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل الى النهار ـ الحديث : مسلم من حديث أبى موسى بلفظ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ـ الحديث : وفى رواية للطبرانى لمسيء الليل أن يتوب بالنهار ـ الحديث :

(٢) حديث لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم : ابن ماجه من حديث أبى هريرة واسناده حسن بلفظ لو أخطأتم وقال ثم تبتم

(٣) حديث ان العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة ـ الحديث : ابن المبارك فى الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلا ولأبى نعيم فى الحلية من حديث أبى هريرة ان العبد ليذنب الذنب فاذا ذكره أحزنه فاذا نظر الله اليه أنه أحزنه غفر له ـ الحديث : وفيه صالح المرى وهو رجل صالح لكنه مضعف فى الحديث ولابن أبى الدنيا فى التوبة من حديث ابن عمر ان الله لينفع العبد بالذنب يذنبه والحديث غير محفوظ قاله العقيلى

(٤) حديث كفارة الذنب الندامة : أحمد والطبرانى وهق فى الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحى بن عمرو ابن مالك اليشكرى ضعيف

(٥) حديث ان حبشيا قال يارسول الله انى كنت أعمل الفواحش فهل لى من توبة قال نعم ـ الحديث : لم أجد له أصلا

(٦) حديث ان الله لما لعن ابليس سأله النظرة فأنظره الى يوم القيامة فقال وعزتك لاخرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح ـ الحديث : أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد ان الشيطان قال وعزتك يارب لا أزال أغوى عبادك مادامت أرواحهم فى أجسادهم فقال وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى أورده المصنف بصيغة ويروى كذا ولم يعزه الى النبى صلى الله عليه وسلم فذكرته احتياطا

فأنظره إلى يوم القيامة . فقال : وعزتك لاخرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال الله تعالى . وعزتى وجلالى لاحجبت عنه التوبة مادام الروح فيه . وقال صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ كَمَا يُذْهِبُ الْمَاءُ الْوَسَخَ » والأخبار فى هذا لا تحصى

وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب: أنزل قوله تعالى(فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا[1]) فى الرجل يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب . وقال الفضيل : قال الله تعالى : بشر المذنبين بأنهم ان تابوا قبلت منهم . وحذر الصديقين أنى إن وضعت عليهم عدلى عذبتهم وقال طلق بن حبيب . إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : من ذكر خطيئة ألم بها ، فوجل منها قلبه ، محيت عنه فى أم الكتاب ويروى أن نبيا من أنبياء بنى اسرائيل أذنب، فأوحى الله تعالى إليه ، وعزتى لئن عدت لأعذبنك . فقال يارب ، أنت أنت ، وأنا أنا ، وعزتك إن لم تعصمنى لأعودن . فعصمه الله تعالى . وقال بعضهم . إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة . فيقول إبليس . ليتنى لم أوقعه فى الذنب . وقال حبيب بن ثابت. تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة ، فيمر بالذنب فيقول : أما إنى قد كنت مشفقا منه ، قال فيغفر له . ويروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به ، هل له من توبة ؟ فأعرض عنه ابن مسعود ، ثم التفت إليه ، فرأى عينيه تذرفان . فقال له : إن للجنة ثمانية أبواب ، كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة ، فإن عليه ملكا موكلا به لا يغلق ، فاعمل ولا تيأس .

وقال عبد الرحمن بن أبى القاسم . تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر ، وقول الله تعالى(إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ[2]) فقال إنى لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالا . ولقد بلغنى أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام . وقال عبد الله بن سلام . لا أحدثكم إلا عن نبى مرسل ، أو كتاب منزل . إن العبد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين ، سقط عنه أسرع من طرفة عين . وقال عمر رضى الله عنه : اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة .

---

(١) حديث ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ : لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى وهو بمعنى أتبع السيئة الحسنة تمحها رواه الترمذى وتقدم قريبا

(١) الاسراء : ٢٥ (٢) الانفال ٣٨

بعضهم : أنا أعلم متى يغفر الله لى . قيل ومتى ؟ قال إذا تاب على . وقال آخر : أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة . أى المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة

ويروى أنه كان فى بنى إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ، ثم عصاه عشرين سنة . ثم نظر فى المرآة فرأى الشيب فى لحيته ، فساءه ذلك ، فقال : إلهى أطعتك عشرين سنة ، ثم عصيتك عشرين سنة . فإن رجعت إليك أتقبلنى ؟ فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا . أحببتنا فأحببناك ، وتركتنا فتركناك ، وعصيتنا فأمهلناك ، وإن رجعت إلينا قبلناك

وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى : إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب ، وسقوها بماء التوبة ، فأثمرت ندما وحزنا ، فجنوا من غير جنون ، وتبلدوا من غير عىّ ولا بكم ، وأنهم هم البلغاء الفصحاء ، العارفون بالله ورسوله ، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ، ثم تولهت قلوبهم فى الملكوت ، وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت ، واستظلوا تحت رواق الندم ، وقرؤا صحيفة الخطايا ، فأورثوا أنفسهم الجزع ، حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع ، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا ، واستلانوا خشونة المضجع ، حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة ، وسرحت أرواحهم فى العلا ، حتى أناخوا فى رياض النعيم ، وخاضوا فى بحر الحياة ، وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى ، حتى نزلوا بفناء العلم ، واستقوا من غدير الحكمة ، وركبوا سفينة الفطنة ، وأقلعوا بريح النجاة فى بحر السلامة ، حتى وصلوا إلى رياض الراحة ، ومعدن العز والكرامة . فهذا القدر كاف فى بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لا محالة

فإن قلت : أفتقول ماقالته المعتزلة ، من أن قبول التوبة واجب على الله

فأقول : لا أعنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله ، إلا مايريده القائل بقوله إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ . وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش . وإنه إذا منع الماء مدة وجب العطش . وإنه إذا دام العطش وجب الموت وليس فى شىء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى . بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية ، والحسنة ماحية للسيئة ، كما خلق الماء مزيلا للعطش ، والقدرة متسعة لخلافه لو سبقت به المشيئة ، فلا واجب على الله تعالى . ولكن ماسبقت به إرادته

الأزلية فواجب كونه لامحالة . فإن قلت : فما من تائب إلا وهو شاك فى قبول توبته والشارب للماء لا يشك فى زوال عطشه ، فلم يشك فيه

فأقول :شكه فى القبول كشكه فى وجود شرائط الصحة . فإن للتوبة أركانا وشروطا دقيقة كما سيأتى ، وليس يتحقق وجود جميع شروطها ، كالذى يشك فى دواء شربه للإسهال فى أنه هل يسهل ، وذلك لشكه فى حصول شروط الإسهال فى الدواء ، باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه ، وجودة عقاقيره وأدويته . فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة ، وموجب للشك فى قبولها لامحالة ، على ما سيأتى فى شروطها إن شاء الله تعالى

الركن الثانى

فيما عنه التوبة وهى الذنوب صغائرها وكبائرها

اعلم أن التوبة ترك الذنب . ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته وإذا كانت التوبة واجبة ، كان مالا يتوصل إليها إلا به واجبا . فمعرفة الذنوب إذاً واجبة . والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى ، فى ترك أو فعل . وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكليفات من أولها إلى آخرها ، وليس ذلك من غرضنا . ولكنا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها ، والله الموفق للصواب برحمته

بيان

أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم أن للإنسان أوصافا وأخلاقا كثيرة ، على ماعرف شرحه فى كتاب عجائب القلب وغوائله . ولكن تنحصر مثارات الذنوب فى أربع صفات : صفات ربوبية ، وصفات شيطانية ، وصفات بهيمية ، وصفات سبعية . وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة ، فاقتضى كل واحد من الأخلاط فى المعجون منه أثرا من الآثار ، كما يقتضى السكر والخل ، والزعفران ، فى السكنجبين آثارا مختلفة

فأما ما يقتضى النزوع إلى الصفات الربوبية ، فمثل الكبر ، والفخر ، والجبرية ، وحب

المدح ، والثناء ، والعز ، والغنى ، وحب دوام البقاء ، وطلب الاستعلاء على الكافة ، حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى . وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب ، غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا ، وهى المهلكات العظيمة ، التى هى كالأمهات لأكثر المعاصى ، كما استقصيناه فى ربع المهلكات

الثانية : هى الصفة الشيطانية ، التى منها يتشعب الحسد ، والبغى ، والحيلة ، والخداع والأمر بالفساد والمنكر . وفيه يدخل الغش ، والنفاق ، والدعوة إلى البدع والضلال

الثالثة : الصفة البهيمية ، ومنها يتشعب الشره ، والكلب ، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج . ومنه يتشعب الزنا ، واللواط ، والسرقة وأكل مال الأيتام ، وجمع الحطام لأجل الشهوات

الرابعة : الصفة السبعية ، ومنها يتشعب الغضب ، والحقد ، والتهجم على الناس بالضرب والشتم ، والقتل ، واستهلاك الأموال . ويتفرع عنها جمل من الذنوب .

وهذه الصفات لها تدريج فى الفطرة ، فالصفة البهيمية هى التى تغلب أولا ، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل فى الخداع ، والمكر ، والحيلة ، وهى الصفة الشيطانية ، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية ، وهى الفخر ، والعز ، والعلو ، وطلب الكبرياء ، وقصد الاستيلاء على جميع الخلق .

فهذه أمهات للذنوب ومنابعها . ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح ، فبعضها فى القلب خاصة كالكفر ، والبدعة ، والنفاق ، وإضمار السوء للناس . وبعضها على العين والسمع ، وبعضها على اللسان ، وبعضها على البطن والفرج ، وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن . ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح — قسمة ثانية : —

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى ، وإلى ما يتعلق بحقوق العباد . فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة ، والصوم ، والواجبات الخاصة به . وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة ، وقتله النفس ، وغصبه الأموال ، وشتمه الأعراض . وكل متناول من حق الغير فإما نفس ، أو طرف ، أو مال ، أو عرض ، أو دين ، أو جاه . وتناول الدين بالإغواء ، والدعاء إلى البدعة ، والترغيب فى المعاصى ، وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف ، وما يتعلق بالعباد ، فالأمر فيه أغلظ

وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركا ، فالعفو فيه أرجى وأقرب وقد جاء في الخبر [1] « الدَّوَاوِينُ ثَلاَثَةٌ دِيوَانٌ يُغْفَرُ وَدِيوَانٌ لاَ يُغْفَرُ وَدِيوَانٌ لاَ يُتْرَكُ فَالدِّيوَانُ الَّذِي يُغْفَرُ ذُنُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لاَ يُغْفَرُ ، فَالشِّرْكُ بِاللهِ تَعَالَى وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لاَ يُتْرَكُ فَمَظَالِمُ الْعِبَادِ » أي لابد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها . قسمة ثالثة :ــ

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر . وقد كثر اختلاف الناس فيها . فقال قائلون لا صغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة وهذا ضعيف . إذ قال تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا [1]) وقال تعالى (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ [2]) وقال صلى الله عليه وسلم [2] « الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ يُكَفِّرْنَ مَا بَيْنَهُنَّ إِنِ اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ » وفي لفظ آخر « كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلَّا الْكَبَائِرَ » وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه [3] عبد الله بن عمرو بن العاص « الْكَبَائِرُ الْإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ »

واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر ، من أربع ، إلى سبع ، إلى تسع ، إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك . فقال ابن مسعود . هن أربع : وقال ابن عمر : هن سبع . وقال عبد الله بن عمرو . هن تسع وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع يقول : هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع . وقال مرة . كل مانهى الله عنه فهو كبيرة وقال غيره : كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر . وقال بعض السلف . كل ما أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة . وقيل إنها مبهمة لا يعرف عددها ، كليلة القدر ، وساعة يوم الجمعة . وقال ابن مسعود لما سئل عنها . اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ [3]) فكل مانهى الله عنه

---

(١) حديث الدواوين ثلاثة ديوان يغفر ــ الحديث : أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة وفيه صدقة ابن موسى الدقيقي ضعفه ابن معين وغيره وله شاهد من حديث سلمان ورواه الطبراني

(٢) حديث الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن ان اجتنبت الكبائر : مسلم من حديث أبي هريرة

(٣) حديث عبد الله بن عمرو الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس : رواه البخاري

---

(١) النساء : ٣١ (٢) النجم : ٣٢ (٣) النساء : ٣١

فى هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب المكى . الكبائر سبع عشرة ، جمعتها من جملة الأخبار (١) . وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن عمر

---

(١) الأخبار الواردة فى الكبائر حكى المصنف عن أبى طالب المكى أنه قال الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم الشرك بالله والاصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره وشهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس والسحر وشرب الخمر والمسكر وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا والزنا واللواط والقتل والسرقة والفرار من الزحف وعقوق الوالدين انتهى وسأذكر ماورد منها مرفوعا وقد تقدم أربعة منها فى حديث عبد الله بن عمرو وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يارسول الله وماهى قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات ولهما من حديث أبى بكرة ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أوقال قول الزور ولهما من حديث أنس سئل عن الكبائر قال الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال قول الزور أوقال شهادة الزور ولهما من حديث ابن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزانى حليلة جارك وللطبرانى من حديث سلمة بن قيس إنما هى أربع لاتشركوا بالله شيئا ولاتقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ولاتزنوا ولاتسرقوا وفى الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت بايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئا ولاتزنوا ولاتسرقوا وفى الاوسط للطبرانى من حديث ابن عباس الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر وفيه موقوفا على عبد الله بن عمرو أعظم الكبائر شرب الخمر وكلاهما ضعيف وللبزار من حديث ابن عباس باسناد حسن ان رجلا قال يارسول الله ما الكبائر قال الشرك بالله والاياس من روح الله والقنوط من رحمة الله وله من حديث بريدة أكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين ومنع فضل الماء ومنع الفحل وفيه صالح بن حبان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما وله من حديث أبى هريرة الكبائر أولهن الاشراك بالله وفيه والانتقال إلى الاعراب بعد هجرته وفيه خالد بن يوسف السمتى ضعيف وللطبرانى فى الكبير من حديث سهل بن أبى حثمة فى الكبائر والتعرب بعد الهجرة وفيه ابن لهيعة وله فى الأوسط من حديث أبى سعيد الخدرى الكبائر سبع وفيه والرجوع إلى الاعرابية بعد الهجرة وفيه أبو بلال الاشعرى ضعفه الدارقطنى وللحاكم من حديث عبيد ابن عمير عن أبيه الكبائر تسع فذكر منها واستحلال البيت الحرام وللطبرانى من حديث واثلة ان من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على مالم أقل وله أيضا من حديثه ان من أكبر الكبائر أن ينتفى الرجل من ولده ولمسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو من الكبائر شتم الرجل والديه ولأبى داود من حديث سعيد ابن زيد من أربى الربا الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق وفى الصحيحين من حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم مر على قبرين فقال انهما ليعذبان ومايعذبان فى كبير وانه لكبير أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة وأما الآخر فكان لايستتر من بوله ـ الحديث : ولأحمد فى هذه القصة من حديث أبى بكرة أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس الحديث : ولأبى داود والترمذى من حديث

وغـــيرهم ، أربعة فى القلب ، وهى الشرك بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمته ، والأمن من مكـره . وأربع فى اللسان ، وهى شهادة الزور ، وقذف المحصن واليمين الغموس ، وهى التى يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا ، وقيل هى التى يقتطع بها مال امرىء مسلم باطلا ولوسواكا من أراك ، وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى النار ، والسحر ، وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة

وثلاث فى البطن ، وهى شرب الخمـر والمسكر من كل شراب ، وأكل مال اليتيم ظلمـا ، وأكل الربا وهو يعلم . واثنتان فى الفرج ، وهما الزنا واللواط .

واثنتان فى اليدين ، وهما القتل والسرقة . وواحدة فى الرجلين ، وهو الفرار من الزحف ، الواحد من اثنين ، والعشرة من العشرين . وواحدة فى جميع الجسـد ، وهى عقوق الوالدين ، قال وجملة عقوقهما أن يقسما عليه فى حق فلا يبر قسمهما . وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما . وإن يسباه فيضربهما . ويجوعان فلا يطعمهما

هذا ماقاله وهو قريب ، ولـكن ليس يحصل به تمـام الشفاء ، إذ يمكن الزيادة عليـه والنقصان منه . فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الـكبائر ، وهى جناية على الأموال

انس عرضت على ذنوب أمتى فلم أردنبا أعظم من سورة من القرءان أوآية أوتيها رجل ثم نسيهاسكت عليه أبوداود واستغربه البخارى والترمذى وروى ابن أبى شيبة فى التوبة من حديث ابن عباس لاصغيرة مع اصرار وفيه أبوشيبة الخراسانى والحديث منكر يعرف به (وأما الموقوفات) فروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال الـكبائر الاشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله وروى البيهقى فيه عن ابن عباس قال الـكبائر الاشراك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وعقوق الوالدين وقتل النفس التى حرم الله وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف وأكل الربا والسحر والزنا واليمين الغموس الفاجرة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتمان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متعمدا وأشياء مما فرضها الله ونقض العهد وقطيعة الرحم وروى ابن أبى الدنيا فى التوبة عن ابن عباس كل ذنب أصر عليه العبد كبير وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس قوله لاصغيرة مع الاصرار واسناده جيد فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أواثنان وثلاثون الا أن بعضها لايصح اسناده كما تقدم وانما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ماورد فى المرفوع وماورد فى الموقوف وللبيهقى فى الشعب عن ابن عباس أنه قيل له الـكبائر سبع فقال هى إلى السبعين أقرب وروى البيهقى أيضا فيه عن ابن عباس قال كل مانهى الله عنه كبيرة والله أعلم

ولم يذكر فى كبائر النفوس إلا القتل . فأما فقء العين ، وقطع اليدين ، وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب ، فلم يتعرض له . وضرب اليتيم وتعذيبه ، وقطع أطرافه لاشك فى أنه أكبر من أكل ماله . كيف وفى الخبر « مِنَ الْكَبَائِرِ [1] السُّبَّتَانِ بِالسُّبَّةِ وَمِنَ الْكَبَائِرِ اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ » وهذا زائد على قذف المحصن. وقال [2] أبو سعيد الخدرى وغيره من الصحابة . إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر

وقالت طائفة كل عمد كبيرة ، وكل مانهى الله عنه فهو كبيرة : وكشف الغطاء عن هذا: أن نظر الناظر فى السرقة أهى كبيرة أم لا ، لايصح ، مالم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها . كقول القائل : السرقة حرام أم لا ، لامطمع فى تعريفه إلا بعد تقرر معنى الحرام أولا ثم البحث عن وجوده فى السرقة . فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ، ليس له موضوع خاص فى اللغة ولا فى الشرع . وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات ، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مادونه ، وصغير بالإضافة إلى مافوقه . فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزنا . وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه صغيرة بالإضافة إلى قتله. نعم للإنسان أن يطلق على ماتوعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة . ونعني بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة . وله أن يطلق على ما أوجب الحد عليه مصيرا إلى أن ماعجل عليه فى الدنيا عقوبة واجبة عظيما ، وله أن يطلق على ماورد فى نص الكتاب النهى عنه ، فيقول تخصيصه بالذكر فى القرءان يدل على عظمه ، ثم يكون عظيما وكبيرة لامحالة بالإضافة . إذ منصوصات القرءان أيضا تتفاوت درجاتها

فهذه الإطلاقات لاحرج فيها . ومانقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ،

---

(١) حديث من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم : عزاه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس لأحمد وأبى داود من حديث سعيد بن زيد والذى عندهما من حديثه من أربى الربا استطالة فى عرض المسلم بغير حق كما تقدم

(٢) حديث أبى سعيد الخدرى وغيره من الصحابة انكم تعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر أحمد والبزار بسند صحيح وقال من الموبقات بدل الكبائر ورواه البخارى من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال صحيح الاسناد

ولا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الاحتمالات . نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ [1]) وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصَّلَوَاتُ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلَّا الْكَبَائِرَ » فإن هذا إثبات حكم الكبائر

والحق فى ذلك أن الذنوب منقسمة فى نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها ، وإلى ما يعلم أنها معدودة فى الصغائر ، وإلى ما يشك فيه فلا يدرى حكمه : فالطمع فى معرفة حد حاصر ، أو عدد جامع مانع ، طلب لما لا يمكن . فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأن يقول إنى أردت بالكبائر عشرا ، أو خمسا ، ويفصلها . فإن لم يرد هذا ، بل ورد فى بعض الألفاظ [1] ثلاث من الكبائر ، وفى بعضها [2] سبع من الكبائر . ثم ورد أن السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر ، وهو خارج عن السبع والثلاث ، علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر . فكيف يطمع فى عدد مالم يعده الشرع ؟ وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل ، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس فى طلبها . نعم لنا سبيل كلى يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب ونعرف أيضا أكبر الكبائر . فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته

وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا ، أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى ، وسعادة لقائه . وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ، وكتبه ورسله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [2]) أى ليكونوا عبيدا لى . ولا يكون العبد عبدا مالم يعرف ربه بالربوبية ، ونفسه بالعبودية . ولا بد أن يعرف نفسه وربه . فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء . ولكن لا يتم هذا إلا فى الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه السلام [3] « الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ »

---

(١) حديث ثلاث من الكبائر : الشيخان من حديث أبى بكرة ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا ـ الحديث : وقد تقدم

(٢) حديث سبع من الكبائر : طب فى الاوسط من حديث أبى سعيد الكبائر سبع وقد تقدم وله فى الكبير من حديث عبد الله بن عمر من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر ـ الحديث : ثم عدهن سبعا وتقدم عن الصحيحين حديث أبى هريرة اجتنبوا السبع الموبقات

(٣) حديث الدنيا مزرعة الآخرة : لم أجده بهذا اللفظ مرفوعا وروى العقيلى فى الضعفاء وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته ـ الحديث : وإسناده ضعيف

---

(١) النبأ : ٣١ (٢) الذاريات : ٥٦

فصار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا للدين ، لأنه وسيلة إليه . والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئآن: النفوس والأموال. فكل مايسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر، ويليه مايسد باب حياة النفوس، ويليه مايسد باب المعايش التي بها حياة النفوس، فهذه ثلاث مراتب

فحفظ المعرفة على القلوب ، والحياة على الأبدان ، والأموال على الأشخاص ، ضروري في مقصود الشرائع كلها . وهذه ثلاثة أمور لايتصور أن يختلف فيها الملل . فلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبيا يريد ببعثه إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم، ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله ، أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال . فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب

الأولى : مايمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله ، وهو الكفر . فلا كبيرة فوق الكفر . إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل. والوسيلة المقربة له إليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته ، وبعده بقدر جهله . ويتلو الجهل الذي يسمى كفرا ، الأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمته . فإن هذا أيضا عين الجهل . فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمنا ، ولا أن يكون آيسا . ويتلو هذه الرتبة البدع كلها ، المتعلقة بذات الله ، وصفاته ، وأفعاله . وبعضها أشد من بعض . وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها ، وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه ، وبأفعاله، وشرائعه ، وبأوامره ، ونواهيه ومراتب ذلك لاتنحصر وهي تنقسم إلى مايعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرءان وإلى مايعلم أنه لايدخل ، وإلى مايشك فيه . وطلب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطمع

المرتبة الثانية : النفوس . إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة ، وتحصل المعرفة بالله . فقتل النفس لامحالة من الكبائر ، وإن كان دون الكفر . لأن ذلك يصدم عين المقصود ، وهذا يصدم وسيلة المقصود . إذ حياة الدنيا لاتراد إلا للآخرة ، والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى

ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف ، وكل مايفضي إلى الهلاك ، حتى الضرب ، وبعضها أكبر من بعض . ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط ، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود. وأما الزنا فإنه لايفوت أصل الوجود ، ولكن يشوش الأنساب ، ويبطل التوارث والتناصر

وجملة من الأمور التى لا ينتظم العيش إلا بها . بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنا ، ولا ينتظم أمور البهائم مالم يتميز الفحل منها بإناث يختص بها عن سائر الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا فى أصل شرع قصد به الإصلاح . وينبغى أن يكون الزنا فى الرتبة دون القتل ، لأنه ليس يفوت دوام الوجود ، ولا يمنع أصله ، ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرك من الأسباب مايكاد يفضى إلى التقاتل . وينبغى أن يكون أشد من اللواط ، لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين ، فيكثر وقوعه ، ويعظم أثر الضرر بكثرته

المرتبة الثالثة : الأموال . فإنها معايش الخلق ، فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا ، حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما . بل ينبغى أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس . إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها ، وإن أكلت أمكن تغريمها . فليس يعظم الأمر فيها نعم : إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له ؛ فينبغى أن يكون ذلك من الكبائر وذلك بأربع طرق

أحدها : الخفية ، وهى السرقة . فإنه إذا لم يطلع عليه غالبا كيف يتدارك ؟

الثانى : أكل مال اليتيم . وهذا أيضا من الخفية . وأعنى به فى حق الولى والقيم . فإنه مؤتمن فيه ، وليس له خصم سوى اليتيم ، وهو صغير لا يعرفه . فتعظيم الأمر فيه واجب ، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف ، وبخلاف الخيانة فى الوديعة ، فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه .

الثالث : تفويتها بشهادة الزور

الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس . فإن هذه طرق لا يمكن فيها التدارك . ولا يجوز أن تختلف الشرائع فى تحريمها أصلا ، وبعضها أشد من بعض ، وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس .

وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر ؛ وإن لم يوجب الشرع الحد فى بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها ، وعظم فى مصالح الدنيا تأثيرها

وأما أكل الربا . فليس فيه إلا أكل مال الغير بالتراضى ، مع الإخلال بشرط وضعه الشرع . ولا يبعد أن تختلف الشرائع فى مثله . وإذا لم يجعل الغصب الذى هو أكل مال الغير بغير رضاه ، وبغير رضا الشرع من الكبائر ، فأكل الربا أكل برضا المالك ، ولكن

دون رضا الشرع . وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة . والمصير إلى أن أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر . وذلك واقع فى مظنة الشك . وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر ، بل ينبغى أن تختص الكبيرة بما لايجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا فى الدين

فيبقى مما ذكره أبو طالب المكى ، القذف ،والشرب ، والسحر ، والفرار من الزحف ، وحقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل ، فهو جدير بأن يكون من الكبائر . وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا . لأن العقل محفوظ ، كما أن النفس محفوظة بل لاخير في النفس دون العقل . فإزالة العقل من الكبائر . ولكن هذا لايجرى فى قطرة من الخمر ، فلا شك فى أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة ، وإنما هو شربُ ماء نجس . والقطرة وحدها فى محل الشك . وإيجاب الشرع الحدّ به يدل على تعظيم أمره ، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع ، وليس فى قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فإن ثبت إجماع فى أنه كبيرة وجب الاتباع ، وإلا فللتوقف فيه مجال

وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض ، والأعراض دون الأموال فى الرتبة . ولتناولها مراتب : وأعظمها التناول بالقذف ، بالإضافة إلى فاحشة الزنا ، وقد عظم الشرع أمره . وأظن ظنا غالبا أن الصحابة كانوا يعدون كل مايجب به الحد كبيرة ، فهو بهذا الاعتبار لاتكفره الصلوات الخمس ، وهو الذى نريده بالكبيرة الآن . ولكن من حيث أنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع ، فالقياس بمجرده لايدل على كبره وعظمته . بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزنى ، فله أن يشهد ، ويجلد المشهود عليه بمجرد شهادته . فإن لم تقبل شهادته فحده ليس ضروريا فى مصالح الدنيا ، وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة فى رتبة الحاجات . فإذاً هذا أيضا يلحق بالكبائر فى حق من عرف حكم الشرع . فأما من ظن أن له أن يشهد وحده ، أوظن أنه يساعده على شهادة غيره ، فلا ينبغى أن يجعل فى حقه من الكبائر

وأما السحر ، فإن كان فيه كفر فكبيرة ، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذى يتولد منه من هلاك نفس ، أومرض ، أوغيره

وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف . وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا ، وضربهم ، والظلم لهم بغصب أموالهم ، وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإجلائهم من أوطانهم ، ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة ، وهو أكبر ماقيل فيه ، فالتوقف في هذا أيضا غير بعيد ، ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر

فإذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نعني بالكبيرة مالا تكفره الصلوات الخمس بحكم الشرع وذلك مما انقسم إلى ماعلم أنه لاتكفره قطعا ، وإلى ما ينبغي أن تكفره ، وإلى ما يتوقف فيه والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفي والإثبات ، وبعضه مشكوك فيه ، وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة . وإذاً لامطمع فيه ، فطلب رفع الشك فيه محال

فإن قلت : فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها . فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده فاعلم أن كل مالا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإبهام ، لأن دار التكليف هي دار الدنيا . والكبيرة على الخصوص لاحكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة . بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها ، كالسرقة والزنا وغيرهما . وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها وهذا أمر يتعلق بالآخرة ، والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر ، فلا يتجرءون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ [1]) ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة . كمن يتمكن من امرأة ، ومن مواقعتها ، فيكف نفسه عن الوقاع ، فيقتصر على نظر أو لمس فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع ، أشد تأثيرا في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه . فهذا معنى تكفيره . فإن كان عنينا ، أولم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز ، أو كان قادرا ولكن امتنع لخوف أمر آخر ، فهذا لا يصلح للتكفير أصلا وكل من لا يشتهي الخمر بطبعه ، ولو أبيح له لما شربه ، فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي

---

(١) النساء : ٣١

من مقدماته ، كسماع الملاهى والأوتار . نعم: من يشتهى الخمر وسماع الأوتار ، فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ، ويطلقها فى السماع ، فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التى ارتفعت إليه من معصية السماع

فكل هذه أحكام أخروية ، ويجوز أن يبقى بعضها فى محل الشك، وتكون من المتشابهات ، فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ، ولم يرد النص بعد ، ولا حد جامع، بل ورد بألفاظ مختلفات . فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « الصَّلَاةُ إِلَى الصَّلَاةِ كَفَّارَةٌ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَةٌ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ إِشْرَاكٌ بِاللهِ وَتَرْكُ السُّنَّةِ وَنَكْثُ الصَّفْقَةِ » قيل ما ترك السنة ؟ قيل الخروج عن الجماعة، ونكث الصفقة أن يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله . فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع ، فيبقى لا محالة مبهما

فإن قلت الشهادة لا تقبل إلا ممن يجتنب الكبائر ، والورع عن الصغائر ليس شرطا فى قبول الشهادة ، وهذا من أحكام الدنيا ، فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر . فلا خلاف فى أن من يسمع الملاهى ، ويلبس الديباج ، ويتختم بخاتم الذهب، ويشرب فى أوانى الذهب والفضة ، لا تقبل شهادته ، ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر . وقال الشافعى رضى الله عنه: إذا شرب الحنفى النبيذ حددته ، ولم أرد شهادته . فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ، ولم يرد به الشهادة. فدل على أن الشهادة نفيا وإثباتا لا تدور على الصغائر والكبائر . بل كل الذنوب تقدح فى العدالة، إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالبا بضرورة مجارى العادات ، كالغيبة، والتجسس، وسوء الظن ، والكذب فى بعض الأقوال ، وسماع الغيبة ، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأكل الشبهات ، وسب الولد والغلام ، وضربهما بحكم الغضب زائدا على المصلحة ، وإكرام السلاطين الظلمة ، ومصادقة الفجار ، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين . فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ، ويتجرد لأمور الآخرة ، ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك . ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده ، وبطلت الأحكام .

(١) حديث الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفة ـ الحديث : الحاكم من حديث أبى هريرة نحوه وقال صحيح الاسناد

والشهادات . وليس لبس الحرير ، وسماع الملاهى ، واللعب بالنرد ، ومجالسة أهل الشرب فى وقت الشرب ؛ والخلوة بالأجنبيات ، وأمثال هذه الصغائر من هذاالقبيل .فإلى مثل هذا المنهاج ينبغى أن ينظر فى قبول الشهادة وردها ، لاإلى الكبيرة والصغيرة

ثم آحاد هذه الصغائر التى لاترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر فى رد الشهادة . كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة . وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم . والصغيرة تكبر بالمواظبة ، كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج ، والترنم بالغناء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر

بيان

كيفية توزع الدرجات والدركات فى الآخرة على الحسنات والسيئات فى الدنيا

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة ، والآخرة من عالم الغيب والملكوت . وأعنى بالدنيا حالتك قبل الموت ، وبالآخرة حالتك بعد الموت.فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الدانى منها دنيا ، والمتأخر آخرة . ونحن الآن نتكلم من الدنيا فى الآخرة فإنا الآن نتكلم فى الدنيا وهو عالم الملك ، وغرضنا شرح الآخرة وهى عالم الملكوت . ولا يتصور شرح عالم الملكوت فى عالم الملك إلا بضرب الأمثال . ولذلك قال تعالى (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ [1]) وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا » وما سيكون فى اليقظة لايتبين لك فى النوم ، إلا الأمثال المحجوبة إلى التعبير ، فكذلك ما سيكون فى يقظة الآخرة لايتبين فى نوم الدنيا إلافى كثرة الأمثال . وأعنى بكثرة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير .

ويكفيك منه إن كنت فطنا ثلاثة أمثلة . فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال : رأيت كأن فى يدى خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال إنك مؤذن تؤذن فى رمضان

---

(١) حديث الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا : لم أجده مرفوعا وانما يعزى الى على بن أبي طالب

(١) العنكبوت : ٤٣

قبل طلوع الفجر . قال صدقت . وجاء رجل آخر فقال : رأيت كأنى أصب الزيت فى الزيتون . فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها ، فإنها أمك سبيت فى صغرك ، لأن الزيتون أصل الزيت ، فهو يرد إلى الأصل . فنظر فإذا جاريته كانت أمه ، وقد سبيت فى صغره . وقال له آخر : رأيت كأنى أقلد الدر فى أعناق الخنازير . فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها ، فكان كما قال

والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال . وإنما نعنى بالمثل أداء المعنى فى صورة إن نظر إلى معناه وجد صادقا . وإن نظر إلى صورته وجده كاذبا . فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا ، فإنه لم يختم به قط . وإن نظر إلى معناه وجد صادقا ، إذ صدر منه روح الختم ، ومعناه ، وهو المنع الذى يراد الختم له . وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال ، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وقدر عقولهم أنهم فى النوم ، والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل ، فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ » وهو من المثال الذى لا يعقله إلا العالمون . فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثال ، لجهله بالتفسير الذى يسمى تأويلا ، كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة فى النوم تعبيرا ، فيثبت لله تعالى يدا وأصبعا ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا

وكذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ اللّٰهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة ، فيثبت لله تعالى مثل ذلك ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا

ومن ههنا زل من زل فى صفات إلهية ، حتى فى الكلام ، وجعلوه صوتا وحرفا إلى غير ذلك من الصفات ، والقول فيه يطول

وكذلك قد يرد فى أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد ، بجمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم [٣] « يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِى صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُذْبَحَ » فيثور الملحد الأحمق ويكذب ، ويستدل به على كذب الأنبياء

---

(١) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن : تقدم

(٢) حديث ان الله خلق آدم على صورته : تقدم

(٣) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش أملح فيذبح : متفق عليه من حديث أبى سعيد

ويقول : ياسبحان الله ، الموت عرض ، والكبش جسم ، فكيف ينقلب العرض جسما وهل هذا إلا محال ! ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسراره فقال (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ [١]) ولا يدرى المسكين أن من قال : رأيت فى منامى أنه جيء بكبش ، وقيل هذا هو الوباء الذى فى البلد ، وذبح ، فقال المعبر : صدقت ، والأمر كما رأيت ، وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط ، لأن المذبوح وقع اليأس منه ، فإذن المعبر صادق فى تصديقه ، وهو صادق فى رؤيته . وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا ، وهو الذى يطلع الأرواح عند النوم على مافى اللوح المحفوظ ، عرفه بما فى اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لأن النائم إنما يحتمل المثال ، فكان مثاله صادقا ، وكان معناه صحيحا

فالرسل أيضا إنما يكلمون الناس فى الدنيا ، وهى بالإضافة إلى الآخرة نوم ، فيوصلون المعانى إلى أفهامهم بالأمثلة ، حكمة من الله ، ولطفا بعباده ، وتيسيرا لإدراك مايعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل . فقوله يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح ، مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت ، وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة ، وثبوت المعانى فيها بواسطتها . ولذلك عبر القرءان بقوله (كُنْ فَيَكُونُ [٢]) عن نهاية القدرة ، وعبر صلى الله عليه وسلم ، بقوله « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ » عن سرعة التقليب وقد أشرنا إلى حكمة ذلك فى كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات، فلنرجع الآن إلى الغرض

فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات، لايمكن إلا بضرب المثال ، فلتفهم من المثل الذى نضربه معناه لاصورته ، فنقول :

الناس فى الآخرة ينقسمون أصنافا وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم فى السعادة والشقاوة تفاوتا لايدخل تحت الحصر ، كما تفاوتوا فى سعادة الدنيا وشقاوتها . ولا تفارق الآخرة فى هذا المعنى أصلا ألبتة ، فإن مدبر الملك والملكوت واحد لاشريك له ، وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لاتبديل لها ، إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات ، فلا نعجز عن إحصاء الأجناس فنقول :

الناس ينقسمون فى الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين

---

(١) العنكبوت : ٤٣ (٢) يس : ٨٢

وفائزين . ومثاله في الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم ، فيقتل بعضهم فهم الهالكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ، ويخلى بعضهم فهم الناجون ، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون . فإن كان الملك عادلا ، لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك ؛ معانداً له في أصل الدولة . ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته . ولا يخلى إلا معترفا له برتبة الملك ، لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه . ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة ، ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة ، وإهلاك الهالكين إما تحقيقا بحز الرقبة ، أو تنكيلا بالمثلة ، بحسب درجاتهم في المعاندة ، وتعذيب المعذبين في الخفة ، والشدة ، وطول المدة وقصرها ، واتحاد أنواعها واختلافها ، بحسب درجات تقصيرهم

فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر . فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون . فمن هالك ، ومن معذب مدة ، ومن ناج يحل في دار السلامة ، ومن فائز . والفائزون ينقسمون إلى من يحلون في جنات عدن ، أو جنات المأوى أو جنات الفردوس . والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلا ، وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة (١) ، وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد في الخبر . وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم . وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي ، فلنذكر كيفية توزعها عليها

الرتبة الأولى : وهي رتبة الهالكين . ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى ، إذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه أيس من رضا الملك وإكرامه ، فلا تغفل عن معاني المثال . وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين ، المتجردين للدنيا ، المكذبين بالله ورسله وكتبه . فإن السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه ، وذلك لا ينال أصلا إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق . والجاحدون هم المنكرون ، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد ، وهم الذين يكذبون برب العالمين ،

---

(١) حديث ان آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة : الترمذي الحكيم في نوادر الاصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه وأطولهم مكثا فيها مثل الدنيا من يوم خلقت الى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة

وبأنبيائه المرسلين ، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لامحالة ، وكل محجوب عن محبوبه فمحول بينه وبين مايشتهيه لامحالة، فهو لامحالة يكون محترقا نار جهنم بنار الفراق. ولذلك قال العارفون : ليس خوفنا من نار جهنم ، ولا رجاؤنا للحور العين ، وإنما مطلبنا اللقاء ، ومهربنا من الحجاب فقط . وقالوا : من يعبدالله بعوض فهولئيم ، كأن يعبده لطلب جنته، أو لخوف ناره. بل العارف يعبده لذاته ، فلا يطلب إلا ذاته فقط . فأما الحور العين والفواكه ، فقد لايشتهيها . وأما النار ، فقد لايتقيها . إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام . فإن نار الفراق نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة . ونار جهنم لاشغل لها إلا مع الأجسام ، وألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد ، ولذلك قيل

وفى فؤاد المحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغى أن تنكر هذا فى عالم الآخرة ، إذ له نظير مشاهد فى عالم الدنيا، فقد رؤى من غلب عليه الوجد فعدا على النار ، وعلى أصول القصب الجارحة للقدم ، وهو لايحس به لفرط غلبة مافى قلبه . وترى الغضبان يستولى عليه الغضب فى القتال ، فتصيبه جراحات وهو لايشعر بها فى الحال ، لأن الغضب نار فى القلب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « اَلْغَضَبُ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ » واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد ، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه ، فليس الهلاك من النار والسيف ، إلا من حيث إنه يفرق بين جزأين . يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن فى الأجسام . فالذى يفرق بين القلب وبين محبوبه الذى يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاما من تأليف الأجسام ، فهو أشد إيلاما إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب . ولا يبعد أن لايدرك من لاقلب له شدة هذا الألم ، ويستحقره بالإضافة إلى ألم الجسم . فالصبى لو خير بين ألم الحرمان عن الكرة والصولجان ، وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان ، لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ، ولم يعد ذاك ألما ، وقال . العدو فى الميدان مع الصولجان ، أحب إلىّ من الفسرير للسلطان مع الجلوس عليه . بل من تغلبه شهوة البطن ، لو خير بين الهريسة والحلواء ، وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ، ويفرح به الأصدقاء ، لآثر الهريسة والحلواء

---

(١) حديث الغضب قطعة من النار : الترمذى من حديث أبى سعيد نحوه وقد تقدم

وهذا كله لفقد المعنى الذى بوجوده يصير الجاه محبوبا ، ووجود المعنى الذى بوجوده يصير الطعام لذيذا . وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ، ولم تظهر فيه صفات الملائكة التى لا يناسبها ولا يلذها إلى القرب من رب العالمين ، ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب . وكما لا يكون الذوق إلا فى اللسان ، والسمع إلا فى الآذان ، فلا تكون هذه الصفة إلا فى القلب . فمن لا قلب له ليس له هذا الحس ، كمن لا سمع له ولا بصر ، ليس له لذة الألحان ، وحسن الصور والألوان . وليس لكل إنسان قلب . ولو كان لما صح قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ[1]) فجعل من لم يتذكر بالقرءان مفلسا من القلب . ولست أعنى بالقلب هذا الذى تكتنفه عظام الصدر ، بل أعنى به السر الذى هو من عالم الأمر ، وهو اللحم الذى هو من عالم الخلق عرشه ، والصدر كرسيه ، وسائر الأعضاء عالمه ومملكته ولله الخلق والأمر جميعا . ولكن ذلك السر الذى قال الله تعالى فيه (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي[2]) هو الأمير والملك ، لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبا ، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التى إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه

وعند ذلك يشم العبد مبادى روائح المعنى المطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه ، وإلى المتعسفين فى طريق تأويله وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين فى التأويل لأن الرحمة على قدر المصيبة ، ومصيبة أولئك أكثر ، وإن اشتركوا فى مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر . فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وهي حكمته يختص بها من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا

ولنعد إلى الغرض ، فقد أرخينا الطول وطولنا النفس ، فى أمر هو أعلى من علوم المعاملات التى نقصدها فى هذا الكتاب . فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر ، فلذلك لم نوردها .

---

(١) ق : ٣٧ (٢) الاسراء : ٨٥

الرتبة الثانية : رتبة المعذبين . وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ، ولكن قصر فى الوفاء بمقتضاه فإن رأس الإيمان هو التوحيد ، وهو أن لا يعبد إلا الله . ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه ، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة . بل معنى قولك لا إله إلا الله ، معنى قوله تعالى (قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ [1]) وهو أن تذر بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى (الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا [2]) ولما كان الصراط المستقيم الذى لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، مثل الصراط الموصوف فى الآخرة ، فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو فى أمر يسير ، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو فى فعل قليل ، وذلك قادح فى كمال التوحيد ، بقدر ميله عن الصراط المستقيم . فذلك يقتضى لا محالة نقصانا فى درجات القرب . ومع كل نقصان ناران : نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ، ونار جهنم كما وصفها القرآن . فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته ، وتفاوته بحسب طول المدة ، إنما يكون بسبب أمرين : أحدهما قوة الإيمان وضعفه ، والثانى كثرة اتباع الهوى وقلته

وإذ لا يخلو بشر فى غالب الأمر عن واحد من الأمرين ، قال الله تعالى (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا [3]) ولذلك قال الخائفون من السلف . إنما خوفنا لأنا تيقنا أنا على النار واردون ، وشككنا فى النجاة . ولما روى الحسن الخبر الوارد [1] فيمن يخرج من النار بعد ألف عام ، وأنه ينادى يا حنان يا منان قال الحسن : ياليتنى كنت ذلك الرجل

واعلم أن فى الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة ، وأن الاختلاف فى المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة ، حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ، ولا يكون له فيها لبث . وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة ، من اليوم ، والأسبوع ، والشهر ، وسائر المدد . وإن الاختلاف بالشدة لا نهاية

---

(١) حديث من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان : أحمد وأبو يعلى من رواية أبى ظلال القسملى عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

---

(١) الأنعام : ٩١ (٢) فصلت : ٣٠ (٣) مريم : ٧١ ، ٧٢

لأعلاه ، وأدناه التعذيب بالمناقشة فى الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين فى الأعمال بالمناقشة فى الحساب ؛ ثم يعفو . وقد يضرب بالسياط، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب

ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث فى غير المدة والشدة ، وهو اختلاف الأنواع . إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط ، كمن يعذب بأخذ المال ، وقتل الولد واستباحة الحريم ، وتعذيب الأقارب ، والضرب ، وقطع اللسان ، واليد ، والأنف ، والأذن وغيره . فهذه الاختلافات ثابتة فى عذاب الآخرة ، دل عليها قواطع الشرع . وهى بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه ، وكثرة الطاعات وقلتها ، وكثرة السيئات وقلتها

أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها . وأما كثرته فبكثرتها . وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات . وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرءان بنور الإيمان ، وهو المعنى بقوله تعالى (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [١]) وبقوله تعالى (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ [٢]) وبقوله تعالى (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى [٣]) وبقوله تعالى(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [٤]) إلى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة ، من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال. وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه . وجانب العفو والرحمة أرجح ، إذ قال تعالى فما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم [١] « سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي » وقال تعالى (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [٥]) فإذاً هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات ، معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظنا، ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار

فنقول كل من أحكم أصل الإيمان ، واجتنب جميع الكبائر ، وأحسن جميع الفرائض، أعنى الأركان الخمسة ، ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصر عليها ، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة فى الحساب فقط . فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته . إذ ورد فى الأخبار أن الصلوات الخمس ، والجمعة وصوم رمضان ، كفارات لما بينهن . وكذلك اجتناب الكبائر

---

(١) حديث سبقت رحمتي غضبي : مسلم من حديث أبي هريرة

[١] فصلت : ٤٦ [٢] غافر : ١٧ [٣] النجم : ٣٩ [٤] الزلزال : ٧ ، ٨ [٥] النساء : ٤٠

بحكم نص القرآن مكفر للصغائر . وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب . وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان ، وبعد الفراغ من الحساب ، في عيشة راضية . نعم : إلتحاقه بأصحاب اليمين ، أو بالمقربين ، ونزوله في جنات عدن ، أو في الفردس الأعلى ، فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان : تقليدي كإيمان العوام ، يصدقون بما يسمعون ويستمرون عليه ، وإيمان كشفي يحصل بانشراح الصدر بنور الله ، حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره ، إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله . فهذا الصنف هم المقربون النازلون في الفردوس الأعلى ، وهم على غاية القرب من الملإ الأعلى ، وهم أيضا على أصناف : فنهم السابقون ، ومنهم من دونهم . وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى : ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر ، إذ الإحاطة بكنه جلال الله غير ممكنة ، وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق ، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم ، وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل . فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازله فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم

وأما المؤمن إيمانا تقليديا من أصحاب اليمين . ودرجته دون درجة المقربين . وهم أيضا على درجات : فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقربين هذا حال من اجتنب كل الكبائر . وأدى الفرائض كلها ، أعني الأركان الخمسة ، التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج

فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر ، أو أهمل بعض أركان الاسلام . فإن تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل ، التحق بمن لم يرتكب . لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المغسول كالذي لم يتوسخ أصلا

وإن مات قبل التوبة ، فهذا أمر مخطر عند الموت ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لتزلزل إيمانه ، فيختم له بسوء الخاتمة ، لاسيما إذا كان إيمانه تقليديا ، فإن التقليد وإن كان جزما فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال . والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة . وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان ، إلا أن يعفو الله ، عذابا يزيد على عذاب المناقشة

فى الحساب . وتكون كثرة العقاب من حيث المدة ، بحسب كثرة مدة الإصرار . ومن حيث الشدة ، بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف النوع ، بحسب اختلاف أصناف السيئات . وعند انقضاء مدة العذاب ، ينزل البله المقلدون فى درجات أصحاب اليمين ، والعارفون المستبصرون فى أعلى عليين . فى الخبر[١] « آخِرُ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ يُعْطَى مِثْلَ الدُّنْيَا كُلِّهَا عَشَرَةَ أَضْعَافٍ » فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين ، أو عشرة بعشرين ، فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال. بل هذا كقول القائل : أخذ منه جملا وأعطاه عشرة أمثاله ، وكان الجمل يساوى عشرة دنانير ، فأعطاه مائة دينار . فإن لم يفهم من المثل إلا المثل فى الوزن والثقل ، فلا تكون مائة دينار لو وضعت فى كفة الميزان ، والجمل فى الكفة الأخرى ، عشر عشيره . بل هو موازنة معانى الأجسام وأرواحها ، دون أشخاصها وهيا كلها ، فإن الجمل لا يقصد لثقله ، وطوله وعرضه ، ومساحته ، ، بل لماليته . فروحه المالية ، وجسمه اللحم والدم ، ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية ، لا بالموازنة الجسمانية . وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة . بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال ، وقيمتها مائة دينار ، وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقا . ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون . فإن روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر ، بل بفطنة أخرى وراء البصر . فلذلك يكذب به الصبي، بل القروى والبدوى ، ويقول ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ، ووزن الجمل ألف ألف مثقال ، فقد كذب فى قوله إنى أعطيته عشرة أمثاله . والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال ، وأن يحصل فى قلبه النور الذى يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال ، فعند ذلك ينكشف له الصدق . والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الموازنة إذ يقول صلى الله عليه وسلم[٢] « الْجَنَّةُ فِي السَّمٰوَاتِ » كما ورد فى الأخبار، والسموات من الدنيا ،

---

(١) حديث ان آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف : متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٢) حديث كون الجنة فى السموات : خ من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث فيه فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن

فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا ! وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة . وكذلك تفهيم البدوي .

وكما أن الجوهري مرحوم إذا بلي بالبدوي والقروي في تفهم تلك الموازنة ؛ فالعارف مرحوم إذا بلي بالبليد الأبله في تفهيم هذه الموازنة. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) « ارْحَمُوا ثَلَاثَةً عَالِماً بَيْنَ الْجُهَّالِ وَغَنِيَّ قَوْمٍ افْتَقَرَ وَعَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ » والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ، ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم ، وامتحان ، وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي ، وهو المعنى بقوله عليه السلام (٢) « الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْأَوْلِيَاءِ ثُمَّ الأَمْثَلِ فَالْأَمْثَلِ »

فلا تظنن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام ، وهو الذي ينزل بالبدن، فإن بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم ، إذ بلي بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فرارا ، ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال (٣) « رَحِمَ اللهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ » فإذاً لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاحدين، ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين . ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلاء ، بالإخراج من البلاد ، والسعاية بهم إلى السلاطين ، والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين . وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين ، كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين

فإذا عرفت هذه الدقائق ، فآمن بقوله عليه السلام إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات ، وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط ، فتكون حمارا برجلين، لأن الحمار يشاركك في الحواس الخمس، وإنما أنت مفارق للحمار بسر الهي،

---

(١) حديث ارحموا ثلاثة عالما بين الجهال ـ الحديث : ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس وعيسى ضعيف ورواه فيه من حديث ابن عباس الا أنه قال عالم تلاعب به الصبيان وفيه أبو البحتري واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين

(٢) حديث البلاء موكل بالأنبياء ثم الاولياء ثم الأمثل فالأمثل :الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال قلت يارسول الله أي الناس أشد بلاء فذكره دون ذكر الأولياء وللطبراني من حديث فاطمة أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ـ الحديث

(٣) حديث رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر :البخاري من حديث ابن مسعود

عرض على السموات، والأرض، والجبال، فأبين أن يحملنه وأشفقن منه ، فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس ، لا يصادف إلا فى عالم ذلك السر الذى فارقت به الحمار وسائر البهائم . فمن ذهل عن ذلك ،وعطله وأهمله،وقنع بدرجة البهائم ،ولم يجاوز المحسوسات فهو الذى أهلك نفسه بتعطيلها ، ونسيها بالإعراض عنها ، فلا تكونوا كالذين نسوا الله ، فأنساهم أنفسهم : فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسى الله إذ ليس ذات الله مدركا فى هذا العالم بالحواس الخمس . وكل من نسى الله أنساه الله لامحالة نفسه ،ونزل إلى رتبة البهائم ، وترك الترقى إلا الأفق الأعلى ، وخان فى الأمانة التى أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافرا لأنعمه ومتعرضا لنقمته . إلا أنه أسوأ حالا من البهيمة ،فإن البهيمة تتخلص بالموت وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها ، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها : وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة ، وإنما هبطت إلى هذا القالب الفانى وغربت فيه ، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها ، وتعود إلى بارئها وخالقها ، إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة . والزاهره المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية،والمظلمة أيضا راجعة إلى الحضرة ، إذ المرجع والمصير للكل إليه ، إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين . ولذلك قال تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ [1]) فبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون ، قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم وانتكست رءوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل ، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه، ولم يهده طريقه ، فنعوذ بالله من الضلال ، والنزول إلى منازل الجهال

فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ، ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر . ولا يخرج من النار إلا موحد . ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله ، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة ، فلا ينفع إلا فى عالم الملك ، فيدفع السيف عن رقبته ، وأيدى الغانمين عن ماله . ومدة الرقبة والمال مدة الحياة . فحيث لا تبقى رقبة ولا مال ، لا ينفع القول باللسان . وإنما ينفع الصدق فى التوحيد . وكمال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجرى عليه ، إذ لا يرى الوسائط ، وإنما يرى

(١) السجده : ١٢

مسبب الأسباب كما سيأتى تحقيقه فى التوكل . وهذا التوحيد متفاوت . فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ، ومنهم من له مثقال ، ومنهم من له مقدار خردلة وذرة . فمن فى قلبه مثقال دينار من إيمان ، فهو أول من يخرج من النار . وفى الخبر يقال [1] « أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ » وآخر من يخرج من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان . وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة . والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل ، كما ذكرنا فى الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود . وأكثر مايدخل الموحدين النار مظالم العباد . فديوان العباد هو الديوان الذى لايترك . فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها . فى الأثر أن العبد ليوقف بين يدى الله تعالى ، وله من الحسنات أمثال الجبال ، لو سلمت له لكان من أهل الجنة ، فيقوم أصحاب المظالم ، فيكون قد سب عرض هذا ، وأخذ مال هذا ، وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لاتبقى له حسنة ، فتقول الملائكة : ياربنا هذا قد فنيت حسناته ، وبقى طالبون كثير . فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته ، وصكوا له صكا إلى النار

وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص ، فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم ، إذ ينقل إليه عوضا عما ظلم به . وقد حكى عن ابن الجلاء ، أن بعض إخوانه اغتابه ، ثم أرسل إليه يستحله ، فقال : لاأفعل ، ليس فى صحيفتى حسنة أفضل منها ، فكيف أمحوها ؟ وقال هو وغيره : ذنوب إخوانى من حسناتى ، أريد أن أزين بها صحيفتى

فهذا ماأردنا أن نذكره من اختلاف العباد فى المعاد فى درجات السعادة والشقاوة . وكل ذلك حكم بظاهر أسباب ، يضاهى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين . فإن ذلك ظن يصيب فى أكثر الأحوال . ولكن قد تتوق إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لايشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لايطلع عليه . وذلك من أسرار الله تعالى الخفية فى أرواح الأحياء ، وغموض الأسباب التى رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم . إذ ليس فى قوة البشر الوقوف على كنهها ، فكذلك النجاة والفوز فى الآخرة

---

(١) حديث آخرجوا من النار من فى قلبه مثقال دينار من إيمان ـ الحديث تقدم

لهما أسباب خفية ، ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها . يعبر عن ذلك السبب الخفى المفضى إلى النجاة بالعفو والرضا ، وعما يفضى إلى الهلاك بالغضب والانتقام . ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية ، التى لا يطلع الخلق عليها . فلذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصى وإن كثرت سيئاته الظاهرة ، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة . فإن الاعتماد على التقوى ، والتقوى فى القلب : وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه ، فكيف غيره ! ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفى فيه يقتضى العفو ، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى . ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف ، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا ، ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [1]) ولا قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ [2]) وكل ذلك صحيح ، فليس للإنسان إلا ما سعى وسعيه هو الذى يرى . وكل نفس بما كسبت رهينة . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم ، تحقيقا لقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ [3])

وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الغلط فيه ، إذ قد يرى البعيد قريبا ، والكبير صغيرا . ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها ، وإنما الشأن فى انفتاح بصيرة القلب ، وإلا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى [4])

الرتبة الثالثة : رتبة الناجين . وأعنى بالنجاة السلامة فقط ، دون السعادة والفوز . وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ، ولم يقصروا فيعذبوا . ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار ، والمعتوهين ، والذين لم تبلغهم الدعوة فى أطراف البلاد ، وعاشوا على البله وعدم المعرفة ، فلم يكن لهم معرفة ، ولا جحود ، ولا طاعة ، ولا معصية ، فلا وسيلة تقربهم ، ولا جناية تبعدهم ، فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار ، بل ينزلون فى منزلة بين المنزلتين

---

(١) فصلت : ٤٦ (٢) النساء : ٤٠ (٣) الرعد : ١١ (٤) النجم : ١١

ومقام بين المقامين ، عبر الشرع عنه بالأعراف [١] وحلول طائفة من الخلق فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار ، ومن أنوار الاعتبار . فأما الحكم على العين ، كالحكم مثلا بأن الصبيان منهم ، فهذا مظنون وليس بمستيقن والاطلاع عليه تحقيقا فى عالم النبوة ، ويبعد أن ترتقى إليه رتبة الأولياء والعلماء ، والأخبار فى حق الصبيان أيضا متعارضة ، حتى قالت عائشة رضى الله عنها [٢] لما مات بعض الصبيان : عصفور من عصافير الجنة ، فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « وَمَا يُدْرِيكِ ؟ » فإذاً الاشكال والاشتباه أغلب فى هذا المقام

الرتبة الرابعة: رتبة الفائزين . وهم العارفون دون المقلدين . وهم المقربون السابقون . فإن

---

(١) حديث حلول طائفة من الخلق الأعراف: البزار من حديث أبى سعيد الخدرى سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال هم رجال قتلوا فى سبيل الله وهم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار ـ الحديث : وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه الطبرانى من رواية أبى معشر عن يحى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدنى عن أبيه مختصرا وأبو معشر نجيح السندى ضعيف ويحى بن شبل لا يعرف وللحاكم عن حذيفة قال أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت سيئاتهم عن الجنة ـ الحديث : وقال صحيح على شرط الشيخين وروى الثعلبى عن ابن عباس قال الأعراف موضع عال فى الصراط عليه العباس وحمزة وعلى وجعفر ـ الحديث : هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين

(٢) حديث عائشة انها قالت لما مات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك وقال مايدريك رواه مسلم قال المصنف والأخبار فى حق الصبيان متعارضة * قلت روى البخارى من حديث سمرة بن جندب فى رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم وفيه وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فابراهيم عليه السلام وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فقيل يارسول الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين وللطبرانى من حديثه سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال هم خدمة أهل الجنة وفيه عباد بن منصور الناجى قاضى البصرة وهو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب وقد ضعفه ابن حبان وللنسائى من حديث الأسود بن سريع كنا فى غزاة لنا ـ الحديث : فى قتل الذرية وفيه ألا ان خياركم أبناء المشركين ثم قال لاتقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة ـ الحديث : واسناده صحيح وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة كل مولود يولد على الفطرة ـ الحديث : وفى رواية لأحمد ليس مولود يولد الا على هذه الملة ولأبى داود فى آخر الحديث فقالوا يارسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وفى الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبرانى من حديث ثابت بن الحارث الأنصارى كانت يهود اذا هلك لهم صبى صغير قالوا هو صديق فقال النبى صلى الله عليه وسلم كذبت يهود مامن نسمة يخلقها الله فى بطن أمه الا أنه شقى أو سعيد ـ الحديث : وفيه عبد الله بن لهيعة ولأبى داود من حديث ابن مسعود الوائدة والموؤدة فى النار وله من حديث عائشة قلت يارسول الله ذرارى المؤمنين

المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام فى الجنة، فهو من أصحاب اليمين. وهؤلاء هم المقربون. وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان . والقدر الممكن ذكره ما فصله القرءان ، فليس بعد بيان الله بيان والذى لا يمكن التعبير عنه فى هذا العالم ٠ فهو الذى أجمله قوله تعالى (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [1]) وقوله عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . والعارفون مطلبهم تلك الحالة التى لا يتصور أن تخطر على قلب بشر فى هذا العالم . وأما الحور ، والقصور ، والفاكهة واللبن ، والعسل والخمر ، والحلى والأساور ، فإنهم لا يحرصون عليها ، ولو أعطوها لم يقنعوا بها . ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم ، فهى غاية السعادات ، ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها : كيف رغبتك فى الجنة ؟ فقالت الجار ثم الدار . فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها ، بل عن كل شىء سواه ، حتى عن أنفسهم . ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه ، المستوفى همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه ، فإنه فى حال الاستغراق غافل عن نفسه ، لا يحس بما يصيبه فى بدنه ، ويعبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه. ومعناه أنه صار مستغرقا بغيره ، وصارت همومه هما واحدا وهو محبوبه ، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه ، لا نفسه ولا غير نفسه . وهذه الحالة هى التى توصل فى الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن تخطر فى هذا العالم على قلب بشر ، كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه ، إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله ، ويعلم قطعا أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته ، فالدنيا حجاب على التحقيق ، وبرفعه ينكشف الغطاء ، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة ، وأن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون

فهذا القدر كاف فى بيان توزع الدرجات على الحسنات ، والله الموفق بلطفه

فقال مع آبائهم فقلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فذرارى المشركين قال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبرانى من حديث خديجة قلت يارسول الله أين أطفالى منك قال فى الجنة قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فأين أطفالى قبلك قال فى النار قلت بلا عمل قال لقد علم الله ما كانوا عاملين واسناده منقطع بين عبد الله ابن الحارث وخديجة وفى الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة فى أولاد المشركين هم من آبائهم وفى رواية هم منهم

[1] السجدة : ١٧

بيـان

ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة . ولذلك قيل لا صغيرة مع إصرار ، ولا كبيرة مع استغفار . فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك ، كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها . ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « خَيْرُ الْأَعْمَالِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ » والأشياء تستبان بأضدادها . وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل ، فالكثير المنصرم قليل النفع فى تنوير القلب وتطهيره ، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره فى إظلام القلب

إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر فقلما يزنى الزانى بغتة من غير مراودة ومقدمات . وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة . فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة . ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ، ولم يتفق إليها عود ، ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره

ومنها أن يستصغر الذنب . فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه ، وكراهيته له . وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به واستصغاره يصدر عن الإلف به ، وذلك يوجب شدة الأثر فى القلب . والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات ، والمحذور تسويده بالسيئات . ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه فى الغفلة ، فإن القلب لا يتأثر بما يجرى فى الغفلة . وقد جاء فى الخبر [2] « الْمُؤْمِنُ يَرَى ذَنْبَهُ كَالْجَبَلِ فَوْقَهُ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ وَالْمُنَافِقُ يَرَى ذَنْبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَأَطَارَهُ »

وقال بعضهم : الذنب الذى لا يغفر ، قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا . وإنما يعظم الذنب فى قلب المؤمن لعلمه بجلال الله . فإذا نظر إلى عظم من عصى به ، رأى الصغيرة كبيرة . وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه . لا تنظر إلى قلة الهدية ؛ وانظر إلى عظم مهديها . ولا تنظر إلى صغر الخطيئة ، وانظر إلى كبرياء من واجهته بها . وبهذا الاعتبار

---

(١) حديث خير الأعمال أدومها وإن قل : متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحب وقد تقدم

(٢) حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه ـ الحديث : البخارى من رواية الحارث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين أحدهما عن النبى صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه فذكر هذا

قال بعض العارفين . لاصغيرة ، بل كل مخالفةفهى كبيرة :وكذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم للتابعين . وإنكم لتعملون أعمالا هى فى أعينكم أدق من الشعر ، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات . إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر . وبهذا السبب يعظم من العالم مالايعظم من الجاهل، ويتجاوز عن العامى فى أمور لايتجاوز فى أمثالها عن العارف لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف .

ومنها السرور بالصغيرة ، والفرح والتبجح بها ، واعتداد التمكن من ذلك نعمة ، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة . فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها فى تسويد قلبه . حتى أن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به ، لشدة فرحه بمقارفته إياه . كما يقول . أما رأيتنى كيف مزقت عرضه ؟ ويقول المناظر فى مناظرته أما رأيتنى كيف فضحته ؟ وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته ؟ وكيف استخففت به ؟ وكيف لبست عليه ؟ ويقول المعامل فى التجارة : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف ؟ وكيف خدعته ؟ وكيف غبنته فى ماله ؟ وكيف استحمقته ؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر، فإن الذنوب مهلكات ، وإذا دفع العبد إليها ، وظفر الشيطان به فى الحمل عليها ،فينبغى أن يكون فى مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه ، وبسبب بعده من الله تعالى . فالمريض الذى يفرح بأن ينكسر إناؤه الذى فيه دواؤه ، حتى يتخلص من ألم شربه ،لايرجى شفاؤه

ومنها أن يتهاون بستر الله عليه ، وحلمه عنه ، وإمهاله إياه ، ولا يدرى أنه إنما يمهل مقتا ليزداد بالإمهال إثما . فيظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله تعالى به .فيكون ذلك لأمنه من مكر الله ، وجهله بمكامن الغرور بالله ، كما قال تعالى(وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ [1])

ومنها أن يأتى الذنب ويظهره ، بأن يذكره بعد إتيانه . أو يأتيه فى مشهد غيره . فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذى سدله عليه ،وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه،أو أشهده

وحديث لله أفرح بتوبة العبد ولم يتبين المرفوع من الموقوف وقد رواه البيهقى فى الشعب من هذا الوجه موقوفا ومرفوعا

---

(١) المجادله : ٨

فعله . فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته ، فتغلظت به . فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه ، وتهيئة الأسباب له ، صارت جناية رابعة ، وتفاحش الأمر . وفى الخبر [(١)] «كُلُّ النَّاسِ مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ يَبِيتُ أَحَدُهُمْ عَلَى ذَنْبٍ قَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَيُصْبِحُ فَيَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ وَيَتَحَدَّثُ بِذَنْبِهِ » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ، ولا يهتك الستر . فالإظهار كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم : لاتذنب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين. ولذلك قال تعالى(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ [(١)]) وقال بعض السلف: ماانتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ، ثم يهونها عليه

ومنها أن يكون المذنب عالما يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم ، وركوبه مراكب الذهب ،وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين ، وتردده عليهم، ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم، وإطلاق اللسان فى الأعراض وتعديه باللسان فى المناظرة ، وقصده الاستخفاف ، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه ، كعلم الجدل والمناظرة . فهذه ذنوب يتبع العالم عليها ، فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا فى العالم آمادا متطاولة . فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه . وفى الخبر [(٢)] «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا» قال تعالى (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ [(٢)]) والآثار مايلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل

وقال ابن عباس : ويل للعالم من الأتباع ، يزل زلة فيرجع عنها ، ويحملها الناس فيذهبون بها فى الآفاق . وقال بعضهم . مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها . وفى الإسرائيليات أن عالما كان يضل الناس بالبدعة ، ثم أدركته توبة ، فعمل فى الإصلاح دهرا . فأوحى الله تعالى إلى نبيهم . قل له إن ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فأدخلتهم النار ؟ . فبهذا يتضح أن أمر العلماء خطر ،فعليهم وظيفتان إحداهما : ترك الذنب ، والأخرى إخفاؤه . وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب، فكذلك

---

(١) حديث كل الناس معافى إلا المجاهرين ـ الحديث: متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ كل أمتى وقد تقدم

(٢) حديث من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ـ الحديث : مسلم من حديث جرير بن عبدالله وقد تقدم فى آداب الكسب

---

(١) التوبة : ٦٧ (٢) يس : ١٢

يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا . فإذا ترك التجمل والميل إلى الدنيا، وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت، ومن الكسوة بالخلق ، فيتبع عليه ويقتدى به العلماء والعوام. فيكون له مثل ثوابهم . وإن مال إلى التجمل ، مالت طباع من دونه إلى التشبه به ، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين ، وجمع الحطام من الحرام . ويكون هو السبب فى جميع ذلك . فحركات العلماء فى طورى الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها، إما بالربح ، وإما بالخسران: وهذا القدر كاف فى تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها

الركن الثالث

فى تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا. وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصى حائلا بينه وبين محبوبه . ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام . ولتمامها علامة، ولدوامها شروط. فلا بد من بيانها، أما العلم فالنظر فيه نظر فى سبب التوبة وسيأتى . وأما الندم : فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب. وعلامته طول الحسرة، والحزن، وانسكاب الدمع، وطول البكاء والفكر. فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته، طال عليه مصيبته وبكاؤه. وأى عزيز أعز عليه من نفسه، وأى عقوبة أشد من النار، وأى شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصى وأى مخبر أصدق من الله ورسوله! ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيبا، أن مرض ولده المريض لا يبرأ، وأنه سيموت منه؛ لطال فى الحال حزنه . فليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض بأدل على الموت من المعاصى على سخط الله تعالى، والتعرض بها للنار. فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى . فعلامة صحة الندم رقة القلب ، وغزارة الدمع. وفى الخبر[1] « جَالِسُوا التَّوَّابِينَ فَإِنَّهُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةٍ »

ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب فى قلبه بدلا عن حلاوتها ، فيستبدل بالميل كراهية ، وبالرغبة نفرة . وفى الاسرائيليات أن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه ، وقد سأله قبول توبة عبد ، بعد أن اجتهد سنين فى العبادة ولم ير قبول توبته فقال : وعزتى وجلالى ، لو شفع فيه أهل السموات والأرض ماقبلت توبته ، وحلاوة ذلك الذنب الذى

---

(١) حديث جالسوا التوابين فانهم أرق أفئدة : لم أجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبى الدنيا فى التوبة قال جالسوا التوابين فان رحمة الله إلى النادم أقرب وقال أيضا فالموعظة إلى قلوبهم أسرع وهم الى الرقة أقرب وقال أيضا التائب أسرع دمعة وأرق قلبا

تاب منه فى قلبه . فإن قلت فالذنوب هى أعمال مشتهاة بالطبع ، فكيف يجد مرارتها

فأقول : من تناول عسلا كان فيه سم ، ولم يدركه بالذوق، واستلذه، ثم مرض وطال مرضه وألمه ، وتناثر شعره . وفلجت أعضاؤه ، فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم ، وهو فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة ، فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ فإن قلت لا ، فهو جحد المشاهدة والضرورة . بل ربما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سم أيضا ، لشبهه به : فوجد أن التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل ، وعمله عمل السم. ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان . ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة ، والتائبون فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى ، متهاونا بالذنوب ، مصرا عليها. فهذا شرط تمام الندم. وينبغى أن يدوم إلى الموت . وينبغى أن يجد هذه المرارة فى جميع الذنوب ، وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل ، كما يجد متناول السم فى العسل النفرة من الماء البارد ، مهما علم أن فيه مثل ذلك السم ، إذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه . ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنا ، بل من حيث إنه مخالفة أمر الله تعالى ، وذلك جار فى كل ذنب

وأما القصد الذى ينبعث منه ، وهو إرادة التدارك ، فله تعلق بالحال ، وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له ، وأداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال وله تعلق بالماضى ، وهو تدارك مافرط . وبالمستقبل ، وهو دوام الطاعة ، ودوام ترك المعصية إلى الموت . وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضى ، أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ، ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة ، وشهرا شهرا ، ويوما يوما ، ونفسا نفسا . وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها ، وإلى المعاصى ما الذى قارفه منها . فإن كان قد ترك صلاة ، أو صلاها فى ثوب نجس ، أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية . فيقضيها عن آخرها . فإن شك فى عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن أنه أداه ، ويقضى الباقى . وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ، ويصل إليه على سبيل التحرى والاجتهاد . وأما الصوم ، فإن كان قد تركه فى سفر ولم يقضه ، أو أفطر عمدا ، أو نسى النية بالليل ولم يقض ، فيتعرف بمجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد ، ويشتغل بقضائه . وأما الزكاة : فيحسب جميع ماله ، وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ ، فإن الزكاة واجبة فى مال الصبى : فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه فى ذمته . فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه ، بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية ، أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى ، فيقضى

جميع ذلك، فإن ذلك لا يجزيه أصلا . وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول، ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء . وأما الحج ، فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج، والآن قد أفلس فعليه الخروج . فإن لم يقدر مع الإفلاس، فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد . فإن لم يكن له كسب ولا مال ، فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به ، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصيا . قال عليه السلام [(1)] « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا » والعجز الطارىء بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها . وأما المعاصي، فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه، وبصره ولسانه، وبطنه، ويده، ورجله، وفرجه، وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته، ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه، حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها، ثم ينظر فيها . فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظالم العباد كنظر إلى غير محرم، وقعود في مسجد مع الجنابة ، ومس مصحف بغير وضوء، واعتقاد بدعة، وشرب خمر وسماع ملاه ، وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها . فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات، أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم [(2)] « اتَّقِ اللهَ حَيْثُ كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » بل من قوله تعالى (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ [(1)]) فيكفر سماع الملاهي بسماع القرءان وبمجالس الذكر . ويكفر القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة . ويكفر مس المصحف محدثا بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرءان منه، وكثرة تقبيله ، وبأن يكتب مصحفا ويجعله وقفا . ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال، وهو أطيب منه وأحب إليه . وعد جميع المعاصي غير ممكن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة . فإن المرض يعالج بضده . فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية، فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها والمتضادات هي المتناسبات، فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة . وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق

---

(١) حديث من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا ـ الحديث : : تقدم في الحج

(٢) حديث اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها : الترمذي من حديث أبي ذر وصححه وتقدم أوله في آداب الكسب وبعضه في أوائل التوبة وتقدم في رياضة النفس

---

(١) هود : ١٤١

المحو ، فالرجاء فيه أصدق، والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات، وإن كان ذلك أيضا مؤثرا فى المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وأثر اتباع الدنيا فى القلب السرور بها، والحنين إليها. فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم. قال صلى الله عليه وسلم[1] « مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبٌ لاَ يُكَفِّرُهَا إِلَّا الْهُمُومُ » وفى لفظ آخر « إِلَّا الْهَمُّ بِطَلَبِ الْمَعِيشَةِ » وفى حديث عائشة رضى الله عنها[2] « إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ أَعْمَالٌ تُكَفِّرُهَا أَدْخَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الْهُمُومَ فَتَكُونُ كَفَّارَةً لِذُنُوبِهِ » ويقال إن الهم الذى يدخل على القلب والعبد لا يعرفه، هو ظلمة الذنوب والهم بها. وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع : فإن قلت: هم الإنسان غالبا بماله وولده وجاهه، وهو خطيئة، فكيف يكون كفارة؟

فاعلم أن الحب له خطيئة، والحرمان عنه كفارة. ولو تمتع به لتمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام، دخل على يوسف عليه السلام فى السجن، فقال له : كيف تركت الشيخ الكئيب؟ فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى، قال فما له عند الله؟ قال أجر مائة شهيد فإذن الهموم أيضا مكفرات حقوق الله. فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . وأما مظالم العباد ففيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا . فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر، وترك مثله فى المستقبل، والإتيان بالحسنات التى هى أضدادها. فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين، وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله. ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب لأن ذلك إحياء، إذ العبد مفقود لنفسه، موجود لسيده. والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه. فيقابل الإعدام بالإيجاد. وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة فى التكفير والمحو مشهود له فى الشرع، حيث كفر القتل بإعتاق رقبة. ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه، ما لم يخرج عن مظالم العباد. ومظالم العباد إما فى النفوس، أو الأموال، أو الأعراض، أو القلوب. أعنى به الإيذاء

---

(١) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها الا الهموم وفى لفظ آخر الا الهم فى طلب المعيشة : طس وأبو نعيم فى الحلية والخطيب فى التلخيص من حديث أبى هريرة بسند ضعيف وتقدم فى النكاح

(٢) حديث اذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم :تقدم أيضا فى النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ ابتلاه الله بالحزن

المحض . أما النفوس، فإن جرى عليه قتل خطأ . فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق، إما منه أو من عاقلته . وهو في عهدة ذلك قبل الوصول: وإن كان عمداً موجباً للقصاص فبالقصاص. فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم، ويحكمه في روحه، فإن شاء عفا عنه ، وإن شاء قتله. ولا تسقط عهدته إلا بهذا. ولا يجوز له الإخفاء. وليس هذا كما لو زنى، أو شرب، أو سرق، أو قطع الطريق، أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه، ويهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى. بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ، ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب. فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين. فإن رفع أمر هذه إلى الوالي حتى أقام عليه الحد، وقع موقعه، وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل ما روى [1] أن ماعز بن مالك، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال. يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهرني. فرده. فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله إني قد زنيت. فرده الثانية. فلما كان في الثالثة، أمر به فحفر له حفرة، ثم أمر به فرجم. فكان الناس فيه فريقين . فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته. وقائل يقول ما توبة أصدق من توبته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِّمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ » [2] وجاءت الغامدية فقالت يا رسول الله، إني قد زنيت فطهرني. فردها. فلما كان من الغد قالت يا رسول، لم تردني؟ لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزا. فوالله إني لحبلى. فقال صلى الله عليه وسلم « أَمَّا الآنَ فَاذْهَبِي حَتَّى تَضَعِي » فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة. فقالت هذا قد ولدته . قال « اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ » فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز، فقالت يا نبي الله، قد فطمته. وقد أكل الطعام. فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها. فأقبل خالد ابن الوليد بحجر، فرمى رأسها، فتنضح الدم على وجهه، فسبها. فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال « مَهْلاً يَا خَالِدُ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ » ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت .

وأما القصاص وحد القذف: فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه وإن كان المتناول مالاً تناوله

---

(١) حديث اعتراف ماعز بالزنا ورده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف أربعا وقوله لقد تاب توبة ـ الحديث: مسلم من حديث بريدة بن الحصيب

(٢) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله صلى الله عليه وسلم لقد تابت توبة ـ الحديث : مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله

بغصب، أو خيانة، أو غبن فى معاملة بنوع تلبيس، كترويج زائف، أو ستر عيب من المبيع، أو نقص أجرة أجير، أو منع أجرته، فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حد بلوغه، بل من أول مدة وجوده. فإن ما يجب فى مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ، إن كان الولى قد قصر فيه . فإن لم يفعل كان ظالما مطالبا به، إذ يستوى فى الحقوق المالية الصبي والبالغ . وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أول يوم حياته إلى يوم توبته . قبل أن يحاسب فى القيامة: وليناقش قبل أن يناقش . فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا طال فى الآخرة حسابه . فإن حصل بمجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن، فليكتبه، وليكتب أسامى أصحاب المظالم واحدا واحدا، وليطف فى نواحى العالم وليطلبهم، وليستحلهم، أو ليؤد حقوقهم . وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار، فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم، ولا على طلب ورثتهم . ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه . فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات، حتى تفيض عنه يوم القيامة، فتؤخذ حسناته وتوضع فى موازين أرباب المظالم ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه، فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيآت أرباب المظالم ؛ فيهلك بسيآت غيره

فهذا طريق كل تائب فى رد المظالم . وهذا يوجب استغراق العمر فى الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم . فكيف ذلك مما لا يعرف، وربما يكون الأجل قريبا فينبغى أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق، أشد من تشميره الذى كان فى المعاصى فى متسع الأوقات . هذا حكم المظالم الثابتة فى ذمته . أما أمواله الحاضرة . فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكا معينا . وما لا يعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به . فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد، ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله فى كتاب الحلال والحرام . وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوءهم أو يعيبهم فى الغيبة . فيطلب كل من تعرض له بلسانه، أو آذى قلبه بفعل من أفعاله، وليستحل واحدا واحدا منهم . ومن مات أو غاب فقد فات أمره، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات، لتؤخذ منه عوضا فى القيامة . وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه، فذلك كفارته . وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له . فالاستحلال المبهم لا يكفى . وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالإحلال، وادخر ذلك فى القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته، أو يحمله من سيئاته . فإن كان فى جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته، كزناه بجاريته أو أهله، أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه، يعظم أذاه مهما شوفه به، فقد انسد عليه طريق

الاستحلال، فليس له إلا أن يستحل منها، ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات، كما يجبر مظلمة الميت والغائب. وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها. ومهما ذكر جنايته، وعرفه المجنى عليه، فلم تسمح نفسه بالاستحلال، بقيت المظلمة عليه، فإن هذا حقه. فعليه أن يتلطف به، ويسعى في مهماته وأغراضه، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإن الإنسان عبد الإحسان، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة. فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه، سمحت نفسه بالإحلال بإ..أبى إلا الإصرار، فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته. التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته. وليكن قدر سعيه في فرحه، وسرور قلبه بتودده وتلطفه، كقدر سعيه في أذاه حتى إذا قاوم أحدهما الآخر، أو زاد عليه. أخذ ذلك منه عوضا في القيامة بحكم الله به عليه. كمن أتلف في الدنيا مالا، فجاء بمثله، فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء، فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى. فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين، وأعدل المقسطين: وفي المتفق عليه من الصحيحين، عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال (1) « كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ قَالَ لَا فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ لَهُ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ قَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاساً يَعْبُدُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِباً مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ حَكَماً بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ » وفي رواية « فَكَانَ إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ مِنْهَا بِشِبْرٍ فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا » وفي رواية « فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي وَإِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي وَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا فَوَجَدُوهُ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ »

---

(1) حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل عن أعلم أهل الارض ـ الحديث: هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبي سعيد

فبهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة . فلا بد للتائب من تكثير الحسنات، هذا حكم القصد المتعلق بالماضى

وأما العزم المرتبط بالاستقبال ، فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً، ويعاهده بعهد وثيق ، أن لا يعود إلى تلك الذنوب، ولا إلى أمثالها. كالذى يعلم فى مرضه أن الفاكهة تضره مثلا. فيعزم عزما جزما أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه. فإن هذا العزم يتأكد فى الحال ، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة فى ثانى الحال. ولكن لا يكون تائبا ما لم يتأكد عزمه فى الحال. ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب فى أول أمره إلا بالعزلة، والصمت وقلة الأكل والنوم، وإحراز قوت حلال. فإن كان له مال موروث حلال، أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية ، فليقتصر عليه. فإن رأس المعاصى أكل الحرام. فكيف يكون تائبا مع الإصرار عليه ! . ولا يكتفى بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات فى المأكولات والملبوسات. وقد قال بعضهم: من صدق فى ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار، لم يبتل بها وقال آخر: من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبدا

ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالما، أن يتعلم ما يجب عليه فى المستقبل . وما يحرم عليه ، حتى يمكنه الاستقامة. وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة، إلا أن يتوب عن بعض الذنوب ، كالذى يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلا، وليست هذه توبة مطلقة. وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لا تصح . وقال قائلون: تصح. ولفظ الصحة فى هذا المقام مجمل. بل نقول لمن قال لا تصح إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلا ، بل وجوده كعدمه. فما أعظم خطأك : فإنا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب، وقلتها سبب لقلته . ونقول لمن قال تصح، إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولا يوصل إلى النجاة أو الفوز ، فهذا أيضا خطأ . بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر . ولسنا نتكلم فى خفايا أسرار عفو الله

فإن قال من ذهب إلى أنها لا تصح : إنى أردت به أن التوبة عبارة عن الندم: وإنما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية ، لا لكونها سرقة . ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجعه لأجل المعصية، فإن العلة شاملة لهما، إذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين ، لأن توجعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين، فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه ، وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا، فكيف يتوجع على البعض دون البعض، فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث إنها معصية . فلا يتصور أن

يكون على بعض المعاصى دون البعض، ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدنين دون الآخر، فإن استحال ذلك من حيث إن المعصية فى الخمرين واحد، وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصى آلات للمعصية، والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة، فإذاً معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة، وتلك الرتبة لا تنال إلا بالندم، ولا يتصور الندم على بعض المتماثلات فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول نقول إن العقد لا يصح، لم تترتب عليه الثمرة وهو أى الملك. وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه، وثمرة الندم تكفير ما سبق فترك السرقة لا يكفر السرقة، بل الندم عليها. ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصى

وهو كلام مفهوم واقع، يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر، أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة. أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر، فأمر ممكن. لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله، وأجلب لسخط الله ومقته. والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه. كالذى يجنى على أهل الملك وحرمه، ويجنى على دابته فيكون خائفا من الجناية على الأهل، مستحقرا للجناية على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده فى الشرع. فقد كثر التائبون فى الأعصار الخالية، ولم يكن أحد منهم معصوما. فلا تستدعى التوبة العصمة. والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا شديدا، ويحذره السكر تحذيرا أخف منه، على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلا، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر. فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعا بحكم شهوته، ندم على أكل العسل دون السكر ، الثانى: أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا ممكن. لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله. كالذى يتوب عن القتل، والنهب، والظلم ومظالم العباد، لعلمه أن ديوان العباد لا يترك، وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه. فهذا أيضا ممكن، كما فى تفاوت الكبائر والصغائر. لأن الكبائر أيضا متفاوتة فى أنفسها وفى اعتقاد مرتكبها. ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التى لا تتعلق بالعباد، كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور، وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصى وهو لا يدرى. فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف، يوجب ذلك تركا فى المستقبل وندما على الماضى. الثالث: أن يتوب عن صغيرة أو صغائر، وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة.

كالذى يتوب عن الغيبة، أو عن النظر إلى غير المحرم، أو ما يجرى مجراه، وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضاً ممكن ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه، ونادم على فعله ندما إما ضعيفا وإما قويا، ولكن تكون لذة نفسه فى تلك المعصية أقوى من ألم قلبه فى الخوف منها، لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة، وأسباب توجب قوة الشهوة، فيكون الندم موجودا، ولكن لا يكون مليا بتحريك العزم، ولا قويا عليه. فإن سلم عن شهوة أقوى منه، بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف، قهر الخوف الشهوة وغلبها، وأوجب ذلك ترك المعصية. وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر، فلا يقدر على الصبر عنه، وتكون له ضراوة مّا بالغيبة، وثلب الناس، والنظر إلى غير المحرم، وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية. فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك، بل يقول هذا الفاسق فى نفسه: إن قهرنى الشيطان بواسطة غلبة الشهوة فى بعض المعاصى، فلا ينبغى أن أخلع العذار وأرخى العنان بالكلية، بل أجاهده فى بعض المعاصى، فعسانى أغلبه، فيكون قهرى له فى البعض كفارة لبعض ذنوبى. ولو لم يتصور هذا لما تُصور من الفاسق أن يصلى ويصوم، ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح، وإن كانت لله فاترك الفسق لله، فإن أمر الله فيه واحد، فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب الى الله تعالى، ما لم تتقرب بترك الفسق وهذا محال بأن يقول. لله تعالى علىّ أمران، ولى على المخالفة فيها عقوبتان. وأنا ملىّ فى أحدهما بقهر الشيطان، عاجز عنه فى الآخر، فأنا أقهره فيما أقدر عليه، وأرجو بمجاهدتى فيه أن يكفر عنى بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتى. فكيف لا يتصور هذا، وهو حال كل مسلم؟ إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته، ولا سبب له إلا هذا. وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة فى بعض الذنوب ممكن وجودها. والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم، والندم يورث العزم. وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « النَّدَمُ تَوْبَةٌ » ولم يشترط الندم على كل ذنب. وقال « التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ » ولم يقل التائب من الذنوب كلها

وبهذه المعانى تبين سقوط قول القائل: إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة، لأنها متماثلة فى حق الشهوة، وفى حق التعرض إلى سخط الله تعالى، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ، لتفاوتهما فى اقتضاء السخط. ويتوب عن الكثير دون القليل، لأن لكثرة الذنوب تأثيرا فى كثرة العقوبة، فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه، ويترك بعض شهوته لله تعالى. كالمريض الذى حذره الطبيب الفاكهة، فإنه قد يتناول قليلها، ولكن لا يستكثر منها. فقد يحصل من

هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بد وأن يكون ما تاب عنه مخالفا لما بقي عليه. إما في شدة المعصية وأما في غلبة الشهوة وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب، تصور اختلاف حاله في الخوف والندم، فيتصور اختلاف حاله في الترك، فندمه على ذلك الذنب، ووفاؤه بعزمه على الترك، يلحقه بمن لم يذنب، وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي . فإن قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة ؟ فأقول لا. لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله، وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه. ولكني أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه، وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها، فإني أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه، وماحيا عنه سيئته إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة، ومات عقيب التوبة، كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة. وتتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغا مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده . فإذاً لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ، إلا أنه لا يعرفه من نفسه. فإن كل من لا يشتهي شيئا يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف. والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه، فعساه يقبله منه. بل الظاهر أنه يقبله . والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين: أحدهما حرقة الندم، والآخر شدة المجاهدة بالترك في المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة. ولولا هذا لقلنا إن التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة، يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة. وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلا . فإن قلت : إذا فرضنا تائبين، أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب، والآخر بقي في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها. فأيهما أفضل؟

فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه. فقال أحمد بن أبي الحواري وأصحاب أبي سليمان الداراني: إن المجاهد أفضل، لأن له مع التوبة فضل الجهاد. وقال علماء البصرة: ذلك الآخر أفضل، لأنه لو فتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرضة الفتور عن المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة. والحق فيه أن الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان

إحداهما : أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط، فالمجاهد أفضل من هذا. إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه، واستيلاء دينه على شهوته، فهو دليل قاطع على قوة اليقين،

وعلى قوة الدين . وأعنى بقوة الدين قوة الإرادة التى تنبعث بإشارة اليقين، وتقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين . فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعا . وقول القائل إن هذا أسلم ، إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب، فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ . وهو كقول القائل العنين أفضل من الفحل ، لأنه فى أمن من خطر الشهوة والصبى أفضل من البالغ، لأنه أسلم . والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه، لأن المفلس لا عدو له، والملك ربما يغلب مرة وإن غلب مرات. وهذا كلام رجل سليم القلب، قاصر النظر على الظواهر، غير عالم بأن العز فى الأخطار، وأن العلو شرطه اقتحام الأغرار. بل هو كقول القائل: الصياد الذى ليس له فرس ولا كلب، أفضل فى صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس ، لأنه آمن من أن يجمح به فرسه ، فتنكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض، وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه. وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قويا عالما بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد

الحالة الثانية : أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين ، وصدق المجاهدة السابقة. إذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة، حتى تأدبت بأدب الشرع ، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين. وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها . فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسى لهيجان الشهوة وقمعها. وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد فإن الجهاد ليس مقصودا لعينه. بل المقصود قطع ضراوة العدو ، حتى لا يستجرك إلى شهواته ، وإن عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين. فإذا قهرته وحصلت المقصود، فقد ظفرت ومادمت فى المجاهدة ، فأنت بعد فى طلب الظفر. ومثاله كمثال من قهر العدو واسترقه، بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد فى صف القتال، ولا يدرى كيف يسلم. ومثاله أيضا مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس ، فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح، بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ولقد زل فى هذا فريق ، فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ، ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق . وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماتتها بالكلية مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فعجز عنه، فقال هذا محال، فكذب بالشرع ، وسلك سبيل الإباحة، واسترسل فى اتباع الشهوات. وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك فى كتاب رياضة النفس

من ربع المهلكات . فإن قلت: فما قولك فى تائبين، أحدهما نسى الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه ، والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه، فأيهما أفضل؟

فاعلم أن هذا أيضا قد اختلفوا فيه. فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك. وقال آخر: حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك. وكل واحد من المذهبين عندنا حق ، ولكن بالإضافة إلى حالين. وكلام المتصوفة أبدا يكون قاصرا ، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ، ولا يهمه حال غيره ، فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجد، حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه، لا يهمه أمر غيره . إذ طريقه إلى الله نفسه، ومنازله أحواله . وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم . فالطرق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة فى القرب والبعد، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلا ، مع الاشتراك فى أصل الهداية . فأقول : تصوّر الذنب وذكره والتفجع عليه، كمال فى حق المبتدىء . لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه، فلا تقوى إرادته وانبعاثه لسلوك الطريق ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله . فهو بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان . فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق. بل سالك الطريق ينبغى أن لا يعرج على غير السلوك . فإن ظهر له مبادى الوصول ، وانكشفت له أنوار المعرفة ولوامع الغيب ، استغرقه ذلك، ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله ، وهو الكمال، بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز، طال تعب المسافر فى عبوره مدة ، من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل . فلو جلس على شاطىء النهر بعد عبوره ، يبكى متأسفا على تخريبه الجسر ، كان هذا مانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع . نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل، بأن كان ليلا فتعذر السلوك ، أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يعربها ، فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ، ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله . فإن حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله ، فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه . وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق، والمقصد، والعائق، وطريق السلوك وقد أشرنا إلى تلويحات منه فى كتاب العلم، وفى ربع المهلكات . بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر فى النعيم فى الآخرة لتزيد رغبته . ولكن إن كان شابا ، فلا ينبغى أن يطيل فكره فى كل ماله نظير فى الدنيا كالحور والقصور . فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته ، فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة . بل ينبغى أن

يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط. فذلك لا نظير له في الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة. فالمبتدى أيضا قد يستضر به. فيكون النسيان أفضل له عند ذلك

ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام فإن قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج، لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بأممهم، فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم، فعليهم التلبس بما تنتفع أممهم بمشاهدته، وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم. فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها، وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهيلا للأمر على المريد. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « أَمَا إِنِّي لَا أَنْسَى وَلَكِنِّي أُنَسَّى لِأُشَرِّعَ » وفي لفظ « إِنَّمَا أَسْهُو لِأَسُنَّ » . ولا تعجب من هذا، فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء، وكالمواشي في كنف الرعاة. أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبي، كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي، كما قال صلى الله عليه وسلم [2] للحسن « كِخْ كِخْ » لما أخذ تمرة من تمر الصدقة ووضعها في فيه. وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول: ارم هذه التمرة فإنها حرام. ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه، ترك الفصاحة ونزل إلى لكنته. بل الذي يعلّم شاة أو طائرا، يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبهيمة والطائر، تلطفا في تعليمه. فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق، فإنها مزلة أقدام العارفين فضلا عن الغافلين، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

---

(١) حديث أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشرع : ذكره مالك بلاغا بغير اسناد وقال ابن عبد البر لا يوجد في الموطأ إلا مرسلا لا اسناد له وكذا قال حمزة الكناني إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الانماطي وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه للأئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسندا

(٢) حديث أنه قال للحسن كخ كخ لما أخذ تمرة من الصدقة ووضعها في فيه : البخاري من حديث أبي هريرة وتقدم في كتاب الحلال والحرام

فهرست الجزء الحادى عشر

فهرست الجزء الحادى عشر